يوليو ٢٠١٦ / العدد ١٤

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

بعض قضايا الفكر الإسلامي في رسائل النور

- قراءة الأنبياء كتاب الكون من خلال رسائل النور
- العمل بإيجابية الأسس والعوائق -دراسة في رسائل النور-
- الحداثة البديل عند بديع الزمان النورسي
- ثقافة البيئة في الفكر الإسلامي من خلال مدرسة بديع الزمان النورسي

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 7, Number 14 (July 2016)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

ISSN 1309-4424
9 771309 442006 14

للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الامتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenandemirtas@gmail.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛

د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الاستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛ أ.د. عبد العزيز خطيب؛

أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛ أ.د. محسن عبد الحميد؛

أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛ د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، حسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة

العدد: ١٤/ يوليو ٢٠١٦

İmak Ofset Basım Yayın Ticaret ve Sanayi Ltd. Şti.
Atatürk Caddesi Göl Sok. No: 1. Yenibosna/Bahçelievler–İstanbul
Tel: +90 (212) 656 49 97

المركز الرئيسي

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١ – التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير–يوليو)، تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢ – تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول ''القرآن الكريم''، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

- كلمة العدد ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

- قراءة الأنبياء كتاب الكون من خلال رسائل النور ..... أ.د. زياد خليل الدغامين ٩
- مبادئ الإصلاح التربوي عند الإمام بديع الزمان النورسي ..... د. أحمد علي سليمان ٢٧

ملف العدد : بعض قضايا الفكر الإسلامي في رسائل النور

- العمل بإيجابية الأسس والعوائق -دراسة في رسائل النور- ..... أ.د. عزيز محمد عدمان ٦٧
- الحداثة البديل عند بديع الزمان النورسي ..... حميد سمير ٨٧
- ثقافة البيئة في الفكر الإسلامي من خلال مدرسة بديع
الزمان النورسي ..... الدكتورة حبيبة أبو زيد ١٠٧
- موقف رسائل النور من منهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة
في بحث مسألة النبوة ..... الدكتورة آسيا شكيرب ١٢٣
- العدالة بين حكمة القرآن وفلسفة الإنسان قراءة في التجربة
الذوقية للحكيم النورسي ..... الدكتور إدريس مقبول ١٤٥

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

- حوار مع الأستاذ عبد الحكيم بن محمد الأنيس ١٦٥
- الإصدارات: قراءة في كتاب: رحلتي مع رسائل النور ١٧١
- المؤتمرات والحلقات الدراسية:
  ١- مؤتمرات وندوات ضمن الموسم الخامس لرسائل النور في الهند ٢٠١٦ ..... ١٨١
  ٢- مؤتمرات وندوات في المغرب ١٨٤
  ٣- مؤتمرات وندوات في باكستان ١٨٧
  ٤- مؤتمر رسائل النور في جامعة اوكرانيا ١٩٠
- معلومات عن النشر في المجلة ١٩٢
- الإشتراك السنوي / Contents ١٩٣

• ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد الرابع عشر

أ.د. عمار جيدل

اعتنى الباحثون بمجلة النور للدراسات الفكرية والحضارية، فنالت حظًا وافرًا من الاهتمام في الشرق والغرب، وانهالت عليها المساهمات والتساؤلات والمساءلات والملاحظات والاستدراكات والتبريكات والدعوات وغيرها مما يضيق السياق بعرض تفاصيله، ويدلّ مجمل ما أشرنا إليه على نوع اهتمام ينشد فيه أصحابه طلب المزيد، وانتظار تسنّم الذروة، ودون ذلك جهود وجهود و... أبطالها أنتم بمقالاتكم النوعية وبحضوركم المعرفي وهمّتكم الحضارية الراقية، وهمّكم التربوي الرفيع، تساعدون في القيام بالمهمّة الفكرية والتربوية والحضارية الجامعة، تلك المهمّة التي تنشد غدا أجمل ووضعا أحسن لأمتنا في ثقافتها ورؤيتها وتدبير شأنها بما يرضي الله ويخدم الإنسان حيث وجد، تستشرف أفقاً إنسانيًا يستعيد بموجبه الإنسان نسخته الأصلية (فطرة الله) التي حاول تعديلها الإنسان بجهله، وتحكّم شهواته، وهيمنة غرائزه بأفق بهيمي، تلك هي المهمّات الجسيمة التي ترمي رسائل النور القيام بها، وهي قمينة بتحقيق كل ذلك، وما دراسات هذا العدد ومقالات ملفه إلاّ مساهمة في هذا الخط الأصلي الأصيل.

استهل العدد بدراستين قيّمتين تناولت الأولى"قراءة الأنبياء كتاب الكون من خلال رسائل النور" للأستاذ الدكتور زياد خليل الدغامين، بيّن فيه المصنف منهج التعامل مع كتاب الكون قراءة وفهمًا وتسخيرًا من خلال تعاليم الأنبياء أو هدي النبوة، مستنبطًا من رسائل النور، موضّحًا مهامه ووظائفه المستحلبة من هذه القراءة. و ولوجها بمفاتيح مواصفاتها ومعاييرها نابعة من خصوصية الأمة الرسالية، التي يدفعها دينها إلى الانخراط في الحركية الكونية الكبرى بأفق النبوة، أما الدراسة الثانية فهي موسومة بـ "مبادئ الإصلاح التربوي عند الإمام بديع الزمان النورسي" للدكتور أحمد علي سليمان، استخرج فيه الباحث مبادئ الفكر الإصلاحي التربوي كما تبدّت له في رسائل النور النورسي، مؤكّدا على جملة من مقوماتها (الإيمانية، والعقلية، والأخلاقية، والعاطفية، والجمالية، و...) الميسّرة للقضاء على الجهل، والتأسيس لمدرسة يتزاوج فيها الدين بالعلم والعلم بالدين، مركزًا على موارد الإفادة من التجربة النظرية الثرية للأستاذ النورسي.

خصصنا ملف العدد لعرض بعض قضايا الفكر الإسلامي في رسائل النور، استهل الملف بالعمل بإيجابية للأستاذ الدكتور عدمان عزيز، ممحورًا بحثه على الأسس والعوائق كما استشفها من رسائل النور، وقد عمل الباحث على تقديم تصور شامل

للعمل بإيجابيّة، وانتهى الباحث في بعض مفاصل دراسته إلى أنّ العمل بإيجابيّة لذة روحية، ويعد هذا المسعى علاجا لبعض علل الزمان، وخاصة فَقْد فقه الموازنة بين الحال والمآل، فكلّ ما كان مفضيا إلى توتّر إضافي فهو من العمل السلبي الذي يتعيّن تركه.

أما الدراسة الثانية فعنوانها: "الحداثة البديل عند بديع الزمان النورسي" للدكتور حميد سمير، خَلُص فيه الباحث إلى أنّ قبول الحداثة والمدنية أو رفضها لا يمكن أن يكون جملةً وتفصيلا، بل يتعيّن بناء موقف منها بما ينبع من الذات، فالحداثة لا تستورد ولا تستورد معاييرها، ذلك أنّ الحداثة الغربية وليدة معطياتها، وكلّ حداثة لا تستوفي معطياتها فهي تكرار لحداثة الآخرين، وليست انتاجا لحداثة، من هنا حذر النورسي من التقليد الأعمى للحضارة الغربية دون فحص وتمحيص، فيتعيّن الوصل بين الدين والعقل عوض الفصل الذي تدعو إلى الحداثة الغربية، وذلك دفعًا لأسباب فسادها وتطعيما للإنسانية من الضلالة والتعاسة.

تناول البحث الثالث "ثقافة البيئة في الفكر الإسلامي من خلال مدرسة بديع الزمان النورسي" للدكتورة حبيبة أبو زيد، وقضية البيئة من القضايا الإنسانية الملحّة، وهي معضلة فكرية تعدّ من أهم الانشغالات المعاصرة، لما لها من أثر مهم على الحدّ من تدمير دارنا (الكون) والحفاظ على العناصر الحيوية فيها، وقد بيّنت الباحثة أنّ عمدة العمد في دفع هذا الخطر الداهم هي التركيز على الإنسان في تغيير فكرته عن البيئة وأبعادها التربوية والوجدانية والحضارية، وقد خَلُصت الأستاذة إلى أنّ للنورسي رؤية فكرية متكاملة في قضية البيئة، تختصر في ثلاثة معالم رئيسة هي أصول الثقافة البيئية في الفكر الإسلامي، وهي جامعة لثقافة البيئة في الفكر الإسلامي كما ينبغي للمسلمين أن يقدموها للعالم بصفتها قيمة مضافة نفيسة لمعالجة معضلة البيئة.

خصصت الدراسة الرابعة لعرض "موقف رسائل النور من منهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة في بحث مسألة النبوة"، للدكتورة آسيا شكيرب، انتهت الباحثة إلى أنّ مبحث النبوة من القضايا الرئيسة في رسائل النور، استمدت عناصرها من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، واتسمت نظرته لها بنقد مسالك بحثها عند كلّ من الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة؛ حرص النورسي على ردها وفق منهج علمي يستند على الحجج والأدلة صونًا للنبوة ومنهج عرضها وأبعادها الوظيفية.

عالج البحث الخامس مسألة في غاية الأهمية في الفكر الإنساني، إنّها قضية

العدالة، واختار لها مصنفها عنوان: "العدالة بين حكمة القرآن وفلسفة الإنسان قراءة في التجربة الذوقية للحكيم النورسي" للدكتور إدريس مقبول، وقد اختار الباحث عنوانا تنبجس منه الدلالة على مهارة الارتشاف من الحكمة القرآنية المتجاوزة للعقل المجرّد، ذلك أنّها هي نفسها تطهير من شوائب النفس والعقل، ودعوة للانخراط فيما يدفع تخبط البشرية من غياب العدالة وتفشي المظالم وافتقاد السعادة، ذلك أنّ مبنى الأطروحات المدفوعة على تنوّعها القوة بمعناها وأبعادها البهيمية، بخلاف نظرة الحكيم المستمدة من منابعها الأصيلة؛ فهي مؤسسة على قوة عمدتها الفضيلة السامية، وهي رأس الأدوية التي تطعّم الإنسان ضد مبدأ المنفعة لأنّه قاطرة تجر إلى الصراع، والتنافي والتصادم.

استضفنا لقرائنا الكرام في حوار العدد، الأستاذ الدكتور عبد الحكيم بن محمد الأنيس، وقد غطى الحوار جملة الانشغالات المعرفية والتربوية والعلمية التي تشغل بال الأستاذ، وقد كانت الفرصة سانحة للاستزادة من تجربته في التعامل مع رسائل النور منهجًا وموضوعًا ومسلكًا، كما عرضنا لكم آخر الإصدارات ممثّلة في كتاب ليس كالكتب، وقد استجاب فيه صاحبه (الأستاذ إحسان قاسم الصالحي مترجم رسائل النور إلى اللغة العربية) لدعوات ملحّة ومصرّة على تسجيل تجربته في مكابدة نص رسائل النور تفهّمًا ثم ترجمة ثم تبليغًا، و قد كانت طبيعة الكتاب الخاصة ماتعة. وبقدر تلك المتعة كانت صعوبة التلخيص، ذلك أنّ كتابًا يشبه المذكرات ولكنه ليس كذلك، ويشبه السيرة الذاتية ولكنّه غيرها، ويقرب من معايشة معاني رسائل النور، ولكنه مباين لها، فبأي طريقة يلخّص الكتاب وهو نفسه ملخّص؟ لهذا كان ملخص التعريف بالكتاب تشويقًا لقراءته أكثر من كونه تلخيصًا.

عرّفنا في هذا العدد بالمؤتمرات والحلقات الدراسية، فغطينا فعاليات مؤتمرات وندوات الموسم الخامس لرسائل النور في الهند ٢٠١٦، فضلا عن مؤتمرات وندوات في المغرب، ومؤتمرات وندوات في باكستان، ومؤتمر رسائل النور في جامعة أوكرانيا.

نسجّل أنّ حصيلة العدد كانت إيجابية إلى حدّ بعيد، ولكن بلوغ الأحسن بحاجة إلى مساهماتكم الجدّية الجديدة النافعة لحاضر الأمة ومستقبلها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

* * *

الدراسات والبحوث

قراءة الأنبياء كتاب الكون من خلال رسائل النور

–ABSTRACT–

The Prophets' Reading of the Cosmic Book In the Light of the Risale-i Nur

Prof. Dr. Ziyad Khalil al-Daghamin

This work aims to reveal the ideal method, derived from the Risale i-Nur (through the teachings of prophets or the course of prophecy), in dealing with the Book of The Universe - using the methods of reading, understanding and application. For this purpose, the research focuses on comprehending the objective of such a reading and seeks the keys to reading the Book of Universe through applying specific standards. These stem from the unique characteristic of this nation which bears such a responsibility; proving to be the best nation ever to be brought forth from humanity. Furthermore, the research examines if the modern sciences can provide a comprehensive reading of the universe and highlights the most important issues of reading the universe according to Nursi. These comprise the issues of understanding the universe from Nursi's perspective, the aims of the creation of the universe, the relation between the Quran and the universe, the impact of modern science on reading the universe, the material readings of prophets and philosophers, and the basis of reading the universe. From these different issues, a number of results are provided.

– ملخص البحث –

أ.د. زياد خليل الدغامين[1]

يهدف هذا البحث إلى بيان المنهج الأمثل الذي تم استنباطه من رسائل النور للتعامل مع كتاب الكون قراءة وفهما وتسخيرا من خلال تعاليم الأنبياء أو هدي النبوة، فعمد إلى بيان المهام والوظائف المترتبة على هذه القراءة. وبيان مفاتيح قراءة كتاب الكون بمواصفات ومعايير خاصة تنبع من خصوصية هذه الأمة التي حملت الأمانة، وكانت خير أمة أخرجت للناس؟ وتساءل البحث عن العلوم والمعارف الحديثة هل استطاعت أن تقف على قراءة كاملة للكون؟ وسيبرز البحث أهم قضايا قراءة الكون في

نظر النورسي، مثل: الكون في نظر النورسي، ومقاصد خلق الكون، والعلاقة بين القرآن والكون، وأثر العلوم المعاصرة في قراءة الكون، وقراءة الأنبياء وقراءة الفلاسفة الماديين، ومنطلقات قراءة الكون، وأسفرت الخاتمة عن جملة نتائج.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى أله وصحبه ومن والاه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد،

فلعله ما أساء المسلمون في العصر الحاضر كما أساؤوا في منهج قراءة كتاب الكون، حيث نجم عن هذه الإساءة تخلف في مسيرة حياة الأمة، ونكوصها عن اللحاق بركب الأمم على الصعيد العلمي والتكنولوجي. ولعل هذه الإساءة مترتبة عن سوء قراءة كتاب الوحي أيضا، حيث قرئ قراءات محدودة لم تتجاوز في أحسن الأحوال الوصول بالقراءة إلى تحصيل الأجر والثواب بقطع النظر عن الفهم والعمل اللذين توجبهما القراءة الصحيحة لكتاب الوحي.

وعليه، فإن هذا البحث سيتوجه إلى إبراز منهج النورسي في بيان هدي الأنبياء صلوات الله عليهم في قراءة كتاب الكون من منظور رسائل النور، فقد بينت هذه الرسائل المقصود بالكون، ما هو، وما حقيقته، وما حكمة وجوده، وهل ثمة شبه بينه وبين الإنسان، وما غاياته وأهدافه؟

ويسعى هذا البحث أيضا إلى بيان المهام والوظائف المترتبة عن هذه القراءة. وبيان مفاتيح قراءة كتاب الكون، هل يقرأه المسلمون كما تقرأه أمم الشرق والغرب؟ أم لا بد من قراءة بمواصفات ومعايير خاصة تنبع من خصوصية هذه الأمة التي حملت الأمانة، وكانت خير أمة أخرجت للناس؟ وهل استطاعت العلوم والمعارف الحديثة أن تقف على قراءة كاملة للكون؟

وسنبرز في هذا البحث أهم قضايا قراءة الكون في نظر النورسي، ونجملها في النقاط الآتية:

١. الكون في نظر النورسي

٢. مقاصد خلق الكون

٣. العلاقة بين القرآن والكون

٤. أثر العلوم المعاصرة في قراءة الكون

٥. قراءة الأنبياء وقراءة الفلاسفة الماديين

٦. منطلقات قراءة الكون

٧. الخاتمة وتشتمل على أهم نتائج البحث وتوصياته

١. الكون في نظر النورسي

ينطلق النورسي في تعريف الكون من منطلق قرآني خالص، وعقيدة إيمانية راسخة جعلته يعرّفه تعريفاً فات كثيراً من العلماء والفلاسفة الوقوف عليه، وجعلته يحيط بشمول قلّ نظيره في كتب السابقين، فالكون في نظر النورسي كتاب، ومسجد، أما كون كتاباً فلأنه يعلّمنا بآياته التكوينية الدلالة على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته، ويشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة .ويثبت أيضاً كمال ذاته الجليلة المبرأة من كل نقص، والمنزّهة عن كل قصور؛ ذلك لأن ظهور الكمال في أثرٍ ما، يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره، كما هو بديهي، وكمال الفعل هذا يدلّ على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات، وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات - ذات الشؤون - حَدساً وضرورة وبداهة... هذا الكون إنسان أكبر، يذكر ربَّه بصوت عالٍ، والأصوات الرقيقة لأجزائه وذراته كلها تدوي مع ذلك الصوت الهادر: لا إله إلا هو.[2]

ويبين أنه مادة عظيمة للقراءة، ويصفه بأنه كتاب مفتوح يحتاج إلى مطالعة للنظر في آفاقه.[3]

وأما كونه مسجداً فلأنّ جميع المخلوقات -ولا سيما السموات والأرض- منهمكة في ذكر وتهليل وتسبيح ينبض بالحيوية. وقد تسنم الكل وظائفهم بكل شوق ونشوة، وهم ينجزونها بكل سعادة وامتنان.[4] فاعتبار الكون مسجدا واعتبار كل مخلوق فيه بحكم مصلّ عابد لله الواحد يوضح الأبعاد التي يرمي إليها النورسي في قراءة الكون.

ولأنه مسجد عظيم تلهج كل مخلوقاته بتسبيح الله تعالى، ولم يخرج عن نظام هذا المسجد إلا مردة الإنس والجن، يقول النورسي: وهكذا فالكون يسبح خالقه الجليل متفقا، ويشهد على وحدانيته، مؤدياً بكمال الطاعة ما أنيط به من وظائف العبودية. إلا

الإنسان الذي هو خلاصة الكون ونتيجته وخليفته المكرم وثمرته اليانعة، يقوم بخلاف جميع ما في الكون وبضده، فيكفر بالله ويشرك به .فكم هو قبيح صنيعه هذا؟ وكم يا ترى يستحق عقاباً على ما قدمت يداه.[5]

وهو مسخر للإنسان ليمارس نشاطه المعنوي والمادي كاملاً، لقد جعل الحي القيوم سبحانه الإنسان مركزاً للكون، ومحوراً له، وسخّر الكون له فمدّ أمامه سفرة عظيمة عظم الكون لتتلذذ أنواع معداته المادية والمعنوية.[6]

هذا التعريف ذو دلالة واضحة تدل على أنّ الاتجاه الصحيح للقراءة ينبغي أن يتم وفق هذا التعريف، ذلك لأنّ تعريف الشيء فرع عن تصوره، فإذا ما تصورنا الكون على هذا النحو فإن قراءته ستكون قراءة آمنة مستقيمة ذات مقاصد جليلة. أما إذا قرئ الكون على أسس الفلسفة المادية وتخليطاتها، فإنها بدون شك ستكون قراءة شاذة مضطربة!

٢. مقاصد خلق الكون

الوقوف على مقاصد خلق الكون وأسرار وجوده يعين -كذلك- على قراءته قراءة صحيحة هادية إلى الحق، ومبيّنة وظيفة الإنسان فيه. ولهذه المقاصد ينبغي أن يقرأ الكون، ويبين قراءة الأنبياء له. يقول رحمه الله: "إن هذا الكون قد زُيِّن بحِكَمٍ ومصالح شتى ضمن انتظام كامل لا نقص فيه، وان تلك الأنظمة البديعة والحِكَم السامية النابعة من تلك الحكمة المعجزة المحيطة بالكون قد أدرجت بمقياس اصغر، حتى في اصغر كائن حي وفي أصغر بذرة.[7] وقد أوجده الله لغايات سامية، ومقاصد جليلة، إظهارا لكماله.[8] ومن أبرز هذه المقاصد:

أ. إثبات التوحيد والوحدانية المطلقة لله الخالق سبحانه وما له من أسماء وصفات:

توجهت معظم رسائل النور إلى بيان هذا المقصد في كل مناسبة، يقول رحمه الله: إن جميع الموجودات من الذرّات إلى السيارات كل منها برهان نيّر على وجوب وجوده سبحانه، وهو الواجب الوجود والقدير المطلق، فكل سلسلة من السلاسل الموجودة في العالم دليل قاطع على وحدانيته.[9]

ويرى أن قراءة كتاب الكون لتدلل على وحدانية الخالق، بل إن الكون لا يفهم إلا ليعرّف بخالقه سبحانه، فيقول: إنّ القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطراداً، للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى، أي يُفهم معاني هذا الكتاب، كتاب

الكون العظيم كي يعرِّف خالقه.[10] إن هذا الكون مظهر لجميع تجليات الأسماء الحسنى.[11]

إنّ هذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّره ومدبّره البديع وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه إلى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه.[12] فهو شاهد صدق على وحدانية الخالق سبحانه.

هذا الكتاب يدل على الخالق سبحانه، ويفهم معنى الله أكبر، ويعلم التقديس بـ سبحان الله، ويحبب الله إلينا بثناء الحمد لله.[13]

والخلاصة التي يقررها النورسي أن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مَشْهَرَاً لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشراً لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممراً لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجداً لعباده المتراصين صفوفاً عليها، ومقراً لأداء عباداتهم ..هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نوراً وضياءً.[14]

ويعدّ الشرك كذباً وافتراءً وتطاولاً على نظام الوجود كله، ويؤكد أن لا مجال للشرك في هذا الكون، فيقول: إنّه لا مكان للشرك قط في هذا الكون الشاسع العظيم الذي أبدعه الصانع القدير الحكيم بقدرته وحكمته؛ لأن وجود منتهى النظام في كل شيء لن يسمح بالشرك أبداً، فلو تدخلت أيدٍ متعددة في خلق شيء ما لبان التفاوت والاختلال في ذلك الشيء.[15]

نعم؛ ان الشرك استهانة بشعة بالكون، وتعدّ عظيم عليه، وحطّ من قيمته وتهوين من شأنه، لإنكاره حكمة الخلق وردّه وظائف المخلوقات، تلك الوظائف الجليلة.[16] لأنّ العالم الأكبر، أي: الكون كله، والإنسان وهو العالم الأصغر ومثاله المصغر، يظهران معاً دلائل الوحدانية المسطّرة في الآفاق والأنفس بقلم القدر والقدرة.[17]

ب. إثبات الحشر والآخرة

إثبات الحشر بوصفه مقصدا أعظم لوجود هذا الكون من القضايا الرئيسة في رسائل النور، فوجود الحشر كوجود الكون، فمن أنكر وجود الآخرة أنكر وجود الكون، قال رحمه الله: الذي يريد أن ينكر الآخرة عليه أن ينكر وجود هذا الكون أولاً

بجميع ما فيه من حقائق، وإلا فالكائنات مع حقائقها المتأصلة فيها تكذِّبه بألوفٍ من الألسنة، وتثبت له انه الكذّاب الأشر.[18]

ويبين أن مسألة الحشر حقيقة راسخة قوية بحيث لا يمكن أن تزحزحها أيّة قوة مهما كانت حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقرّ تلك الحقيقة بمقتضى أسمائه الحسنى جميعها وصفاته الجليلة كلها .وان رسوله الكريم ﷺ يصدّقها بمعجزاته وبراهينه كلها .والقرآن الكريم يثبتها بجميع آياته وحقائقه . والكون يشهد لها بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة.[19] فمؤدّى هذا الكون إلى زوال، وليس فيه ما يمكن أن يكون خالدا، أو يتصف بصفات الخلود، فزواله مؤذن ببداية حياة آخرة. وهو أمر يشهد له نظام الكون والموجودات كلها.

إنّ حقيقة كمالات هذا الكون وآياته التكوينية الحكيمة وجميع حقائقه المرتبطة بالحقائق الإنسانية تدل دلالة قاطعة على وجود الآخرة وعلى تحققها وتشهد شهادة صادقة على مجيء الحشر وانفتاح أبواب الجنة والنار.[20]

ج. إثبات النبوة

تنبهت رسائل النور إلى أهمية وجود قارئ يكون أسوة في قراءة هذا الكون، وجعل سلسلة النبوة هي ذلك القارئ الحقيقي الذي يتأهل للأسوة والقدوة، وجعل من نبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ تلك الأسوة الحسنة في القراءة، فوجود الكون يقتضي وجود تلك السلسلة من الأنبياء: يقول رحمه الله: كما أن هذا الكون يدل على صانعه وكاتبه، ومصّوره الذي أوجده، والذي يديره، ويرتبه، ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير... فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبّر عما في هذا الكتاب الكبير من معانٍ، ويعلم ويُعلّم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلّم الحكم الربانية في تحوّلاته وتبدّلاته، ويدرّس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات، أي: يقتضي داعياً عظيماً، ومنادياً صادقاً، وأستاذاً محققاً، ومعلماً بارعاً، فأدرك السائح أن الكون -من حيث هذا الاقتضاء- يدل ويشهد على صدق هذا النبي الكريم ﷺ وصوابه الذي هو أفضل من أتمّ هذه الوظائف والمهمات وعلى كونه أفضل واصدق مبعوث لرب العالمين.[21] فبه ﷺ يقتدى في قراءة كتاب الكون.

إن محمدًا ﷺ الذي استقبل مظاهر ربوبية رب العالمين، وسرمدية ألوهيته، وآلائه العميمة التي لا تعد ولا تحصى، استقبلها بعبودية كلية وتعريف لربه الجليل. هذا النبي

الكريم ضروري كضرورة الشمس لهذا الكون؛ إذ هو أستاذ البشرية الأكبر.[22] فهو المعلم، وهو القارئ الحقيقي لنظام الكون ومفردات وجوده، والكاشف عن أسراره و طبيعة علاقاته.

د. إثبات مقصد الشكر وتحقيق العبودية لله رب العالمين

أضاف النورسي رحمه الله مقصداً آخر من مقاصد خلق الكون، وهو القيام بحق الشكر، فقال: مثلما يبيّن القرآن الحكيم أن الشكر نتيجة الخلق والغاية منه، فالكون الذي هو بمثابة قرآن كبير مجسّم يُظهِر أيضاً أن أهمّ نتيجة لخلق الكائنات هي الشكر.[23] أي شكر المنعم سبحانه على نعمائه وآلائه.

إنّ المعجزة الكبرى للرسول الأعظم ﷺ وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجز، تتجلى فيه حقيقة تعليم الأسماء بوضوح تام، وبتفصيل أتم، ويبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية، ويُظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها ويوجهه نحوها، مثيراً فيه رغبة شديدة فيها، حتى انه يبين بأسلوب التشويق أن ''أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وان الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات.[24]

هذه أبرز المقاصد التي خلص إليها النورسي رحمه الله -إضافة إلى التعريف الذي ذكره- تحدّد معالم القراءة الحقيقية للكون وغاياتها، فلا مجال للهو والعبث في هذا الوجود. وكما أنّ القرآن معلم، كذلك الكون هو معلم، وكذلك النبوّة علمت الإنسان المنهج الأقوم في هذه القراءة، التي تتوجه أساساً إلى إثبات هذه المقاصد، وبذلك يمتاز النورسي بهذا البيان للمقاصد الكونية من حيث مواجهته الفلسفة الإلحادية التي تقرأ كتاب الكون قراءة صماء بكماء بعيداً عن هذه المقاصد، حيث اشتغلت بالصنعة عن الصانع، وبالخلق عن الخالق جلّ جلاله!

٣. العلاقة بين القرآن والكون

القرآن والكون كتابات عظيمان من كتب الله سبحانه، أحدهما مسطور والآخر منظور، ولا يفهم أحدهما إلا في ضوء الآخر، ولا يقرأ إلا بوجوده. قال رحمه الله: ''إنّ القرآن الكريم المقروء هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور''[25] ومقصد هذا التفسير هو بيان تناسق

الصنعة الإلهية في الكون.[26] فإذا كان القرآن تفسيراً لكتاب الكون فكيف يقرأ كتاب الكون بعيداً عنه!

وتتأكد أهمية هذه العلاقة حين يبين النورسي أن القرآن يحوّل الكون إلى كتاب ناطق، فيرى أنّ القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة يمزّق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة.. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويُلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم أمام العقول.[27] ويرسخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والأنفس.[28]

لقد أنقذ قراء تاريخ الأمم السالفة وحوادث العالم مما يطرأ عليها من الخرافات والافتراءات والأكاذيب، وأرشدهم إلى أحداث الماضي ووقائع الكون النيرة.[29]

والقران الكريم يأمر بالتفكر في الكون.[30]

كذلك، فإنّ كتاب الكون يفسّر آيات القرآن الكريم، يقول رحمه الله: ''إن كتابَ الكونِ المشهود بآياته الشؤونية تفسّر تلك الآيات القرآنية، وتقرّبُها إلى فهمك بإراءة كثيرٍ من نظائرها المشهودة لعينك، في تلافيف اختلاف الليل والنهار، وفي معاطفِ تحولِ الفصول والأعصار.[31] وهو تفسير منهجي يجعل من قراءة الكون بعيدا عن القرآن قراءة ذات مقاصد دنيا.

ويبين آثار القراءة ويدعو إلى الانتفاع بها في واقع سلوك الإنسان، فيقول: ''إن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا، فلننصت إليه! ولنتنّور بنوره، ولنعمل بهديه الحكيم؛ حتى يكون لساننا رطباً بذكره وتلاوته![32]

ومن الأمور البديعة التي أوردها النورسي في أوجه علاقة القرآن بالكون، أن أحكام القرآن الكريم مرتبطة بالكون ارتباطا وثيقا، وضرب مثلا بذلك في الاقتصاد والنهي عن التبذير والإسراف، وهذا حكم قرآني مبني على الحكمة، والحكمة مهيمنة على نظام الكون، وهي تجلّ أعظم لاسمه الحكيم. وكذا العدالة، والطهر، وهما مظهر لتجلي اسمه العدل، والقدوس. ثم قال: اعلم أن ''العدالة والاقتصاد والطهر'' التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف

أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم إن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته.[33]

ويؤكد النورسي قضية في غاية الأهمية وهي أن كتاب الكون يتجدد كما يتجدد كتاب الوحي بوفرة المعاني والحكم والأسرار، فيقول: إن أسماء الله الحسنى لها تجليات لا تحد ولا تحصر، فتنوع المخلوقات إلى أنواع لا تحصر ناشئ من تنوع تلك التجليات غير المحصورة... بمعنى ان تلك الأسماء تقضى بتجدد كتاب الكون، أي تجدد الموجودات آناً فآناً، باستمرار دون توقف.[34]

٤. أثر العلوم المعاصرة في قراءة الكون

يوظف النورسي رحمه الله العلوم المعاصرة في قراءة الكون ويبين أنّها كالمجسات في اكتشاف النظام الذي تسير عليه الكائنات، فكل نوع من أنواع الكائنات قد خصّ بعلم أو في طريقه إلى ذلك، لذا يُظهر كلُ علمٍ ما في نوعه من انتظام ونظام بكلية قواعده، لأن كل علم في الحقيقة عبارة عن دساتير وقواعد كلية. وكلية القواعد تدل على حسن النظام؛ إذ ما لا نظام له لا تجري فيه الكلية .فالإنسان مع أنه قد لا يحيط بنفسه بالنظام كلّه إلا أنه يدركه بجواسيس العلوم، فيرى أن الإنسان الأكبر - وهو العالم - منظمٌ كالإنسان الأصغر سواءً بسواء .فما من شيء إلا ومبني على أسس حكيمة، فلا عبث، ولا شيء سدىً.''[35] وثمرة هذه العلوم هي الدلالة على خالق الكون، قال رحمه الله: ''وهكذا فإنّ كل علم من العلوم العديدة جداً، يدل على خالق الكون ذي الجلال - قياسا على ما سبق- ويعرّفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته، وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادّة باصرة، ونظرات ذات عبرة.[36]

وتطبيقاً لمبدأ الجمع بين القراءتين يدعو النورسي رحمه الله إلى مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية[37] ولا بد من فتح طريق لجريان العلوم الكونية الحديثة إلى المدارس الدينية، بفتح نبع صافٍ لتلك العلوم بحيث لا ينفر منها أهل المدارس الدينية، ولقد قلت مراراً بأن فهماً خطأً وتوهماً مشؤوماً قد أقاما - لحد الآن - سدّين أمام جريان العلوم.[38]

ويحذر النورسي -في الوقت نفسه- من العلوم المادية القادمة من الغرب ويصفها بأنها ضارّة، إلا للضرورة وللحاجات، وللصنعة، واستراحة البشر.[39] وهذا ليس نكرانا

لأهمية تلك العلوم، بل هو يوظفها توظيفا تنقضي به مصالح البشر المادية، وسبب هذا التحفظ أنها اشتغلت بالخلق عن الخالق. وضلت بإيثار الصنعة عنه جل جلاله.

٥. قراءة الأنبياء وقراءة الفلاسفة الماديين

شكلت قراءة كتابي الوحي والكون محوراً مهما في رسائل النور، واكتسبت أهمية كبيرة؛ نظراً للتحدي الكبير الذي شكلته القراءة الخاطئة لهذين الكتابين، خصوصا قراءة كتاب الكون الذي ضلت بقراءته الفلسفة الغربية، ومن أجل هذا كثر حديث النورسي عن القراءة الخاطئة للكون التي قامت بها الفلسفة الغربية فضلت، وأضلت كثيراً من الخلق.

وفي عرض مقارنته بين سلسلة النبوة والدين وسلسلة الفلسفة يبين النورسي أن بونًا شاسعاً بين هاتين السلسلتين، في فهم الكون وقراءته، فالفلسفة أضفت على الكون كآبة فصار مقبرةً شاسعة موحشة، وميدان إعدامات مخيفة، ولكن النبوّة جعلته روضة من رياض النور... وتضخم ''الأنا'' في نظر الفلسفة الغربية بوصفه أحد مقروءات هذا الوجود فكان يدل على نفسه بنفسه، وأن وجوده حقيقة وليس ظلاً، وأنه مالك حقيقي... وبدأت تتحدث عن مظاهر الوجود على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من:ما أجمل خلق هذا!![40]

ولقد اعتقد عظماء الفلسفة وروادها ودهاتها، أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي -بناء على تلك الأسس الفاسدة- بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي ''التشبّه بالواجب''! أي بالخالق جلّ وعلا، فأطلقوه حكماً فرعونياً طاغياً، ومهّدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، أمثال: عَبدة الأسباب وعَبدة الأصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم ''الأنانية'' لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، وغلّقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلوا في أوحال الطبيعة وما نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع. وتقضي أن معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه.. المتلبسة بأنواع من الشرك، امثال: عَبدة الأسباب وعَبدة الأصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم... هكذا نظر الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ومَن تبعهم من الأصفياء والأولياء، إلى ''أنا'' بهذا الوجه. وشاهدوه على حقيقته هكذا. فادركوا الحقيقة الصائبة، وفوّضوا المُلك كله إلى مالك الملك ذي

الجلال، واقرّوا جميعاً، ان ذلك المالك جل وعلا لا شريك له ولا نظير، لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في ألوهيته، وهو المتعال الذي لا يحتاج إلى شيء، فلا معين له ولا وزير، بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير .وما ''الأسباب'' إلاّ أستار وحُجب ظاهرية تدل على قدرته وعظمته... وما ''الطبيعة'' إلاّ شريعته الفطرية، ومجموعة قوانينه الجارية في الكون، إظهاراً لقدرته وعظمته جل جلاله.[41] وتحقيقا للعبودية[42] فأي قراءة للكون لا تحقق العبودية لله تعالى هي قراءة منحرفة مخالفة لنهج الأنبياء.

ويؤكد ضرورة النبوة لضبط القوانين الجارية في نظام الكون، فيقول: إنّ النبوة التي هي قطب المصالح الكلية ومحورها ومعدن حياتها ضرورية لنوع البشر. فلو لم تكن النبوة لهلك النوع البشري. إذ كأنه ألقي من عالم مختل إلى عالم منظم، فيخل بالقوانين الجارية العامة.[43] لأن النبوة تفسر حقيقة ذلك النظام والانتظام في الوجود وتسنده إلى خالقه الحقيقي وليس إلى الصدفة كما زعم الفلاسفة الماديون وغيرهم.

إنّ وظيفة النبوة لا تقتصر على تعليم العلوم الإلهية والسمو بعالم الروح، بل لتلقّن العلوم الإلهية والحكمة الربانية، فجمع فيهم سلطنة الدنيا السعيدة وسعادة الآخرة الخالدة.[44] كما في شأن يوسف عليه السلام.

إن أكبر تزوير ارتكبته الفلسفة هو أنها ضخمت وجود الإنسان حتى عادلته بوجود الله، ولم تر أنه مخلوق ضعيف، خلق للعبادة، فتاهت بذلك عن رؤية الحق. وإذا ضلّت في قراءة أعظم موجودات الكون وهو الإنسان، فإنّ ضلالها كبير في قراءة بقية أفراد الوجود الكوني. فجاء الأنبياء والمرسلون ليعلموا البشر كيف تقرأ مفردات الوجود.

لقد وهمت الفلسفة الحديثة حين تصوّرت أن ''القوانين المعنوية'' التي تشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع، والنابعة من ''الحكمة'' البالغة للبارئ المصور سبحانه، تتصورها كأنها قوانين مادية، فتتعامل معها في أبحاثها كما يتعامل مع المواد، والأشياء الجامدة.[45]

إنّ قراءة حقيقة جادة للكون تدل على عظمة الربوبية وتدل عليها.[46] وهذا من أهم مقاصد قراءة كتاب الكون. ويؤكد النورسي أن تعليم الرسول ﷺ والقرآن والأنبياء يدلون بشهادتهم إلى أن تجليات الأسماء الحسنى -ذات الجلال والجمال- الظاهرةَ آثارُها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواماً اسطعَ وأبهرَ في أبد الآباد.. وان

تجلياتها -ذات الرحمة- وآلاءها المشاهدة نماذجها في هذا العالم الفاني، ستثمر بأبهى نور واعظم تألق، وستبقى دوماً في دار السعادة...[47]

إن من أكبر الحقائق التي ينبغي قراءتها في هذا الكون، هي الرسالة المحمدية؛ لأنها السراج المنير للعالمين كليهما.[48] فهي من أهم مقروءات هذا الوجود؛ لأنها كشفت عن أسرار الحياة، وطرق الوصول إلى الحياة الباقية الخالدة في الآخرة.

٦. منطلقات قراءة الكون

١. القراءة التوحيدية الاستكشافية للكون

ينطلق النورسي من التوحيد المطلق لله تعالى في قراءة الكون، فهو الذي يحل طلسم الكون[49] وهذا التوحيد "ليس تقريرياً، ولا تلقينياً، ولا تقليدياً، ولا ترديدياً، بل استكشافياً.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا -عبر خواطره- في جولة استكشافية في أغوار النفس الإنسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون الموؤدة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدثنا عن بصمات 'التوحيد'، وتدلنا على آيات الاله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا إلا ونحن قد اكتشفنا 'التوحيد' والتقيناه في أشد الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم أفئدتنا انبثاقا، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهز هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمر المسلم كشافاً رائداً لأعمق الحقائق -في الكون والإنسان- في ديمومة لا تتوقف حتى تتوقف حياته.. فيزيد فهماً، ويتسع وعياً ويخصب وجوداً وحياةً."[50]

إنّ الإيمان بالله تعالى قد حول الكون إلى مسجد أكبر، فيصبح منوراً مؤنساً، ذا حياة وشعور، وبذلك يذوق المؤمن شعاعاً من لذة الحياة الباقية، أما الفلسفة والعلم الماديان فقد حوّلا الكون إلى ظلام بارد لا حياة فيه.[51]

إنه "بسر التوحيد يُفهم أنّ الكون برمته كتاب صمداني ينطوي على معاني عميقة غزيرة،... فلولا التوحيد لانكسفت جميع مزايا الكون وكمالاته المذكورة آنفاً، ولانقلبت تلك الحقائق السامية الراقية إلى أضدادها".[52] إن كل ذرة تشهد بلسان عجزها على وجود القدير المطلق، وتشهد بإظهارها الانسجام التام مع نظام الكون العام على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.[53]

''ألق نظرةً على كتاب الكون الكبير تَرَ أنه يقرأ على الكون كله، ختمَ الوحدة بوضوح تام، بقدر عظمته وسعته ذلك لأن هذه الموجودات كأجزاء معمل منتظم، وأركان قصر معظم، وأنحاء مدينة عامرة، كُل جزءٍ ظهير للآخر، كل جزء يمدّ يد العون للآخر، ويجدّ في إسعاف حاجاته .والأجزاء جميعاً تسعى يداً بيد بانتظام تام في خدمة ذوي الحياة، متكاتفة متساندة متوجهة إلى غاية معينة في طاعة مدبّر حكيمٍ واحدٍ.[54] فالانتظام في آيات كتاب الكون يدلل على تلك الوحدة والواحدية التي تعنى بذلك الانتظام.[55]

أنه بالوحدة والأحدية يتحول جميعُ الكون بمثابة جنودٍ مستنفرين لذلك الواحد الاحد، وموظفين مسخّرين له. وبمجيء الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، وتُنزّه حكمته العامة وتبرأ من العبث والسفاهة، وتأخذ رحمتُه الواسعة مداها، وتُنقذ من التعذيب المشين. وتبدو عزته وقدرته المطلقتان وتُنقَذان من العجز الذليل. وتتقدّس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلى منزّهة جليلة.[56]

٢. الرسول ﷺ قدوة في قراءة كتاب الكون

يرى النورسي رحمه الله أنّه لا بد من قارئ بارع يقرأ هذا الكون قراءة هادية قاصدة، وهذا القارئ لا يتمثل إلا في سلسلة النبوة، وهذه السلسلة تمثلت في شخص الرسول الأعظم محمد ﷺ، الذي يصفه النورسي بأنّه ''ترجمان آيات الكون''.[57] وهو القدوة والأسوة في هذه القراءة، وكأني بالنورسي يخطر بباله تلك الخرافات التي علقت بأذهان الناس، ولحقت ببعض مظاهر الكون نتيجة وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال ﷺ: ''إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد؛ فإذا رأيتموهما فصلوا، وادعوا، حتى يكشف ما بكم''.[58] إنّ الصلاة والدعاء مواقف يتخذها المسلم من هذه الظاهرة؛ لأنها مذكرة بانهيار الكون، ومنذرة بقيام الساعة!

لا جرم، أن أحب مخلوق لدى ذلك المستتر بالغيب، وأصدق عبدٍ له هو مَن كان عاملاً خالصاً لمقاصده المذكورة آنفاً، ومَن يحل السر الأعظم في خلق الكون ويكشف لغزه، ومن يسعى دوماً باسم خالقه ويستمد القوة منه ويستعين به وحده في كل شئ فينال المدد والتوفيق منه سبحانه .ومن ذا يكون هذا غير محمد القرشي عليه الصلاة والسلام.[59]

ويبين الرسول أن كل مظاهر هذا الكون تشهد له ﷺ كما يشهد لها بدلالتها على وحدانية الله تعالى.[60] يذكر النورسي: ان الرسول الأكرم قد قال ليلة المعراج في الحضرة الإلهية باسم جميع الكون بدل السلام: ''التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله'' قالها، باسم البشرية جمعاء... ثم يقول: فعندما كنت اقرأ في التشهد ''التحيات..'' خطرت معانيها الكلية على روحي فتحولت فجأة -في خيالي- عناصر دنياي الخاصة من تراب و ماء و هواء و نور، إلى أربعة ألسن كلية ذاكرة. كل منها يذكر بأحواله: ''التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله'' بملايين بل ببلايين بل بما لا يعد ولا يحصى من المرات.[61]

ويفهم النورسي قضية أخرى في هذا السياق، وهي أن القراءة الراشدة تقتضي أن يكون هدي الله ورسوله الموجِهين للقراءة الصحيحة القاصدة قائماً في هذا الوجود، فمصير الكون مرتبط بهما،'' فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جَنّ جنونه وفَقَدت الكرة الأرضية صوابَها، وزال عقلُها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.[62] لأن البشر عندها سيتخبطون في عشواء، ويهبطون في مهواة من الأهواء.

٣. العمل بموجب السنن الإلهية في الكون

ينبه النورسي رحمه الله إلى أهمية العمل بموجب سنن الله في الكون، وهي قوانينه الكاشفة عن الحكم والأسرار التي ينتظم بها،[63] ويبين أن الرسول ﷺ كان يعمل بالسنن الإلهية.[64] وهو قدوة في ذلك. وفيه تحقيق للعبودية، وتحقيق للكمالات المعنوية والمادية من رقي وحضارة.

إن اتباع السنن الإلهية يمكن أن يحول الدنيا الواسعة إلى مدينة عظيمة.[65]

٤. قراءة الكون تستلزم الإيمان

يقرن النورسي بين قراءة الكتابين للوصول إلى مقصد الإيمان، فيوجه النظر إلى كتاب الوحي الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطّ بقلم دقيق، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُبجت بقلم رفيع. ثم يوجه النظر إلى كتاب الكون الذي تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة، لا بل كل كلمة منها كتاباً، وكل حرف منها قصيدةً .. فوجه الأرض صحيفة، وما أكثر ما فيها من كتب، ثم يخلص إلى القول: إنّ كتاب كهذا

ما يكون إلا من إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة . أي أن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلاّ مَنْ أسكَرته الضلالة.![66]

إن الإيمان هو نور الكون والوجود..[67]

إن العين التي تقرأ وتطالع كتاب الكون ينبغي أن تشاهد معجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطّر من شَهْد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة إلى القلب المؤمن.[68]

٥. قراءة معجزات الأنبياء في ضوء الرقي المادي

القضية المحورية في قراءة الأنبياء للكون، كان على اعتبار أن الكون مظهر لتجلي أسماء الله الحسنى، وأنهم المنادون والشاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين على خزائن رحمة الله الأخروية وكنوز إحساناته في عالم البقاء، وتجليات أسمائه الحسنى التي تنكشف كلياً في دار السعادة.[69]

إنّ الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى يُقتدى بهم، في رقيهم المعنوي .ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، ونَصَبهم روّاداً للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضا .أي أنه يأمر بالاقتداء بهم وإتباعهم إتباعا كاملاً في الأمور المادية والمعنوية [70]

نعم، إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلى أبعد نهاياتها، وغاية ما يمكن أن تحققه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعيّن أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية، ويسوقها إليها . إذ كما إن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل أيضاً حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله.[71]

وبذلك يظهر أن قراءة الأنبياء للكون قد حققت نوعين من الرقي: الرقي المعنوي بالوصول إلى الكمالات الروحية التي ترقى بإنسانية الإنسان. والرقي المادي بالوصول إلى كل أسباب الراحة من منتجات العلوم والتكنولوجيا.

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله الذي وفق وأعان على إتمام هذا البحث، وأخلص إلى النتائج التي توصل إليها، وأجملها في النقاط الآتية:

١. الكون مخلوق عظيم تتجلى فيه أسماء الله الحسنى، وهو مسجد كبير تسبح فيه المخلوقات بحمد الله تعالى. وهو مسخر للإنسان، هذا التعريف يحدد الاتجاه الصحيح في قراءة كتاب الكون.

٢. تحدد في ضوء رسالات الأنبياء مقاصد خلق الكون. وأعظم هذه المقاصد الدلالة علة التوحيد وإثبات الآخرة والنبوّة والحشر، والقيام بحق شكر الله تعالى.

٣. القرآن والكون كتابان لله تعالى يفسر أحدهما الآخر، ولا يمكن فهم أحدهما إلا في ضوء الآخر، وهما كتابان متجددان بالحكم والأسرار الإلهية.

٤. العلوم المعاصرة تتساند مع هدايات الوحي وعلومه في الدلالة على أن هذا الكون مخلوق لله الواحد جلّ جلاله.

٥. قراءة الأنبياء للكون قراءة توحيدية هادية إلى مقاصد جليلة، وقراءة الفلسفة المادية قراءة إلحادية باطلة.

٦. ثمة منطلقات رصينة استخلصها النورسي من هدي الأنبياء في قراءة الكون، من أبرزها أن التوحيد منطلق وغاية في الوقت نفسه في قراءة الكون، وأن هدي الرسول محمد ﷺ منطلق آخر في هذا القراءة، كذلك العمل بالسنن الإلهية، وتفعيل قانون السببية. واستثمار معجزات الأنبياء.

وأهم توصية يمكن أن أتقدم بها هي: ضرورة إعداد كتب علمية منهجية في العقيدة والثقافة الإسلامية وعلم التربية والأخلاق تدرس في المدارس والجامعات التركية من خلال رسائل النور، فتعليم العقيدة الإيمانية نموذج واضح، فالطالب لا يتعلم العقيدة بصورتها الجافة كما هي في كتب المتكلمين وعلماء الكلام، ولكن يتعلمها بدلالاتها المشاهدة من خلال تجلي أسماء الله الحسنى في هذا الوجود. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع:

١ - النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
٢ - النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
٣ - النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.
٤ - النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.
٥ - النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.

٦- النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.
٧- النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

* * *

الهوامش:

[1] كلية الشريعة، جامعة آل البيت، الأردن.
[2] الكلمات، ص: ٣٤٢، ٥٢٠.
[3] الملاحق/ملحق أميرداغ ١، ص: ٢٨٥.
[4] الكلمات، ص: ٣٠، ص: ٤٩٩.
[5] الكلمات، ص: ٨٣٨.
[6] اللمعات، ص: ٥٩٣-٥٩٤.
[7] اللمعات، ص: ٥٣٤.
[8] الكلمات، ص: ٦٥.
[9] الكلمات، ص: ٧٢٣.
[10] المكتوبات، ص ٢٦٩.
[11] الكلمات، ص: ٢٠٤.
[12] الكلمات، ص: ١٧٧.
[13] الكلمات، ص: ١٧٨.
[14] الكلمات، ص: ٨١٢.
[15] اللمعات، ص: ٥٣١.
[16] الشعاعات، ص: ١٥.
[17] المكتوبات، ص: ٣٠١.
[18] اللمعات، ص: ٥٢٧.
[19] الكلمات، ص: ٩٦.
[20] الشعاعات، ص: ٢٨٦.
[21] الشعاعات، ص: ١٧١. وانظر: الكلمات، ص: ١١٣.
[22] الشعاعات، ص: ٦٥٤. وانظر: اللمعات، ص: ٥٣٧.
[23] المكتوبات، ص: ٤٦٩.
[24] الكلمات، ص: ٢٩٢.
[25] الكلمات، ص: ١٣٣، ص: ١٤٣.
[26] الكلمات، ص ١٥١.
[27] الكلمات، ص: ١٥٠.
[28] الكلمات، ص: ٥٣٣. والشعاعات، ص: ٣١٠.
[29] المكتوبات، ص: ٢٤٣.
[30] صيقل الإسلام، ص: ١٢٤.
[31] المثنوي العربي النوري، ص: ٤٤٧.
[32] الكلمات، ص: ٣٠.
[33] انظر: اللمعات، ص: ٥٢٦.
[34] المكتوبات، ص: ١٠٩، ٣٧٣.
[35] المثنوي العربي النوري، ص: ٤٢٦.

[36] الشعاعات، ص: ٢٦٠.
[37] صيقل الإسلام، ص: ٤٢٨.
[38] صيقل الإسلام، ص: ٤٣٠.
[39] المثنوي العربي النوري، ص: ٢١٦.
[40] الكلمات، انظر: الصفحات: ١٤٣، ٦٤٠-٦٤١.
[41] الكلمات، ص: ٦٤٠-٦٤١.
[42] المثنوي العربي النوري، ص: ٣٢٩.
[43] صيقل الإسلام، ص: ١٤٠.
[44] الكلمات، ص: ٤٨٦.
[45] اللمعات، ص: ٢٨٢.
[46] الكلمات، ص: ٢٠٢.
[47] الكلمات، ص: ١٠٨.
[48] الشعاعات، ص: ٣١٣.
[49] الكلمات، ص: ٢٦. هذا إلى جانب القرآن الكريم، فهو الذي يحل طلسم الكون كذلك، فالقرآن مصدر الإيمان والتوحيد، فلا مشاحة في الاصطلاح. انظر: الكلمات، ص: ١٥٣.
[50] المثنوي العربي النوري، ص: ١٥.
[51] الشعاعات، ص: ٣٢٨.
[52] الشعاعات، ص: ١٤.
[53] الكلمات، ص: ٣٣٣.
[54] الكلمات، ص: ٣٣٨.
[55] انظر: اللمعات، ص: ٥٣٠.
[56] الكلمات، ص: ١١٣.
[57] انظر: الكلمات، ص: ٣٠، ص: ٤٣.
[58] رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس.
[59] المكتوبات، ص: ٢٨٥.
[60] انظر: المكتوبات، ص: ٢٥١.
[61] انظر: الملاحق/ملحق أمير داغ ٢، ص ٤١١، ٤٠٨ - ٤١٣.
[62] اللمعات، ص ٥٦٨. وانظر: الكلمات، ص: ١١٩.
[63] انظر: صيقل الإسلام، ص: ٥٣١.
[64] صيقل الإسلام، ص: ٦٥.
[65] الكلمات، ص: ٢٨٣.
[66] الكلمات، ص: ٦٠.
[67] المثنوي العربي النوري، ص: ١٣٦.
[68] الكلمات، ص: ٢٤.
[69] الكلمات، ص: ١٠٩.
[70] الكلمات، ص: ٢٧٩.
[71] المصدر السابق نفسه.

مبادئ الإصلاح التربوي
عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي

–ABSTRACT–

Bediuzzaman Nursi's Principles of Educational Reform

Dr. Ahmad 'Ali Sulayman

God Almighty provide Islamic nation throughout its history by a number of loyal reformers. They have devoted their lives to treat the problems and crises of Islamic nation to achieve reforms (political, social, economic and educational) for this nation, in order to promote the nation and achieve development.

One of those reformers who have been mentioned by history was Badeea Elzaman Said Nursî (may Allah have mercy on him). He was described by Mr. Adib Ibrahim al-Dabbagh worked on his letters and writings for decades; by saying: "We are confronted a man with spirit of faith and heart full of dawn of certainty. Also he has got the virtue of fluent tongue and beautiful ideas.

This research focuses on an extrapolation of the principles and foundations of education reform ideas left by the remarkable "Said Nursî", through his bright messages, which is considered mine of faith and reformist ideas, in various fields.

Especially the fields of education, upbringing and discipline and education as they are considered the incubators of values and ethics and behavior of good manners via emphasizing several dimensions.

Including dimension of faith, education, moral, emotional, aesthetic, and physical, the reform of teacher, and the elimination of illiteracy which was considered the main reason of all kinds of bad manners, poverty and underdevelopment. Also he mentioned the need to reform religious schools, which must be changed radically and revolutionized. These schools couldn't achieve their mission of preparing graduates capable of facing their community needs and challenges due to lack of civil sciences.

Meanwhile, Said Nursî suggested the introduction of religion classes to regular schools. So that the lack of civics in religious schools; lead to students intolerance, and the lack of religious classes in regular schools; lead to doubt and fraud between students. He stressed that we need to follow the example of

Japan, they took from Europe, but they have maintained their own traditions, these traditions by which lasts the life of nations

The objective of this research is to profile Said Nursî and focus on his biography, and the most prominent personality traits. Also identify the factors and circumstances that influenced the thought of the Imam and his opinions, thoughts and his production of scientific. In order to explore the most important principles and foundations of his scientific offspring and how to get benefit of them in the reform of the educational institutions in Islamic world .

In order to answer the research questions, and achieve its objectives, the researcher used the historical method in the study of political, economic, social, scientific, religious factors that influenced his thoughts. Also the approach of survey and tracking was used to study some of his writes to analyze and explain the pedagogical value and usefulness in education reform. Also deductive approach was used to make up an integrated vision of pedagogical reform .

This research contains introduction, two sections and a conclusion. The first part deals with Nursi's life and his role in reviving education movement "historical background". Second part includes the principles of pedagogical reform in the thought Imam Nursi, and possible usability in reforms of educational institutions in Islamic world.

- ملخص البحث -

د. أحمد علي سليمان[1]

يركز هذا البحث على استنباط مبادئ الفكر الإصلاحي التربوي في رسائل النور النورسي، والتي تعد -وبحق- منجم أفكار إيمانية وإصلاحية، سعيا منا لاستنبات معالم القدوة؛ من أجل استنهاض عناصر الخير وشحذ الهمم والمروءة والإبداع في النشء والشباب المسلم؛ من خلال التأكيد على عدة مقومات، منها: البعد الإيماني، والعقلي، والأخلاقي، والعاطفي، والجمالي،... والقضاء على الجهل -الذي عدَّه السبب الأساس لكل أنواع سوء الخلق والتأخر والهزائم أمام الأعداء- والفقر والاختلاف، والإصلاح الجذري لمدارس التعليم الديني، بما يكفل لروادها مجابهة احتياجات العصر؛ وإصلاح المدارس الأخرى بإدخال دروس الدين في برنامجها؛ ذلك أن عدم وجود العلوم المدنية في المدارس الدينية؛ يقود طلابها إلى التعصب، وافتقاد دروس الدين في المدارس الاعتيادية؛ قاد طلابها إلى الشك، مؤكدا على

أن اكتساب المدنية لا يمنع من المحافظة على الملية كما فعلت اليابان، فهذه الملية أساس حياة الأمم.

ويستهدف البحث تعريفا مجملا بالعلامة المجدد الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وسيرته العلمية، وأبرز سماته الشخصية، والتعرف على العوامل والظروف التي أثرت في فكر الإمام وآرائه التربوية، ونتاجه العلمي، والكشف عن أهم مبادئ وأسس الإصلاح التربوي عند هذا المجدد من خلال نتاجه العلمي، وأيضا توضيح طرق الاستفادة من آرائه (رحمه الله) في إصلاح المؤسسات التربوية في عالمنا الإسلامي.

ومن أجل الإجابة على أسئلة البحث، وتحقيق أهدافه، استخدم الباحث المنهج التاريخي في دراسة العوامل والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية التي أثرت في فكر العلامة بديع الزمان سعيد النورسي، وذلك في دراسة بعض ما كتبه (رحمه الله)، وتحليله وتوضيح قيمته التربوية وفائدته في الإصلاح التربوي والتعليمي، مستخدما المنهج الاستنباطي بالرجوع إلى كتب الإمام النورسي ومؤلفاته ومقالاته؛ مستنبطا منها بعض المبادئ والأسس والمضامين التربوية التي تشكل في مجملها رؤية متكاملة للإصلاح التربوي.

وقد جاء البحث في مقدمة، ومبحثين وخاتمة، حيث يتناول المبحث الأول الأستاذ النورسي ودوره التاريخي في إحياء حركة التعليم، ويتضمن المبحث الثاني: مبادئ الإصلاح التربوي في فكر الإمام النورسي، وإمكانية الإفادة منها في إصلاح المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي... وبالله تعالى التوفيق.

مقدمة:

يدرك المتأمل في التاريخ والمتعمق فيه أنّ للعالم الإسلامي حظ وافر من العلماء الأعلام والمجددين الذين أوقفوا حياتهم على طلب العلم وتعليمه، وتحملوا في ذلك المصاعب والآلام وأنفقوا أثمن ما يملكون من مال وجهد ووقت في التعليم والتربية والإصلاح، فشكر الله تعالى صنيعهم وشرَّفهم، وخلد ذكرهم ونفع بهم العباد والبلاد.

وكان من ضمن هؤلاء المجددين والمصلحين الذين تسعد بهم الأمة وتشرف بذكرهم، العلامة المجدد بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، الذي كان من الراسخين في العلم والدين، والذي كرس حياته كلها للدفاع عن الإسلام وتربية تلاميذه على الالتزام بالدين؛ ليظل الإسلام حاضرًا في كينونة المسلم في وقت بلغ فيه العداء للدين الحنيف شأوته، وقدم سلسلة كبيرة من الأفكار والرؤى الإصلاحية، والأسس التربوية التي تشكل في مجموعها فلسفة للإصلاح التربوي للمؤسسات التربوية والتعليمية في العالم الإسلامي، والتي تعد معينًا لا ينضب بالعطاء في كل مكان وزمان. ومصدرًا مهما للنمو المعنوي والمادي، والأمة التي لا تهتم بتعليمها أمة في خطر.[2]

وانطلاقا مما سبق ومن أهمية التربية والتعليم في نهضة الأمة الإسلامية وازدهارها، ووضعها في المكان والمكانة اللائقة بها بين دول العالم، فإن ذلك يستدعي أن نقوم بدراسة تراثنا وما أنتجه العلماء والمفكرون والمصلحون من أجل تأمين التربية المتميزة والتعليم الجيد الذي يحمي هويتنا ويؤكد قيمنا وذاتيتنا، وفي الوقت نفسه يجعلنا نصنع التكنولوجيا والأقمار الصناعية ونُصدرها ونحافظ عليها إذا أطلقناها في الفضاء.. خصوصا وأن أمتنا الإسلامية صاحبة الرصيد الحضاري التليد، وهي في سعيها الحثيث للإقلاع الحضاري، في أمس الحاجة للإنطلاق إلى آفاق النهضة والتقدم والريادة من خلال تراثها العريق، ومن خلال فكر مجدديها ومصلحيها من أصحاب الرؤى الاستشرافية التي سبقت عصورهم بعقود.. هؤلاء المصلحون الذين زاوجوا بين أصالة المنهج الإسلامي وعالميته وخاتميته وصلاحيته لكل زمان ومكان، وبين التفاعل والمواءمة بينه وبين متطلبات العصر، ومستجداته الحياتية، ومنجزات الآخرين التي لا تتعارض مع ثوابتنا ومقدساتنا.

موضوع البحث:

يعدّ النورسي من بين أبرز المصلحين الذين خلَّدهم التاريخ، "رجل تفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطر فؤاده بفجر اليقين، وهو قادر على إيقاظ هوامد أفكارنا، وبعث الحياة في موات نفوسنا وشلل أرواحنا، وقد أوتي فضيلة النطق بكل جليل وجميل من الأفكار، وإن شهابا ثاقبا من سماء روحه كفيل بإشعال هشيم نفوسنا، وجعلها تلتهب شوقا إلى الله، وتحترق محبة فيه".[3]

ولقد تميز النورسي بفكره الإصلاحي الثاقب في شتى المجالات، خصوصًا في المجال التربوي، حيث ركز في منهجه التربوي على تربية النفوس على الإيمان؛ بحيث تجعل الإنسان إيجابيًا.[4]

وارتكز فكره الإصلاحي التربوي على أصالة منبثقة من القرآن الكريم، مع الأخذ الواعي مما يقذف به العلم الحديث من منجزات حضارية نافعة، والإفادة من منجزات الحضارة الغربية وخبراتها ومعطياتها، خصوصًا الخبرات المتناغمة مع القرآني، والعامدة إلى تحقيق أبعاد إنسانية واضحة، تُعلى قيمة الإنسان، لاسيما وأن ديننا أكد أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

أسئلة البحث:

تركز موضوع البحث في السؤال الرئيس التالي:

ما مبادئ الإصلاح التربوي في فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وكيف يمكن الاستفادة منها في إصلاح المؤسسات التربوية؟

ويتفرع من هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية وهي:

١- ما أهم ملامح شخصية عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)؟.

٣- ما الظروف والعوامل التي أثرت في فكر الإمام وآرائه التربوية؟.

٤- ما أهم مبادئ وأسس الإصلاح التربوي التي ركز عليها الإمام النورسي من خلال نتاجه العلمي؟.

٥- كيف يمكن تطبيق آراء الإمام النورسي داخل المؤسسات التربوية؟.

أهداف البحث:

سعى البحث لتحقيق الأهداف التالية:

١- التعريف بالعلامة المجدد الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وسيرته العلمية، وأبرز سماته الشخصية.

٢- التعرف على العوامل والظروف التي أثرت في فكر الإمام وآرائه التربوية.

٣- الكشف عن أهم مبادئ وأسس الإصلاح التربوي عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي من خلال نتاجه العلمي.

٤- توضيح مدى الاستفادة من آراء الإمام النورسي (رحمه الله) في إصلاح المؤسسات التربوية في عالمنا الإسلامي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الجوانب التالية:

١- أن هذا البحث يعد جزءا في سلسلة من الأبحاث والدراسات التي تبحث في الفكر التربوي الإصلاحي عند علماء المسلمين.

٢- الإسهام في إبراز شخصية أحد العلماء المسلمين الكبار الذين لهم إسهامات في مجال الإصلاح التربوي والتعليمي.

٣- الاستفادة من آراء العلامة المجدد الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في معالجة عدد من القضايا والمشكلات التربوية التي يعج بها المجتمع المسلم، والتي تهم التربويين في العالم العربي والإسلامي.

منهج البحث وحدوده:

المنهج زاوج فيه الباحث بين جملة من المناهج، حيث استفاد من المنهج التاريخي.[5] واستخدمه في دراسة العوامل والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية التي أثرت في فكر النورسي (رحمه الله)، وثنّي عليه بالتتبع ثم الاستقراء بمنهج الاستقراء لأجل الخلوص إلى القواعد الكلية الضابطة لسير العملية التربوية[6] وتحليلها وتوضيح قيمتها التربوية وفائدتها في الإصلاح التربوي والتعليمي، ويفرض الخلوص إلى الأهداف المشار إليها توظيف المنهج الاستنباطي ببذل أقصى

جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة، من خلال سعي الباحث جاهدا لاستنباط بعض المبادئ والأسس والمضامين التربوية التي تشكل رؤية متكاملة للإصلاح التربوي من خلال مؤلفاته رسائل النور.

حدود البحث:

اقتصر البحث على دراسة نتاج الإمام بديع الزمان سعيد النورسي العلمي والتربوي؛ كما وردت في رسائل النور.

الدراسات السابقة:

أما عن الدراسات السابقة فقد تناولت جهود النورسي ورؤاه الإصلاحية في شتى الجوانب، حيث هناك دراسات علمية تناولت دراسة جهوده في الدعوة، وجهوده في نشر القيم، وجهوده البلاغية والسياقية، وجهوده في فلسفة الحضارة... إلخ.

أما الدراسات العلمية السابقة في مجال التربية والتي تمكن الباحث من الوصول إليها، فتتمثل في: دراسة بعنوان: (المنهج التربوي عند بديع الزمان النورسي) لسعيد محمد القرني،[7] عرّف فيها الباحث بالفكر التربوي عند النورسي، وجملة آرائه التربوية حول الإنسان والتربية..

وانتهت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها شمول فكر النورسي التربوي واهتمامه بتربية جميع أفراد المجتمع وطبقاته تربية إيمانية مصدرها الكتاب والسنة، والاهتمام بتربية المرأة باعتبارها أستاذ الطفل الأول، وأوصت الدراسة بالتركيز على تعليم القرآن الكريم لجميع المراحل، وكشف النقاب عن أفكار المفكرين المسلمين والمقارنة بينها والاستفادة من رؤاهم الإصلاحية في شتى المجالات.

كما اطلع الباحث على دراسة بعنوان: (التعليم في ضوء فكر النورسي) للباحث الدكتور إبراهيم أبو محمد،[8] وقد أبرزت الدراسة رؤية الإمام النورسي لقضية التعليم في ظل التحديات التي تواجه حياة الأمة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين.

وقد خلص الباحث إلى بيان رؤية النورسي لإصلاح التعليم الذي عاش له مرشدا، وموجها، وباعثا للأمل، ومنشطا للهمم وفق مسلك لا يعترف بالملل، فتخطى الصعاب بسعيه الدءوب القائم على فكر ناضج، وكانت تجربته نافعة في إصلاح مؤسساتنا التعليمية والتربوية.

أما الدراسة الثالثة فجاءت تحت عنوان: (المشكلات الاجتماعية ومعالجتها في ضوء كليات رسائل النور للإمام النورسي ومقارنتها بالفكر التربوي المعاصر) لنهيل علي حسن صالح،[9] حيث عرّفت الدراسة بالأستاذ النورسي ورسائل النور ومنهجه الفكري في معالجة المشكلات الاجتماعية، وعرض نماذج لهذه المشكلات، وبيان مفهومها وأسبابها، وإجراءاتها العلاجية، ومنها مشكلة التقليد، والترف الاستهلاكي، والعنف، والفقر، والعنصرية والاستبداد..، وخلصت الدراسة إلى وجود تطبيقات تربوية ومشروعات اجتماعية مستنبطة من منهجية رسائل النور في معالجة المشكلات الاجتماعية، وأن المشكلة الاجتماعية من منظور الإمام النورسي هي كل حالة أو ظاهرة تتناقض مع قيم الإسلام الثابتة، وأن النورسي اتبع في منهجه العلاجي التربوي خطوات عملية مستخدما كل الوسائل التي أتيحت له، وطالبت الدراسة بإجراء دراسات عن المنهج التربوي عن الإمام النورسي.

وهكذا يعد البحث الحالي استجابة لما نادت به الدراسات السابقة، حيث طالبت بضرورة كشف النقاب عن أفكار المفكرين والمصلحين المسلمين، ومن بينهم الإمام النورسي، والمقارنة بينها والاستفادة من رؤاهم الإصلاحية في شتى المجالات، خصوصًا في مجالات التربية والتعليم؛ من أجل مواجهة الأفكار الضارة، والنهوض بالمجتمعات المسلمة، كما طالبت بإجراء دراسات خاصة للكشف عن الرؤى الإصلاحية التربوية للإمام النورسي.

خطة السير في البحث:

يتناول المبحث الأول الأستاذ النورسي.. وإحياء حركة التعليم ''خلفية تاريخية''.

ويتضمن المبحث الثاني: مبادئ الإصلاح التربوي في فكر الإمام النورسي وإمكانية الإفادة منها في إصلاح المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي.

المبحث الأول

الأستاذ النورسي.. وإحياء حركة التعليم "خلفية تاريخية"

نتحدث في هذا المبحث عن الأستاذ النورسي، ودوره في إحياء حركة التعليم، وذلك على النحو التالي:

أولا: مولده ونشأته

وُلِد النورسي سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م، في قرية ''نُورْس'' التابعة لناحية ''إسباريت'' المرتبطة بقضاء ''خيزان'' من أعمال ولاية ''بتليس'' شرقي الأناضول. وكان والده رحمه الله، رجلا صوفيًّا، يُسمى ''ميرزا''، يُضرب به المثل في التقوى والورع،[10] فلم يذق حرامًا، بل إنه كان إذا عاد بمواشيه من المرعى شدَّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين.[11] أما أمه فكانت تسمى ''نورية''، وقد اجتهدت في تربية أبنائها، وعندما سُئلت: ما طريقتك في تربية أولادك حتى حازوا هذا الذكاء النادر؟ أجابت: لم أفارق صلاة التهجد طوال حياتي إلا الأيام المعذورة شرعًا، ولم أُرضع أولادي إلا وأنا على طهر ووضوء.[12]

أما عن أوصافه الخِلْقِية، ونجابته المبكرة فقد كان (رحمه الله) طويل القامة، عسلي العينين، حنطي اللون، شافعي المذهب، وكان يتحدث اللغة التركية والكردية، ويقرأ ويكتب باللغة العربية والفارسية.

وفي بواكير حياته رأى سعيد النورسي فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت، وأن الكائنات قد بُعثت من جديد، ففكر كيف يتمكن من زيارة الرسول الأعظم ﷺ، ثم تذكر أن عليه الانتظار في بداية الصراط الذي سيمر عليه كل فرد يوم القيامة، فأسرع إلى الصراط.. وهكذا مرَّ به جميع الأنبياء والرسل الكرام، فزارهم واحدًا واحدًا، وقبَّل أيديَهم، وعندما حظي بزيارة الرسول الأعظم ﷺ هوى على يديه فقبَّلها، ثم طلب منه العلم، فبشَّره ﷺ: ''سيوهب لك علم القرآن؛ ما لم تسأل أحدًا'' ففجّرت هذه الرؤيا شوقًا عظيمًا فيه نحو طلب العلم.[13] ويبدو أن هذه الرؤيا قد تحققت، فقد ظهرت نجابته العلمية مبكرًا، حتى أنّ أحد أساتذته في شرقي الأناضول وهو ''الشيخ أمين'' حاول أن يُلبس سعيد (لباس العلماء) وهو صبي لم يبلغ الحلم بعد، وهذا يدل على أن بديع الزمان كان شخصًا استثنائيًّا استرعى إليه الأنظار في وقت مبكّر.[14]

ثانيا: شيوخه ورحلاته في طلب العلم

تتلمذ سعيد النورسي على يد أخيه الكبير ''الملا عبد الله'' حيث تعلم القرآن الكريم، واقتصرت دراسته في هذه الفترة على الصرف والنحو، ثم بدأ يتنقل في القرى والمدن بين الأساتذة والمدارس ويتلقى العلوم الإسلامية من كُتبها المعتبرة بشغف عظيم، واجتمع له مع الذكاء قوة الحافظة، إذ درس وحفظ كتاب ''جمع الجوامع'' في أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب بن علي السبكي في أسبوع واحد. ولم تلبث شهرة هذا الشاب أن انتشرت بعد أن فاق في مناقشاته علماءَ منطقته جميعًا، فسمّوه ''سعيد المشهور''. ثم ذهب إلى مدينة ''تِللو'' حيث اعتكف مدة في إحدى الزوايا، وحفظ هناك القاموس المحيط للفيروزآبادي إلى باب السين. وفي سنة ١٨٩٢ ذهب ''الملا سعيد النورسي'' إلى ''ماردين'' حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب على أسئلة الناس، فوشي به إلى الوالي، فأصدر أمرًا بإخراجه، وسيق إلى ''بتليس''. فلما عرف واليها حقيقة هذا الشاب العالم ألحَّ عليه أن يقيمَ معه، وهناك وجد الفرصةَ سانحة لمطالعة الكتب العلمية لاسيما كتب علم الكلام والمنطق والتفسير والحديث الشريف والفقه والنحو...إلخ، حتى بلغ محفوظه من متون هذه العلوم نحو ثمانين متنا.

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى مدينة ''وان'' وانكبّ فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة والتاريخ حتى تعمق فيها إلى درجة التأليف في بعضها، فسمّي بـ''بديع الزمان'' اعترافًا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير واطلاعه الواسع. وفي هذه الأثناء نُشر في الصحف المحلية أن وزير المستعمرات البريطاني ''جلادستون''[15] قد صرّح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب قائلاً: ''ما دام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به''... ولقد زلزل هذا الخبر كيانه وأقضّ مضجعه، فأعلن لمن حوله: ''لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها''،[16] وعندئذ شدَّ الرحال إلى إسطنبول عام ١٩٠٧م، وقدّم مشروعًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول، أطلق عليها اسم ''مدرسة الزهراء'' -على غرار الأزهر الشريف- تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية.[17]

وكانت شهرته العلمية قد سبقته إلى هناك، فتجمع حوله الطلبة والعلماء يسألونه وهو يجيب في كل فن بغزارة نادرة، فاعترف له الجميع بالإمامة وبأنهم لم يشاهدوا في علمه وفضله أحدًا، حتى إن أحدهم عبَّر عن إعجابه الشديد بعد أن اختبره اختبارًا دقيقًا، فقال: ''إن علمه ليس كسبيًّا وإنما هو هبة إلهية وعلمٌ لدنيّ''.

وفي سنة ١٩١١ م ذهب إلى بلاد الشام وأقام في دمشق، وألقى خطبة بليغة من على منبر الجامع الأموي، والتي عرفت بـ ''الخطبة الشامية''، وضح فيها أسباب تقدم أوروبا وتخلف المسلمين والمتمثل في: ''اليأس الذي بلغ بالمسلمين مبلغه، وفساد الأخلاق وفقدان الصدق في الحياة الاجتماعية والسياسية، وانتشار العداوة والبغضاء بين صفوف المسلمين، وفقدان روابط الحبة والتعاون والتكافل بين المسلمين، والاستبداد المنتشر انتشار الأمراض السارية، وتقديم المصالح الشخصية على المصالح العامة''. ودعا فيها المسلمين إلى اليقظة والنهوض، وبيَّن فيها أمراض الأمة الإسلامية وسُبل علاجها، ثم رجع إلى إسطنبول وعرض مشروعه بخصوص الجامعة الاسلامية على السلطان ''رشاد'' فوعده السلطان خيرًا، وفعلاً خُصّص المبلغ، وشرع بوضع حجر الأساس للجامعة على ضفاف بحيرة ''وان'' غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون إكمال المشروع.

ثالثا: رؤاه السياسية

وعلى الرغم من معارضة النورسي دخول الدولة العثمانية الحرب، فإنه حالما أُعلنتْ، اشترك هو وطلابه في الحرب ضد روسيا القيصرية المهاجمة من جهة القفقاس، وعندما دخل الجيش الروسي مدينة ''بتليس'' كان بديع الزمان يدافع مع طلابه عن المدينة دفاعًا مستميتا حتى جرح جرحًا بليغًا، وأُسر من قبل الروس وسيق إلى معتقلات الأسرى في سيبريا. وفي الأسر استمر في إلقاء دروسه الإيمانية للضباط الذين كانوا معه والبالغ عددهم ''٩٠'' ضابطاً ثم هرب من الأسر بأعجوبة وبعناية ربانية. ومرّ في طريقه بـ: وارشو فألمانيا وفينا.. وعندما وصل إلى إسطنبول مُنح وسام الحرب واستقبل استقبالاً رائعًا من قِبل الخليفة، وشيخ الاسلام، والقائد العام، وطلبة العلوم الشرعية. وكلّفته الدولة بتولي بعض الوظائف، رفض جميعها إلا ما عينته له القيادة العسكرية من عضوية في ''دار الحكمة الاسلامية'' التي كانت لا توجّه إلا لكبّار العلماء، فنشر في هذه الفترة أغلب مؤلفاته باللغة العربية منها: تفسيره القيم ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز'' الذي ألفّه في خِضَمّ المعارك، و''المثنوي العربي النوري''.

وبعد دخول الغزاة إلى إسطنبول أحسّ النورسي أن طعنة كبيرة وجّهت إلى العالم الاسلامي، ولذلك شمّر عن ساعد الجد، فبدأ بتأليف كتابه ''الخطوات الست'' هاجم فيه الغزاة بشدة، وعمل على إزالة دواعي اليأس الذي خيّم على كثير من الناس. ولشهرته الواسعة وجهاده المتواصل دُعي إلى أنقرة عدة مرات، فتوجّه إليها سنة ١٩٢٢، حيث استقبل في محطة القطار بحفاوة من قبل أركان الدولة. ولكن سرعان ما خاب ظنه بمن دعوه، إذ وجد أن معظمهم لا يؤدون الفرائض الدينية، فتوجّه إلى المجلس النيابي ''مجلس المبعوثان'' وألقى خطابًا مؤثرًا استهلّه بـ: ''أيها المبعوثون إنكم لمبعثون ليوم عظيم..''. وهناك عرض أيضًا مشروع إنشاء ''الجامعة الاسلامية'' فلقي القبول، إلاّ أن ظروفًا سياسية حالت دون إكمال المشروع.

رابعا: اعتزاله ونفيه

وفي سنة ١٩٢٣م توجّه بديع الزمان إلى مدينة ''وان'' واعتزل الناس في جبل ''أرَك'' القريب من المدينة طوال سنتين متعبدًا ومتأملاً. وعلى الرغم من ذلك لم ينج من شرارة الفتن والاضطرابات فنفي مع الكثيرين إلى ''بوردور'' جنوب غربي الأناضول، ثم نُفي وحده إلى ناحية نائية وهي ''بارلا'' ووصل إليها في شتاء سنة ١٩٢٦. فظن أعداء الإيمان أن سيقضى عليه هنا في ''بارلا'' ويخمد ذكره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفياض.

خامسا: نتاجه العلمي

ولكن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، فرعاه بفضله وكرمه، حتى غدت ''بارلا'' مصدر إشعاع عظيم لنور القرآن، إذ ألّف الأستاذ النورسي هناك معظم ''رسائل النور''. وتسربت هذه الرسائل عن طريق الاستنساخ اليدوي وانتشرت من أقصى تركيا إلى أقصاها.[18] وهكذا استمر الأستاذ النورسي على تأليف رسائل النور حتى سنة ١٩٥٠م فأصبحت في أكثر من ''١٣٠'' رسالة، جُمعت تحت عنوان ''كليات رسائل النور'' التي تضم أربع مجموعات أساسية هي: ''الكلمات، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات... وغيرها من المجموعات التي لم يتيسر لها أن ترى طريقها إلى المطابع إلاّ بعد سنة ١٩٥٤م. وكان الأستاذ النورسي يشرف بنفسه على الطبع حتى أكمل طبع الرسائل جميعها،[19] لتبلغ ثمان مجلدات بدأت -كما سبق- بالكلمات والمكتوبات واللمعات وإشارات الإعجاز والشعاعات والمثنوي العربي والملاحق، وانتهت بصقيل الإسلام. وكانت أفكاره تجذب الناس من مختلف المشارب وتؤثر فيهم، وتعاملت

هذه الأفكار مع موضوعات وقضايا متنوّعة تجاوزت الاقتصار على الشؤون التركية فقط.[20]

وظل الإمام النورسي طيلة حياته يغتنم كل لحظة، لا يصرف وقته سدى قط، فلا يراه أحد إلا قائمًا يصلي، أو داعيًا متضرعًا، أو مسبحًا ذاكرًا، أو متأملا في ملكوت السموات والأرض، فهو حتمًا منشغل بشغل يهمه، وكان يدعو إلى اغتنام العمر القصير والدنيا القصيرة للظفر بحياة أبدية خالدة. وكان يغضب كثيرًا من الغيبة والكذب، ولا يسمح -بأي حال- لأحد أن يغتاب أحدًا عنده.[21] وكانت آخر أقواله لتلاميذه: ''أبنائي، لا تخافوا ابدًا''، فقد قصمت رسائل النور ظهر الملحدين والشيوعيين، فرسائل النور غالبة دائمًا باذن الله. كرر هذا القول عدة مرات''.[22]

سادسا: وفاته

وقد لبَّى نداء ربه الكريم في الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٩ الموافق ٢٣ آذار/مارس ١٩٦٠م.[23] ثم جاء قاضي التركات، وبدأ يُثبت ما ورثه الأستاذ فكان: (ساعة، وسجادة، ولفاف الرأس، وجُبَّة). فأعطاها كلها لأخيه عبد المجيد وبعدما تم الغسل نُقل إلى (أولو جامع) وختم محبوه على روحه القرآن الكريم. ظلت الجنازة في تلك الليلة في الجامع، وما أن تنفس الصبح حتى أصبح الازدحام في أورفة شديدًا جدًّا حيث أتى الناس من كل أنحاء تركيا. وقرأ الجميع الختمة القرآنية حتى الصباح واهدوا ثوابها إلى روح الأستاذ رحمه الله. ولشدة الازدحام رأى البعض أنه لن يتيسر الدفن في هذا اليوم... فتم استدعاء الوالي، وبدأ يرجو الناس ويلح عليهم بأن يدفن الأستاذ اليوم بعد صلاة العصر بدلا من يوم الجمعة؛ لأن الازدحام أصبح لا يطاق في المدينة. وفي الحال أُعلن عن أن صلاة الجنازة ستقام يوم الخميس بعد صلاة العصر. وحضر الوالي ورئيس البلدية وأقاموا صلاة الجنازة. ولقد اندهش الجميع حينئذ من ظاهرة عجيبة وهي أنه: عندما كان الأستاذ يُغسل كانت الأمطار تتساقط رذاذًا وشاهد الناس عندها طيورًا ذات أشكال غريبة وألوان زاهية. وبأعداد هائلة جدًّا.[24]

سابعا: النورسي ودوره التاريخي في إحياء حركة التعليم

لقد كان الانقلاب الذي عاشته تركيا بعد سقوط الخلافة انقلابا مروعًا، طال الحياة في كل ميادينها وأثرّ تأثيرًا مباشرًا على قضية التربية والتعليم باعتبارها وسيلة من

وسائل تكوين الشخصية، وعاشت تركيا فترة من التمزق والتشرذم والتخلف السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وسيطر الجهل وعمت الفوضى والخواء الروحي، وفرغ الإنسان المسلم من محتواه أو كاد، بعد أن بسطت العلمانية نفوذها وسيطرتها على المرافق والمؤسسات العامة، وصبغت البلاد بصبغة قطعت أو حاولت أن تقطع كل صلة بينها وبين الإسلام، فالعلماء قد قُتلوا وشُردوا ومَن بقى منهم فرَّ بدينه ودمه إلى البلدان المجاورة. وفى وسط هذا الغبار المثار الذي سود وجه الحياة في تركيا -بلد الخلافة وعاصمة الإسلام وقتذاك- لم يكن التعليم ذا معنى يذكر. وبالتالي فقد هُمشت التعاليم الإسلامية، وأُلغيت الحروف العربية، وأُلغى الآذان من فوق المآذن، وأضحت مصادر التعليم ومنابعه مجففة بقرار الساسة الجدد الذين التَوت أعناقهم نحو الغرب، وأرادوا أن يستبدلوا شمس الإسلام بضباب أوروبا وجليدها البارد، وخيمت الماسونية بظلامها على الحياة في تركيا من خلال الجمعيات التي تعمل لها، كجمعية الاتحاد والترقي، وجمعية تركيا الفتاة، ولم يكن وسط هذا الظلام من ضوء يذكر غير ضوء القلب المؤمن المتحدى بإيمانه رياح الخماسين التي هبت على الحياة، فعكرت صفوها ونشرت فيها جراثيم الجهل، ولم يكن هنالك من شعاع غير مواقف الرجل العظيم بصلابة إيمانه وقوة يقينه ترد التائهين الحائرين وتبعث في النفوس أمل الخلاص في يوم يراه الظالمون بعيدا ويراه المؤمنون قريبا. وبعد تأسيس الاتحاد المحمدي في سنة ١٩٠٩م ردًّا على دعاة القومية الطورانية والوطنية الضيقة، انضم النورسي إلى تشكيلات خاصة وكان (رحمه الله) من أنشط أعضاء الاتحاد الذين أهابوا بالمسلمين أن يدافعوا عن الخلافة، وبدأ يلقى دروسه ومحاضراته بين القبائل والعشائر مما كان له الأثر الفعال في إيقاظ الروح الإسلامية التي حاولت قوى خبيثة أن تميتها فى تركيا وأن تحيي القومية الطورانية بديلاً عنها، ولم يكن لتعاليم الدين من وجود فعال، اللهم إلا من خلال ما تركه النورسي في رسائله وبين طلابه ومريديه، فراحت هذه الرسائل تنتشر كما ينتشر الضوء والسنا في الليل الطويل المعتكر.[25]

ولقد تألقت رسائل النورسي وكأنها نسيم يحمل بشائرَ الشفاء لأمة طال مرضها وطال ليلها، وكانت مواقفه وكلماته بمثابة ''إكسير'' الحياة للهمم التي أصابها اليأس وحطمها القنوط، فكادت تستسلم، فلما تعرفت على مواقف الرجل وقرأت كلماته دبَّت فيها الحياة من جديد وبعثت فيها كل عناصر الاستعصاء على المسخ والتشويه والذوبان، واستيقظت روح المقاومة ضد الهزيمة النفسية والفكرية التي يريد العلمانيون

أن يفرضوها على أبناء الأمة، لذلك يوجه أتباعه بضرورة التصدي لهؤلاء عن طريق القراءة والتسلح بالعلم من خلال رسائله التي تفضح خططهم وتكشف خباياهم وتهتك ستر مؤامراتهم.

ولم تكن كلماته فقط هي التي تحمل إلى أتباعه المعنى العظيم لإيمان رجل عظيم بفكرته، وإنما كانت مواقفه أيضا تلك التي تتضمن أرقى درجات الصلابة في مواجهة الأعداء الذين يريدون إفساد الحياة والأحياء وذلك بقطع صلتهم بالإيمان الذي يمنح الحياة قيمتها ومعناها. ففي مواقف التحدي وما أكثرها في حياة الرجل يقول النورسي موجها كلامه للقضاة الذين يحاكموه: ''ألا فلتعلموا جيدًا بأنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفُصل كل يوم واحد منها عن جسدي؛ فلن أحني هذا الرأس- الذي نذرته للحقائق القرآنية- أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى أبدًا عن هذه الخدمة الإيمانية النورية، ولا يمكنني أن أتخلى''.[26]

ولقد استطاع الرجل العظيم أن يؤثر تأثيرًا إيجابيًا في حياة المعلمين والمربين والموجهين باعتبارهم القنوات التي تحمل العلم إلى عقول الناشئة، وطالبهم بضرورة التحقيق والتوثيق مع القدرة على الموازنة ومعرفة الأحجام والكتل والنسب بين الأشياء حتى يتمكنوا من الإثبات والإقناع. ولكي تكون حجتهم أوضح ودليلهم أسند وأوثق لابد لهم أن يسلكوا مسلك القرآن في استعمال التجربة في الماديات المحسوسة، واستعمال النظر والبرهان في العقليات، وذلك يقتضي صدق الرواية وسلامة التوثيق، لذلك كان يقول لهم: ''على الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين، كي يتمكنوا من الإثبات والإقناع، وأن يكونوا أيضًا حكماء مدققين كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بميزان الشريعة''.[27]

وهكذا يزيح هذا الرجل العظيم بكلماته معوقات التعليم في زمنه، فليس من المقبول أن يعيش المرشد والمربى والواعظ خارج إطار الزمان والمكان، فهو في واد والناس والزمان والمكان في واد آخر، كما أنه ليس من المعقول ولا من المقبول أن يتعلق المربى والمرشد والواعظ بأسانيد واهية وقصص لا برهان لها ولا دليل عليها، وتلك هي أهم أسباب رفض الفكرة وردها، حين لا يملك المتحدث عنها دليلا صادقًا وحجة ثابتة، كما أن المبالغة في حجم الفكرة أو الموضوع يفسد قيمتها ويجعلها

موضعًا للتشكك والظن، ويخل كذلك بميزان العدالة في الأحجام والأوزان والنسب بين الحقائق الدينية المتعددة.

ومن هنا تأتى ضرورة معرفة الأولويات وأهميتها بالنسبة للداعية والمربى والواعظ، فبغير معرفة الأولويات تختلط الأشياء وتتداخل، وبالتالي تصعب رؤية الحقائق بشكل واضح، وهذا ما يجعل الآخرون يترددون بدورهم في قبول هذه الحقائق والإذعان لسلطانها. وبناءً على ذلك كانت توجيهات الإمام النورسي للأئمة والمرشدين والمربيين أن ينأوا بأنفسهم وبمريديهم وطلابهم عن تناول الخرافات والأساطير، وأن يعتمدوا الحقائق وحدها في بناء الشخصية المسلمة وتكوينها، وأن تستند أقوالهم إلى الحجة القاطعة والدليل الساطع، وأن ينأوا عن المبالغة والتهويل، وأن يعيشوا عصرهم وأن تكون الشريعة هي المعيار الثابت لقياس كل الحقائق وكل الأشياء، ولهذا كان للرجل دوره العظيم في إزالة المعوقات وتوجيه المعلمين من خلال مواقفه ولقاءاته بهم ورسائله إليهم.[28]

ولقد ظل الرجل (رحمه الله) يجاهد في كل مكان؛ من أجل الحفاظ على الإسلام في تركيا.. ولكونه موجها دينيًا يتمتع بشعبية كبيرة، فقد أصبح مثار شكوك الحكومة ''التجديدية'' لمصطفى كمال أتاتورك، مما كان سببًا في قضاء وقت كبير في السجون أو النفي في أرجاء نائية من تركيا.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية دخلت تركيا عهد جمهورية ذات برلمان مكون من أحزاب متعددة، وكان من الطبيعي أن تأخذ الموضوعات الدينية قسمًا أكبر من ذي قبل في المناظرات والمناقشات بين الجماهير وأفراد الشعب. وكان الفوز الذي حققه ''الحزب الديمقراطي'' في انتخابات عام ١٩٥٠م مفتاح طريق التغيير في السياسة المتعلقة بالدين، فمثلا سُمح للأذان الشرعي السابق، وهُجِرَ الأذان باللغة التركية، كما سمح بحرية أوسع لتدريس الدين. على أية حال كانت هناك أيضًا ميول ثقافية وفكرية أوسع لا تتعلق بالسياسة الحزبية آنذاك. وقد كان النورسي من أهم المفكرين والقادة الروحيين والتربويين الأتراك الذين نذروا أنفسهم لبيان المبادئ الإسلامية في ظل ظروف العصر الحديث واتجاه ''ما بعد الحداثة'' التي بدأت معالمها بالظهور.[29]

ثامنا: برنامج النورسي التربوي وأسس دعوته الإصلاحية

لخَّص بديع الزمان سعيد النورسي أفكاره في تسع مواد في مقالة نشرها عام

١٩٠٩م في ''الجريدة الدينية'' بعنوان ''ثمرة الجبل وإن كانت مرة إلا أنها دواء'' والعنوان الفرعي الذي وضعه لمقالته هذه يدلّ على أنّه أدرج بشكل واعٍ أهدافًا معينة في برنامج نضاله، ولأجل هذا يستحق الذكر، والعنوان الفرعي هو ''فهرست لمقاصد بديع الزمان وبرنامج أفكاره''.

ويمكن تلخيص هذه المواد التسعة على النحو الآتي:

المادة الأولى: تأمين اليقظة التي تدفع العالم الإسلامي إلى الرقي.

المادة الثانية: إزالة الخلاف بين المراكز التربوية التي تؤمّن المعارف الإسلامية. وهذه المراكز هي: (المدارس الدينية، المدارس الحكومية، التكايا).

المادة الثالثة: تأسيس الحرية العلمية في الأوساط العلمية.

المادة الرابعة: تأسيس شُعَب اختصاص في المدارس الدينية.

المادة الخامسة: الاهتمام بتنشئة الخطباء والوعاظ الذين يعدون مرشدين عامين.

المادة السادسة: إيقاظ الاتجاه نحو الرقي لدى العثمانيين، والقضاء على الأعداء الثلاثة: (الجهل والفقر والاختلاف).

المادة السابعة: إصلاح مقام الخلافة.

المادة الثامنة: يجب نشر الوحدة الإسلامية بين الجماهير المسلمة وتقويتها؛ حتى لا ترجع الدولة العثمانية إلى عهود أمراء الولايات.

المادة التاسعة: الاستفادة من القوة الكبيرة التي يملكها الأكراد والتي ضاعت نتيجة الخلاف الكردي وذلك بتأمين الوحدة الملية.

وقد سعى قبل مجيئه إلى إسطنبول بسنوات عدة إلى تحقيق بعض هذه الأفكار بين العشائر؛ بل إنه حضر إلى إسطنبول بقصد تحقيقها.[30]

تاسعا: النورسي ومواجهة الأعداء الثلاثة (الجهل والفقر والاختلاف)

وقد ذكر ''سعيد القديم'' هذه الأعداء الثلاثة في جميع مقالاته وكتاباته، وعبّر عن أفكاره هذه بأساليب مختلفة إذ يقول: ''إن كل مؤمن مكلف بإعلاء كلمة الله، والوسيلة الكبرى لهذا في هذا الزمن هو التقدم المادي. ذلك لأن الأجانب يسحقوننا تحت

سيطرتهم واستبدادهم المعنوي بوساطة أسلحة العلوم والصناعات، وسنجاهد نحن بأسلحة التربية والعلم والصناعة ضد الجهل والبؤس والفرقة التي هي أعدى أعداء إعلاء كلمة الله''.[31]

والجهل في نظر النورسي هو رأس الشرور، لذلك يُحَوِّلُ بديع الزمان الأنظار إلى هذه الأعداء الثلاثة على الدوام، إلا أنه في بعض شروحه يعدها كلها نابعة من الجهل، الذي عدَّه عدونا ويسعى لإبادتنا.

وهكذا فإن جميع المفاسد الاجتماعية تنبع من هذه الأعداء الثلاثة، وبالتالي من الجهل: حيث يقول النورسي: ''ثم إن أعداءنا ليسوا هم -أي الأجانب- بل إن عدونا هو الجهل، وما تولد منه من منع إعلاء كلمة الله، وما نتج عنه من مخالفة الشريعة. ثم البؤس وثمرته سوء الأخلاق وسوء التصرفات، والخلاف وما يتولّد عنه من الحقد والنفاق. وغاية اتحادنا هي الهجوم على هذه الأعداء الخالين من الإنصاف'' كما أنه كان يرى الجهل أساس كل سوء، ويرى أن الخلاص يكون بالعلم، ويتضح هذا المعنى من قوله: ''كنت أرى الأحوال البائسة للعشائر في الولايات الشرقية، فأدركت أن جزءًا من سعادتنا الدنيوية سيتحقق بالعلوم الجديدة للمدنية''.[32]

ويُعَدُ النورسي من علماء زمانه القلائل الذين أعطوا أهمية كبيرة للعلم، إذ من الصعب أن نجد رجل علم في أوائل هذا العصر يمتلك كل هذه البصيرة النافذة عن مستقبل العلم. يشهد له قوله: ''إن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم، وتنصب إلى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة''.[33]

عاشرا: النورسي ودولة العلم

ويؤكّد النورسي على أهمية العلم بقوله: ''الحكومات التي تستند إلى القوة ستتشيخ -مثلها في ذلك مثل قوتها- بسرعة، ولكن لما كان شأن العلم ومجده في تزايد مستمر، فإن الحكومات التي تستند إلى العلم ستكتب لها حياة أبدية.'' وهو بذلك يشير إلى وجوب استناد المجتمع إلى العلم، مؤكدا أن الاسلام باعتباره مرجعيتنا يحمي أهل العلم، ويستشهد العقل والعلم ويوقظهما في النفوس بمثل هذه الآيات الكريمة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُون.. أَفَلَا يَتَفَكَّرُون.. أَفَلَا يَعْقِلُون﴾. لذا كان الاسلام دوماً قلعة الفقراء وحصن العلماء وملجأهم.[34]

حادي عشر: النورسي.. وإصلاح المدارس الدينية ونشرها

يرى الأستاذ النورسي بأنّ إزالة الجهل تتم بنشر المدارس الدينية، غير أنه لم يكن راضيًا عن هذه المدارس، لا من حيث عددها، ولا من حيث كفاءتها ومستواها. ومن أجل ذلك كان من الضروري زيادة عددها، ولكن قبل هذا يجب إصلاحها، بل يجب تغييرها تغييرًا جذريًا شبيها بإحداث ثورة فيها، فهذه المدارس لم تكن قادرة على تنشئة رجال يستطيعون مجابهة احتياجات العصر وذلك لوجود ثلاثة نواقص فيها هي: النظام، والرقي، والتخرج.

ويقصد بالنواقص المتعلّقة بالنظام: أي الخلل المهم في بنيتها الداخلية. فالمدارس الدينية كانت تُخرّج نمطًا واحدًا من الإنسان، إذ لم تكن تملك شُعَبًا متخصصة، بينما يتمنى الأستاذ أن تكون لهذه المدارس شُعَبًا متخصصة مثلها في ذلك مثل دار الفنون ''الجامعة''، أي تتفرّع إلى شُعَب مترابطة فيما بينها، وفي ذلك يقول الأستاذ: ''يجب أن يطبق هنا تقسيم الأعمال بتمامه'' وأيضا تنظيم هذه المدارس من جديد بحيث يوضع لها أولا قسم فيه دروس أساسية، ثم ينقسم إلى أقسام متخصصة أي تكون جامعة لها كلياتها المختلفة.

ويقصد بالرقي، الرقي العلمي، وهو يرى أن لهذا النقص أسبابا متعددة، منها: أنه حلَّت دروس الآلة محل الدروس الأصيلة. ويقصد بدروس الآلة اللغة وما يتعلق بها من علوم. فالطلاب لم يكونوا يستطيعون تجاوز هذه العلوم ويقضون أعمارهم في فك رموز العبارات.كما أن البرامج الرسمية لهذه المدارس الدينية كانت حافلة بالكتب التي تتناول المسائل نفسها ولم يكن بمقدور الطلاب أن يتجاوزوا هذه الكتب التي كانت تستغرق أعمارهم. فالمتون الأصيلة وشروح هذه المتون وهوامش هذه الشروح، وأحيانًا هوامش الهوامش... إلخ. كانت سجنًا لأفكار الطلاب وهدرًا لأوقاتهم، وما كانت تسمح لهم بالخروج عن قبضتها. كما أن عدم وجود الاختصاصات لم يكن أمام الطلاب أية فرصة للإبداع حسب ميولهم الفطرية، وحسب تعبيره فإن الميل عند الجميع كان نحو البروز وحب السيطرة والنزوع إلى التحكم، ولم يكن هناك من يهتم بتطوير نفسه علميًا، لذا ''فقد سارت هذه المدارس الدينية نحو الاندثار''، وعامل آخر كان يعرقل الرقي العلمي وهو عدم وجود العلوم الوضعية في هذه المدارس الدينية. ويقترح بديع الزمان إدخال هذه العلوم -أو العلوم المدنية بتعبيره- إلى هذه المدارس الدينية وإدخال الدروس الدينية إلى المدارس الاعتيادية. فعدم وجود العلوم الوضعية

في المدارس الدينية يقود طلاب هذه المدارس إلى التعصب وعدم وجود الدروس الدينية في المدارس الاعتيادية يقود الطلاب إلى الشك وإلى الاحتيال.

أما مسألة التخرج فإنها تتعلق بساحة عمل خريجي هذه المدارس الدينية. لقد أدت النواقص الموجودة في المدارس الدينية إلى عدم توجه الطلاب الأذكياء وأصحاب الكفاءات إلى هذه المدارس ''فالأذكياء ذهبوا إلى المدارس الاعتيادية، والأغنياء استنكفوا من طراز عيش المدارس الدينية. قال بديع الزمان منبهاً إلى الآثار السلبية المترتّبة عن إهمال موضوع التخرج في هذه المدارس الدينية، فذكر عند تعديده للشروط التي يجب توفرها في ''مدرسة الزهراء'' -التي كانت المثل الأعلى للمدارس الدينية عنده- والتي بذل جهوده لتأسيسها طوال ٥٥ عامًا)، بأن الملتحقين بها يجب أن يعاملوا على قدم المساواة مع طلاب الدراسات العليا الملتحقين بالمؤسسات التعليمية الأخرى، ويجب أن تُعد امتحاناتهم على نفس الدرجة من الاعتبار والأهمية لامتحانات المؤسسات التعليمية الأخرى وإلا كانت امتحاناتها عقيمة.

وهكذا ناضل بديع الزمان سعيد النورسي من أجل إصلاح المدارس الدينية وزيادة عددها، وشجع في الوقت نفسه على تعليم الصغار. وعندما سُنَّ قانون توحيد التدريس بعد إعلان الجمهورية ومَنْع الدروس الدينية تمامًا في المدارس، انتشر في طول البلاد وعرضها شعار مفاده: ''إنّ هذه المدارس مدارس كفار لا ترسلوا أبناءكم إليها'' وعندما بدأ مفعول هذا الشعار في بعض العهود يسري لدى الأوساط الدينية، كان بديع الزمان يقول: إن جميع العلوم الوضعية تتحدث بألسنتها الخاصة بها عن الله. لا تستمعوا أنتم إلى المعلمين بل استمعوا إليها، أي أنه بدلاً من التوصية بمنع إرسال الصغار إلى المدارس كان على العكس من ذلك يشجع على إرسالهم إليها''.[35] وهكذا كرس الرجل حياته للقيام بمشروعٍ سماه ''إنقاذ الإيمان وخدمة القرآن'' يقوم على تحويل إيمان الناس من مجرد إيمانٍ تقليدي موروث إلى إيمان تحقيقي مشهود. كما يقوم مشروعه في شقه الآخر على تبيان ''حقائق'' القرآن للناس وأبرزها التوحيد والنبوة والحشر.

المبحث الثاني

مبادئ الإصلاح التربوي في فكر الإمام النورسي وإمكانية الإفادة منها في إصلاح المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي

نتحدث في هذا المبحث عن مبادئ الإصلاح التربوي عند الإمام النورسي في ضوء نتاجه العلمي (رسائل النور)، وكيفة الإفادة منها في إصلاح المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي، حيث يتميز منهجه التربوي بشمولية التناول، والمنهجية، والمعاصرة؛ وهو قائم على منهج متسق وموحد ضمن ضوابط أصولية خالصة، وفهم عميق لروح الأمة وفطرة الإنسان، والواقعية التي تنظر إلى الإنسان كما هو، ولكنها تدفعه إلى أن يسير بيسر وحكمة وتبصر.

ويمكن استخلاص مبادئ الإصلاح التربوي عند النورسي على النحو التالي:

أولاً: التركيز على العلم كمنطلق للإقلاع الحضاري للأمة الإسلامية

يرى الإمام بديع الزمان سعيد النورسي أنَّ العلم هو أمضى الأسلحة وأقوها، وسيتعاظم دوره في المستقبل، ويؤكد أن عهد الشجاعة الفطرية انتهى وفات أوانه، إذ حَلَّتْ مكانه الشجاعة العلمية. ولهذا يخاطب الجيل الجديد قائلا: ''يجب أن تصنعوا أسلحتكم من العلم، ومن الصناعة، ومن التساند، ومن جوهر الحكمة القرآنية''. فالجهاد بدلا من أن يكون في جبهات القتال سيكون في ساحات العلم والصناعة. ويقول: ''بما أن العقل والعلم هما اللذان سيحكمان في المستقبل، لذا لابد أن يحكم القرآن الذي تستند جميع أحكامه على البراهين العقلية، والذي يستمد جميع أحكامه من العقل''. وقال أيضا: ''إن المستقبل سيكون فقط للإسلام، والحقائق القرآنية والإيمانية ستكون هي الحاكمة.'' واستطرد: ''إنني أعلن دون أي تردد وبكل ما أملك من يقين وعقيدة... سينتشر الحق وسيترعرع. وأنا أعتقد أن الحقائق الإسلامية هي التي ستحكم جميع القارات حكماً مطلقاً في المستقبل''؛[36] لأنها مستمدة من كتاب الله الخالد.

ثانياً: الثقة المتفائلة بالإنسان

فالإنسان عند النورسي ليس هيكلاً ماديًّا مجردًا، أو عقلاً منطقيًّا باردًا، إنه كائن حساس فريد ومتميز، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية ووجدانية وأخلاقية شاملة، خليفة في الأرض، مُبتلى بتوتر عميق بين محدودية إمكاناته ولا نهائية

آماله في الكمال والخلود.[37] كما يرى النورسي أن "الإنسان في الوقت نفسه نوع من أنواع الخدم العاملين في قصر الكون، هذا الإنسان شبيه بالملائكة من جهة، وشبيه بالحيوان من جهة أخرى، إذ يشبه الملائكة في العبادة الكلية، وشمول الإشراف، وإحاطة المعرفة، وكونه داعيًا إلى الربوبية الجليلة، بل الإنسان هو أكثر جامعية من الملائكة؛ لأنه يحمل نفسًا شريرة شهوية - بخلاف الملائكة-، وأمامه نجدان، وله أن يختار، إما رقيًّا عظيمًا، أو تدنيًا مريعًا. ووجه شبه الإنسان بالحيوان هو أنه يبحث في أعماله عن حظٍ لنفسه، وحصةٍ لذاته، لذا فالإنسان له مرتبان: الأول: جزئي حيواني معجل، والثاني:كلي ملائكي مؤجل".[38]

ويطالب النورسي بمراعاة طبيعة الإنسان هذه وأخذها في الاعتبار عند رسم المناهج التربوية التي ستقدم له، بحيث تخفف من حدة توتره العميق إزاء إمكاناته المحدودة وآماله العريضة، ويجب أن تُستثمر قدراته ومداركه المتسعة لتعميق الجذور الايمانية فيه، وأيضا توقظ في فطرته نعمة الإذعان الإيماني، وتغذي في وجدانه وفي سلوكه الجوانب التي تجعله أقرب إلى الملائكية منه إلى الحيوانية، وتنير له طريق الخير، وتُظْلِم في وجهه أبواب الشر وتوصدها.

ثالثاً: تعميق التربية العاطفية والأخلاقية وتأطيرها

أدرك النورسي أن العواطف لا تُغتال ولا تُقتل ولا تُصادر؛ بل تحدّد لها الضفاف، وتوجّه للبناء، وتؤطر بإطار من الحق والخير والعدل. فإذا كانت اللذة العاطفية السائبة ممتهنة بالابتذال الحسي، ومتنغصة بألم ترقب الزوال وتوقع الفراق، وتوجّس الفقد، وغصص الفوات، ووخز أشواك الغيرة والحسد، وحسرات عدم تبادل العاطفة بمثلها صفاءً ودوامًا، فإن اللذة العاطفية المنضبطة بالإيمان لذة نقية شفافة دائمة.

كما تقوم فلسفته التربوية على تعميق مفردات أخلاقية متعددة في نفوس الطلاب، كالصدق والأمل والصبر والشجاعة والتضحية، وجعلها وقوداً لازدهار الإنسان الأخلاقي، كما رسم خطوطاً كثيرة لوصول الإنسان إلى رضا ربه كخط الشكر، والتذلل، والتوكل، والحب، والإخلاص.. وحلّ الإشكالية بين ميل الإنسان إلى الانتماء لذاته أو للمجتمع، وأقام طلابه على معادلة مريحة متوازنة بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية، بدعوته لطلابه للتسامح والحب، والتعاون، وعدم الإسراف والتورط في المطالب الكمالية التي يختلقها الرأسماليون، كما وضع أسسًا موضوعية جادة للحوار، ورسم قواعد لمنع الاختلاف أو تجاوزه أو تخفيفه.

وباختصار فقد سعى إلى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة، وعلى ابتغاء رضا الله ﷻ بدلاً من التزاحم على طلب المنافع، ويقوم بناؤه على البر والتقوى لا على الصراع والجدل، وتشد لبناته الأخوة الدينية الجامعة، ولا تشتته العنصريات وتهذب رغبات الإنسان فيه ولا تطلقها بعشوائية وفوضوية.[39]

رابعاً: التركيز على التربية الجمالية والجسمية؛ لتهذيب النفس والبدن

إن إحساس الإنسان بالجمال فطري أصيل، والجمال في الكون أصيل كذلك وكلي وشامل، وغائي.. وإن هناك تفاضلاً في درجات الحسن، ويميل الإنسان إلى الأحسن والأجمل.. أما اللذات الجمالية فهي تتسم بالتنوع والشمول، فهناك لذات حسية، سمعية بصرية، شمية ذوقية، وهناك لذات جمالية فكرية وروحية وعاطفية تتذوقها العقول والأرواح والقلوب.. والاستمتاع بالجمال المشروع فيه فوائد جمة إذ ترقق أحاسيس الإنسان وتهذب مشاعره، وتطهر أفكاره وتصفو نفسه، وتسمو بعد ذلك نقية طاهرة إلى خالقها.. ويحث النورسي الفرد المسلم على الانضباط بالضوابط الشرعية في التمتع بالجمال لتتكامل لذاته، وتنفتح أمامه آفاق ملونة رحبة للحسن، ولتأمن لذاته من ألم التكدير وألم خوف الزوال فالمشاعر التي يثيرها الأدب الغربي فهي إما حزن كثيف معتم لا تخترقه أضواء الأمل في المصير الأخروي أو اللقاء المتجدد مع الناس والأشياء، أو السعادة في عالم آخر.. أما الفرح الذي تخلفه فهو يتسم بعدم البراءة ويدفع إلى مزيد من التجاوز عن الآخرين-وعن الحق، وتكدره توقعات الفراق وآلام الفوات ومشاعر الندم.. وقد وضع النورسي كتاب الله الخالد القرآن المعجز قبالة الأدب الغربي فبدا الأول عملاقاً رصينًا متوازناً إنسانيًّا أخلاقيًّا شاملاً، فهو كلام الله يخلق الطمأنينة، ولا ينصب علامات الاستفهام على طريق القارئ، فلا حيرة ولا شك ولا اغتراب.. فالإنسان الذي تربى على القرآن قد تكشفت له دلالات القدرة والحكمة والعناية والرحمة واليقين في هذا العالم وانشد بكل وعي واختيار إلى منظومة الحقائق الإسلامية المتناسقة والصادقة والشاملة وامتلأت نفسه رضى وأنسًا وودًّا وسكينة. إنه أدب الحقيقة بمعناها الشامل لوحي الله واجتهاد الإنسان.. ومنظوره للواقع يتسم بالشمول إذ يستوعب المحسوس المجرب والمخبوء المغيب في الكون والحياة والإنسان، وهو يدعو الإنسان إلى تعامل مع هذا الواقع الكلي بمعادلة اليقين.. بخلاف الأدب الغربي القاصر والمحدود.

ولم يغفل النورسي التربية الجسمية، حيث أكد على نقاط مهمة في التربية الجسدية

منها: ضرورة تحديد كمية الطعام الذي يتناوله الشخص، والنهي عن الإسراف، والربط بين السلوك الأخلاقي المنحرف والأمراض العضوية، والتركيز على أهمية العلاج المادي للأمراض، والإرشاد إلى العبادة وبيان أهميتها لسلامة الجسد، والإشارة إلى أهمية الطب الروحي والنفسي في الشفاء من الأمراض.[40]

خامساً: اعتماده المنهج الوسطي

عبّر الإمام النورسي (رحمه الله) عن الطريق الوسط من خلال وضعين متعاكسين ومتضادين، وبيّن أنَّ الطريق الإسلامي الصحيح هو المنهج الوسط بينهما، الذي يعمل على استحضار هذه المعاني حتى في الموضوعات المثيرة للنزاع.[41] ويرى أن القوة العقلية يجب أن تُرشَّد، بالمنهج التربوي السليم؛ لتسير في الحد الوسط، وهو الحكمة والاستقامة، التي هي سهلة نافعة، تهوى بالإفراط والتفريط في مكان بعيد، فتعاني المهالك في طرقها الطويلة. وهكذا وقياسًا على ما ذكر؛ فإن الوسطية والاستقامة هي أنفع طريق وأيسرها وأقصرها من بين جميع الطرق المسلوكة في حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية.[42]

وهكذا كانت موازنته رائعة وفريدة بين العلوم الدينية والمدنية، وتوجيه خطابه إلى العقل والقلب والروح معا، وبُعده عن الإفراط والتفريط، وتركيز فلسفته التربوية على هذه المبادئ.

سادساً: مراعاة الفروق الفردية بين البشر

يركز النورسي على قضية الاختلافات الفطرية، والمكتسبة بين البشر في التعليم، فيركز على الفروق الفردية بين الأشخاص؛ فما ينفع لشخص ما، قد لا ينفع لآخر، ويضرب لذلك مثلا فيقول: "الأدوية تتعدد حسب تعدد الأدواء، ويكون تعددها حقًّا. وهكذا الحق يتعدد. والحاجات والأغذية تتنوع، وتنوعها حق.. وهكذا الحق يتنوع. والاستعدادات ووسائل التربية تتشعب، وتشعبها حق.. وهكذا الحق يتشعب. فالمادة الواحدة قد تكون داءً ودواءً حسب مزاجين اثنين؛ إذ تعطى نسبية مركبة وفق أمزجة المكلفين، وهكذا تتحقق وتتركب".[43]

وهكذا يسير النورسي بالتربية نحو تفريد التعليم.. بحيث يعطى لكل شخص ما يتوافق ومواهبه وإمكاناته واستعداداته.

سابعاً: تجريد العقل من المعلومات غير الحيوية وغير الحقيقية وإفساح المجال للحقائق الإيمانية

لقد أدرك العلامة النورسي أن الإنسان كائن ميتافيزيقي ولا يشبع حاجاته العقلية والروحية والعاطفية إلا التوحيد؛ فأية نظرية مادية أو عقلية أو علمانية لم ولا ولن تقدر على إشباع هذه الحاجة العميقة. لقد أيقن النورسي أن الفرد لابد أن يعبد إلهًا، وذلك حق أثبته الواقع الفكري.. كما جاهد رحمه الله في العمل على تجريد الفكر من المعلومات غير الحيوية وغير العملية، وغير الحقيقية، وافساح المجال لمقابلاتها الإيمانية، وجعل نفسه نموذجًا لذلك التجريد.. كما وفق في التوفيق العقلي بين ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وذلك بغرس الإيمان بالغيب في الوعي البشري دون تصادم مع واقعات الحس ومقررات العقل المنطقي السليم ونتائج العلوم التجريبية اليقينية القطعية، فوسَّع من أفق الواقع المكاني والزماني في وعي الإنسان.. وقد أزاح أمامه بعون القرآن الكريم كل شبهات الماديين وأوهامهم وظنونهم وأهواءهم.. ومن فضل ما وضعه من شروط للتوصل إلى الحقيقة: الشروط الوجدانية والعقلية والروحية والأخلاقية كتجنب الغفلة، والمعصية، والغرور، والتعصب، والوهم، والنفي اللامسؤول، والافتراض أو التنظير غير العلمي أو غير المتماسك.. كما دعا إلى تنقية كتب التراث من التفسيرات والآراء التي دحضها العلم بيقينياته.[44]

ثامناً: التربية المتجردة المبنية على التسامح والحوار والبرهان والمستمرة مدى الحياة

وهكذا يسبق النورسي الآخرين بإقراره لفكرة التعلم المتواصل والمستمر مدى الحياة، فقد التزم بها في فعله التربوي، فبدأ بنفسه باستكمال نواقصها ثم الشروع في عمله، والاستعلاء على المديح، والتواضع ونقد الظواهر غير الصحيحة بالبرهان والحوار، واتخاذ التسامح شعارًا له، وعدم أخذه أجرة على تعليمه، ومخاطبته الناس على قدر عقولهم، وعدم انقطاعه عن التربية حتى في السجن الذي سماه المدرسة اليوسفية، وعدله في تعليمه مع كل الطلاب حتى ولو كانوا أبناء أعدائه.

تاسعاً: التأكيد على مبدأ الصحبة والقدوة الشاخصة في التربية

لقد أدرك النورسي بعلم اليقين حقيقة حديث رسول الله ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدُكم من يخالل) أن الصحبة لها دور مهم في التعليم والتعلم، ومن خلالها ينتقل أثر التعليم من الأستاذ للطالب، كما أنها ترسخ القدوة الماثلة.

ذلك أن فقه الوقت يدعونا إلى اكتساب الإيمان وتربيته في القلوب قبل النظر في

أمور الحياة الاجتماعية، ولا شك التربية بالصحبة الطيبة أو الصحبة في التربية لها دور مهم في تحقيق ما سبق..

عاشراً: التعلم من الكائنات

يدعو الإمام النورسي إلى التعلم من الطبيعة، واستنباط الحكمة من كتاب الكون (كتاب الله المنظور)، وهو بذلك ينمي في العقل السياحة الفكرية الخيالية في بديع صنع الله، ومن ثمَّ ترسيخ قدرة الله وعظمته ووحدانيته في وجدان المتعلم.

يقول النورسي (رحمه الله): ''هذا الكتاب الكبير للكون الذي يُكتب في صحيفة واحدة منه -وهي سطح الأرض- ويُكتب في ملزمة واحدة منه -وهي الربيع- ثلثمائة ألف نوع من الكتب المختلفة، وهي طوائف الحيوانات وأجناس النباتات كل منها بمثابة كتاب.. يُكتب كل ذلك معا، وهي متداخلة بعضها ببعض دون اختلاط، ولا خطأ، ولانسيان، وفي منتهى الانتظام والكمال، بل يُكتب في كل كلمة منه -كالشجرة- قصيدة كاملة رائعة، وفي كل نقطة منه -كالبذرة- فهرس كتاب كامل. وإن هذا مُشاهَد وماثل أمامنا، ويُرينا بالتأكيد وراءه قلمًا سيَّالاً يسطر. فلكم أن تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمة وحكم شتى، ومدى دلالة هذا الكتاب الأكبر المجسم -وهو العَالَم- إلى بارئه سبحانه وإلى كاتبه جلَّ وعلا، وهكذا فإن كل علم من العلوم الكثيرة جدًّا، يدل على خالق الكون ذي الجلال، ويعرّفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته العظيمة. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة''.[45]

ولا شك أن النورسي رحمه الله وهو يدعو إلى التعليم الخِبري Executive Learning والنمو الروحي والمهارات العملية للحياة، قد سبق التربويين العالميين إلى ذلك، فالنظريات التربوية الحديثة التي يتغني بها الغرب والشرق تؤكد على التعليم المباشر من الحياة..

يقول ''دونالد ويلترز Donald wiltres'': يصبح كل متعلم وفقًا لهذه الطريقة التي ترتبط بالحياة بصورة مباشرة، ناضجًا فاعلا متسقًا وسعيدًا، ذلك أن الذين يتعلمون طبقًا لذلك يكونون أفضل الأشخاص فيما بعد؛ لأن التعليم يبقى إلى الأبد، ويصبح الآباء الذين يتعلم أبناؤهم طبقًا لذلك، ينظرون دائمًا للتميز الأكاديمي، وأيضًا يريدون

من أبنائهم أن يمارسوا خبرة التعليم عمليًّا ويستفيدوا بها.[46]

ويؤكد ''دونالد ويلترز أيضا على أن التربية يجب أن تكون تجريبية، ويجب ألا تقتصر على الجانب التنظيري فقط. ويُرجع الضعف الرئيس للتربية الحديثة بأنها كانت تركز وبطريقة أساسية وأولية على الجانب النظري Theoretical، بعيدة عن التأثيرات العملية Practical effects للنظرية نفسها.[47]

ومع أهمية ما سبق إلا أنه في الوقت نفسه لا يقلل من أنماط التعلم الأخرى، حيث يؤكد على أهمية كل نمط من أنماط التعلم بداية من الحفظ إلى المهارات الفنية والعملية، مرورًا بالتمكن مما هو أكاديمي. كما أن علماء التربية الحديث في الوقت نفسه يبدون اهتمامًا كبيرًا بضرورة تنمية ما يسمونه بالوظائف العملية (الخبرات الحياتية العملية المباشرة) Practical direct life experience،[48] كما يرى النورسي أن المفتاح الأساس للتعلم يكمن في بناء القدرة على اتخاذ قرارات مفيدة في العالم الحقيقي الواقعي من الخبرة العملية.

حادي عشر: ضرب الأمثال واستخدام الوسائل التوضيحية المتاحة

يركز النورسي في رؤيته التربوية الإصلاحية على ضرب الأمثال، مستلهما ما جاء في القرآن الكريم؛ لتقريب الصورة إلى عقول المتعلمين ونفوسهم. ويؤكد على أهمية ضرب الأمثال في العملية التعليمية بقوله: ''فبمنظار ضرب الأمثال قد أُظهِرَتْ الحقائق البعيدة جدًّا أنها قريبة جدًّا، وبوحدة الموضوع في ضرب الأمثال قد جُمِّعَتْ أكثر المسائل تشتتًا وتفرقًا، وبسلّم ضرب الأمثال قد تُوصِل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويُسر، ومن نافذة ضرب الأمثال قد حُصّل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من الشهود. فاضطر الخيال إلى الاستسلام وأُرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى. كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح''.[49]

وهكذا فإن نظرية ضرب الأمثال التي دعا إليها الإمام النورسي (رحمه الله) والتي استلهمها من القرآن الكريم، تسهم في استدعاء المشهد عند المتعلم، وتسهم في القضاء على الهوة بين النظرية والتطبيق، وترسخ الأبعاد المعرفية لدى المتلقي؛ لتظل وثيقة حاضرة في نفس المتلقي؛ فمن المعلوم عند علماء التربية والإعلام وغيرهم أن الصورة في التعلم، تكون أبقى أثرًا في الذاكرة من الكلام والنصوص، وأشد وقعًا وتأثيرًا على المشاعر والوجدان، وأسعف وأسرع في الاستدعاء.. والصورة في

الصحافة أيضا تساوي ألف كلمة.. وهكذا فإن إعمال العديد من الحواس لدى المتلقي يجعله في حالة ترقب؛ مما يجعل التعلم أكثر تشويقا ومناسبًا لمختلف المستويات الثقافية والاجتماعية. وهكذا فمن الحكمة أن نستخدم كل ما يعين على الفهم، وما يزيد في البيان، فلا نكتفي بحاسة واحدة هي حاسة السمع، فليشترك البصر، وإعمال الفكر، وغيرها في الاستعداد الكامل للتلقي والتفاعل، حتى يتأكد موضوع الوضوح والتأثير في الخطاب التربوي.. والله ﷻ لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾[إبراهيم: ٤] فلابد إذن أن يفهموه، بشتى الوسائل التي من شأنها تحقيق هذا الهدف.. وتأكيدًا على هذه المعاني فقد لفت الله تعالى أنظارَنا إلى التأمل والتدبر بشتى حواسنا في كتاب الله المنظور "الكون" بما يحويه من مشاهد، ودلائل القدرة الإلهية، وآيات كونية تدل على قدرته وعظمته لتظل حاضرة في كينونة المسلم. ومن أجل ذلك استخدم النبي ﷺ الوسائل التوضيحية المتاحة في عصره وهو يُعَلِّم أصحابَهُ: فتارة يراه الصحابة وهو يمسك عودًا ويخط خطًا مستقيما على الأرض، ثم يخط خطوطًا متعرجةً، ويقول لأصحابه: أتدرون ما هذه الخطوط، فيقولون: الله ورسوله أعلم. فيقول: الخط الأول هو طريق الله تعالى، أما الخطوط المتعرجة فهي طرق الشيطان. وتارة ثانية يشير بإصبعيه السبابة والوسطى وهو يقول: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار -بإصبعيه- السبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئا) في إشارة واضحة منه ﷺ أن من يكفل اليتيم سيكون قريبا منه في الجنة. وتارة ثالثة يراه الصحابة الكرام، وقد أخذ ﷺ ذهبًا بيمينه، وحريرًا بشماله، وقال: (هذان حرام على ذكور أمتي، حل لإناثها). وتارة رابعة يُعلم أصحابه المنهج العلمي في كيفية الرفق بالحيوان -وهذه دعوة محسوسة- عندما كان يأكل تمرًا بيمينه، ويضع النوى في يساره ويعلف به ناضحه -أي الكبش- ويمسح على رأسه رحمة به، ويُعلم أصحابه ذلك. وتارة خامسة ينزل ﷺ من على المنبر؛ ليحمل الحسن والحسين رحمة بهما، وليعلم المسلمين فضيلة الرفق..

كما ركز الإمام النورسي على كل وسائل التربية المتاحة لتوصيل المضامين المعرفية ومنها التربية بتفريغ الطاقة وبالوعظ وبالقصة بأنواعها وبالقدوة الشاخصة.

ثاني عشر: التركيز على التربية النسوية ومراعاة خصوصيتها

اعتبر النورسي (رحمه الله) النساء مخلوقات طيبة مباركة، ونعى على التربية الغربية أو المتغربة التي لم تر في المرأة سوى هيكلها المادي وجمالها الحسي، متجاهلة الاهتمام بتجميل روحها وهندسة خلقها وترقية شعورها وتأصيل إبداعها الفكري والأدبي والعلمي والفني. وحذر من الجهات الخفية التي تخطط لدفع المرأة إلى مساقط الرذيلة.[50]

ويحذر المرأة من مغبة السقوط، فيقول: "فما دام كلُّ جميل يحب جماله، ويحاول جهده المحافظة عليه، ولا يريد أن يُمَسّ بسوء.. وما دام الجمال نعمة مهداة، والنعمة إن حمدت الله تعالى عليها زادت، وإن قوبلت بالنكران تغيّرت.. فلا شك أن المرأة المالكة لرشدها ستهرب بشدة وبكل ما لديها من قوة من أن تجعل جمالها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وسوق الآخرين عليها.. وستفر حتمًا من أن تجعل جمالها يتحول إلى قبح دميم وجمال منحوس مسموم.. وستنهزم بلاشك من أن تجعل بالنكران تلك النعمة المهداة مدار عذاب وعقاب. لذا ينبغي للمرأة الحسناء استعمال جمالها على الوجه المشروع؛ ليظل ذلك الجمال الفانى خالدًا دائمًا بدلاً من جمال لا يدوم سوى عدة سنين، فتكون عندئذ قد أدت شكر تلك النعمة. والاّ ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها، وستبكى وتندب على نفسها يائسة نادمة لشدة ما ترى من استثقال الآخرين لها وإعراضهم عنها. أما إذا زُين ذلك الجمال بزينة آداب القرآن الكريم وروعي الرعاية اللائقة ضمن نطاق التربية الاسلامية، فسيظل ذلك الجمال الفانى باقيًا –معنىً- وستمنح المرأة جمالاً هو أجمل وأبهى وأحلى من جمال الحور العين في الجنة الخالدة كما هو ثابت في الحديث الشريف. فلئن كانت لتلك المرأة مسكة من عقل، فلن تدع هذه النتيجة الباهرة الخالدة قطعاً أن تضيع منها"...[51] كما أكد على ضرورة تربية الطفل تربية إسلامية صحيحة..

كما قدم النورسي كثير من المبادئ والأسس التربوية الإصلاحية الأخرى، ومنها: تجريد الخطاب التربوي من المقاصد الدنيوية ليغدو أكثر فعالية، وتقوية البصيرة الأخلاقية، وتكوين الحس النقدي لدى الطالب، ودعوته إلى الحضور الفكري الفاعل أثناء التلقي، ووضع نموذج النبي ﷺ أمام المتعلمين ليكون نبراسا للاقتداء به عليه الصلاة والسلام.. وغيرها من الأصول التربوية التي تحتاج إلى دراسات متعددة لعرضها..

طرق الإفادة من مبادئه التربوية في إصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي:

وبعد أن عرض البحث مبادئ الإصلاح التربوي عند الإمام النورسي، فإننا نستطيع أن نؤكد أننا أمام منجم أفكار تربوية إصلاحية، قابلة التطبيق، ويجب أن نستفيد منها في إصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي.

ويمكن إجمال طرق الاستفادة من رؤاه التربوية على النحو التالي:

- تربية النشء على الإيمان، وخاصة في البيوت، حيث قال: (اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد على الإيمان).
- صلاح الزوجين عامل قوي في صلاح الأولاد، فقد كان النورسي يوجه طالبات النور إلى اختيار الزوج الصالح الذي تربى تربية صالحة.
- ضرورة تركيز المؤسسات التربوية على الأم؛ لأنها أستاذ التربية والتعليم الأول، حيث قال: (إن أول أستاذ الإنسان وأكثر من يؤثر فيه تعليمًا هو والدته).
- ترسيخ المؤسسات التربوية لقيمة الإخلاص في وجدان المتعلمين، حيث يقول (إن الإخلاص ألزم شيء، وأهم أساس في التربية).
- اهتمام المؤسسات التربوية بتربية المرأة وتعليمها، ويذكر هنا: (أن العلاج الناجع لإنقاذ سعادة النساء من الإفساد، ليس إلا في تربيتهن تربية دينية).
- التدرج في التربية والتعليم حسب مراحل العمر؛ لأن لكل مرحلة ما يناسبها من الطرق التربوية، وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فكما تتحول الألبسة في الفصول الأربعة، تتحول طرز "أنواع" التربية والتعليم في طبقات عمر الشخص...).
- حسن اختيار المؤسسات التربوية للمنهج التربوي والتعليمي، حيث يؤكد على المربي (المعلم) بأن يختار من العلوم أسلمها وأصلحها، ويسلك من الطرق أيسرها وأنفعها؛ حتى يسهل على المربَّى (المتعلم) تقبلها ويشعر بفائدتها.
- عدم استخدام أسلوب الترهيب والتخويف في التربية والتعليم، حيث يكون تأثيرها جزئيا وسطحيا ومؤقتا، ويسد طريق المحاكمة العقلية.
- ضرورة اهتمام المؤسسات التربوية بالكيف لا بالكم، حيث إن اختيار نوعية العلم أولى وأهم من الاهتمام بكثرته.

- كثرة الاطلاع والقراء، حين قال: (أما حب الاستطلاع فهو أستاذ العلم)؛ لأنه وسيلة قوية للتحصيل العلمي.
- تسمية المدارس بأحسن الأسماء، والتي لها معنى جميل أو تذكير بمعاني طيّبة.
- الجمع بين العلوم الكونية الحديثة والعلوم الدينية تدريسًا، لما لها من تأثير عظيم في تمييز الصالح من الطالح، ولتخليص المحاكمة الذهنية (العقلية) من ظلمات الأوهام والخرافة.
- انتقاء المدرسين وانتخابهم مِنْ مَنْ حظي بالجمع بين العلوم الكونية الحديثة والعلوم الدينية.
- مراعاة مؤسسات التربية والتعليم لاستعدادات المتلقين ومستوياتهم العُمْرية والعاطفية والعقلية والمعرفية.
- تقسيم أعمال التعلّم (فتح التخصصات)؛ لأنّ الطريق الرئيس لإنتاج المهرة في شعبة من شُعَب التعلم، هو التركيز على التخصص.
- العدل بين المتعلمين في مختلف مؤسسات التربية والتعليم.
- إنشاء مؤسسة لتكوين (المعلمين) وتدريبهم بصورة منهجية مستمرة، لهذا ينصح النورسي باتخاذ دار المعلمين ركيزة للتكوين (تكوين المعلمين)، أي تدريبهم وتأهيلهم.
- ضرورة الرفق بالمتعلم، واستصلاح وإصلاح القلوب وتربيتها على المحبة لا الانتقام وشفاء الغليل، وذلك ضرورة لكي يقبل الطالب على التعلم بحب ورغبة ونشاط، وكان النورسي كثيرا ما يردد، ''لا تتشددوا، أوغلوا برفق، الناس ليسوا سواسية في المشارب...''
- التدرج في إصلاح المؤسسات التربوية، حيث كان النورسي يؤمن ''بالنظام''، ويبعد ''الفوضى'' ويؤمن ''بالتدرج'' ولا يعتقد بـ ''الطفرة''؛ فالنظام والتدرج هما أساس الوجود كله، وأي خروج عليهما يعني إدخال الفساد عليه، فالتغيّر التدريجي ضرورة، حتى لا يختلّ توازن الحياة، فيؤدي إلى نتائج عكسية.

وبعد.. فهل تكون هذه المبادئ نبراسًا لنا في قضية تعليم وتكوين الناشئة، ونحن

نواجه تكتلات بين أجناس شتى، لغاتها ليست واحدة ومذاهبها ليست واحدة وأجناسها ليست واحدة؟، وهل تكون أمتنا آخر أمم الأرض سماعًا للنصح، واستجابة لنداء المصالح، وتلبية لأمر الله بوحدة المسلمين، ونبذ أسباب التفرقة والعنصرية؟ خاصة ونحن نواجه تحديات تستهدف الدين والهوية والمستقبل والمصير. وبالله تعالى التوفيق..

الخاتمة

وهذه دراسة عن مبادئ الإصلاح التربوي عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، حاولت فيها قدر جهدي أن أضع تصورا متكاملا لهذه القضية.. فإن وفَّت الدراسة بالمطلوب فبها ونعمت وإني لفرح مسرور، والفضل في ذلك يرجع إلى توفيق الله تعالى، وإن كان من قصور أو تقصير فهو مني، وكما أن كثيرا ما تكون أدوات التوصيل معيبة وغير جيدة، فكذلك نحن البشر عندما نتعرض لبعض القضايا.

وفي النهاية تبقى رؤية النورسي كنموذج ومثال لمتطلبات التجديد في القرن الواحد والعشرين، وهى رؤية تجمع بين الوعي والإدراك لحقائق الوحي الشريف المعصوم، وبين متطلبات الحياة المدنية من منجزات العلم الحديث فلا تقع في الشراك الخادعة ولا ينطلي عليها البريق المزيف، وإنما تأخذ من مدنية الغرب أشياءها وتستفيد بما أنجزته دون أن تفقد هُويتها وأصالتها، ودون أن تتأثر بموجات المسخ والتشويه التي عادة ما تصحب الاستفادة من مبتكرات العلم ومنجزات الحضارة. وهكذا يلتمس النورسي من أنوار التوحيد خيوطًا مضيئة، تكشف طريق الحق وتيسر سبل الهداية للسالكين، وترسم أمام المربين ملامح منهج فريد في التربية والتعليم، يمزج بين جمال الصنعة ودقة الصانع، ويضع القسمات المشرقة لنوع من التربية لا يترك مجالاً من المجالات إلا ويوظف كل ما فيه لخدمة خط التوحيد كأساس ومنطلق للتربية والتعليم وصياغة الإنسان. وتلك نقلة فكرية وحضارية في آن معًا، تربط في تناسق فريد من المنظومة الكونية والمنظومة الإنسانية وبين مفرداتها لتبدو الذات أو الأنا ضئيلة ضعيفة عاجزة تسلم لخالقها وصانعها ومبدعها، فتسلم بالركون إليه والاستسلام في كنفه من سلبيات التمركز حول الذات، والتمركز حول الهوية، وبذلك تسلم في عقلها ووجدانها من الشذوذ في الفكر والعلة في السلوك. وهكذا يعيش العظماء ويحيون رغم الممات، ويخلدون رغم تحلل الأجساد. وإذا كان الأموات الذين لا يسمعون في مجتمعات المسلمين يحاولون قتل الأحياء والقضاء على فكرهم الفوار بالحيوية والحركة، إلا أن

الأفكار المستمدة من كلمات الله تستعصي على الفناء وسيبقى سعيد النورسي تسعد بكلماته الأجيال، وتستضيء بفكره الأمة، فتستمد منه طهارة النفس من الإثم، وطهارة العقل من الخرافة، وطهارة القلب مما سوى الله.[52]

وهكذا يظل بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله) واحدا ممن يعتز بهم التاريخ الإسلامي، ويفتخر بهم كل مَن يحب التعليم الذي يضمن النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة..

وفي النهاية أرجو الله تعالى أن يتقبل منى هذه الدراسة وأن يدخلها برحمته في الكلم الطيب والعمل الصالح، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصل اللهم علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾. النمل:١٩

وبالله تعالى التوفيق...

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١. إبراهيم أبو محمد: من قضايا التحديات في القرن الواحد والعشرين (التعليم في ضوء فكر النورسي) القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ٢٠٠٠م.

٢. إبراهيم جانان: القضايا الأساسية للعالم الإسلامي وطرق حلها في نظر بديع الزمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية)، السنة الأولى، يوليو ٢٠١٠م، العدد الثاني، تصدرها مؤسسة إستنابول للثقافة والعلوم، إستنابول – تركيا.

٣. إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، الطبعة الثانية، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٩٩٨م.

٤. أحمد بهجت: سعيد النورسي.. الرجل والدور، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي.

٥. أحمد عبد الرحيم السايح: الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي.

٦. أحمد علي سليمان: التعليم للحياة في الفكر التربوي، القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر ٢٠١٦م

٧. أديب إبراهيم الدباغ: هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، المنعقد خلال الفترة من ٢٧-٢٩سبتمبر ١٩٩٢م بإسطنبول، نشر: دار سوزلر، القاهرة، ١٩٩٣م.

٨. بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٩. بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٢) اللمعات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٠. بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٢) المكتوبات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١١. بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٤) الشعاعات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٢. بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

١٣. جون أوبرت وول: حركة التجديد والإصلاح في أواسط القرن العشرين، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية)، السنة الأولى، يوليو ٢٠١٠م، العدد الثاني، تصدرها مؤسسة إستنابول للثقافة والعلوم، إستنابول تركيا.

١٤. ذكريات عن سعيد النورسي: ترجمة: أسيد إحسان قاسم، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٧م.

١٥. سعيد محمد القرني: المنهج التربوي عند بديع الزمان النورسي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة بين الأديان، كلية التربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، المملكة العربية السعودية ١٩٩٨م.

١٦. عبد الله الطنطاوى.: منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسى، دار العلم دمشق.

١٧. فيصل بن راجح بن رجاء العصلاني: آراء الشيخ عبد الله بن قعود رحمه الله التربوية من خلال مؤلفاته وتطبيقاتها التربوية، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، قسم التربية الإسلامية

والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة: ١٤٣٠هـ

١٨. محمد رشدي عبيد: ملامح تربوية في رسائل النور، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي.

١٩. نهيل علي حسن صالح: المشكلات الاجتماعية ومعالجتها في ضوء كليات رسائل النور للإمام النورسي ومقارنتها بالفكر التربوي المعاصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، في التربية الإسلامية، قسم الدراسات الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك،الأردن، ٢٠١١م.

٢٠. النور للدراسات الحضارية والفكرية

www.nurmajalla.com/bediuzzaman.php

المراجع الأجنبية:

J. Donald Walters. Education for life: Preparing children to meet the challenges. Nevada, USA: Crystal Clarity, publishers, 1997

Renata Nummela Caine. Brain / Mind Learning Principles in action: Developing executive functions of the Human brain. Thousands Oaks, CA: Corwin Press. 2009.

* * *

الهوامش:

[1] عضو المكتب الفني بالهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد، جمهورية مصر العربية.

[2] عندما قام الاتحاد السوفيتي (السابق) بإطلاق القمر الصناعي سبوتنيك Sputnik في الفضاء عام ١٩٥٧م، حدثت انتفاضة في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل إصلاح منظومة التربية والتعليم؛ للحفاظ على هيبة الأمريكان ومكانة الولايات المتحدة الأمريكية، حتى ظهر تقرير ''أمة في خطر'': A Nation at Risk عام ١٩٨٣م الذي أعدته لجنة مكونة من ثمانية عشر عضوا يمثلون: الحكومة، والقطاع الخاص، والتربويين في أمريكا. ويعد هذا التقرير أهم وثيقة عن إصلاح التعليم في الولايات المتحدة خلال العقود الماضية. ويؤكد أن مشكلات الأمة الأمريكية في التربية والتعليم ترجع بالدرجة الأولى إلى: انخفاض المستويات الأكاديمية للطلاب، وإلى تدني نوعية التعليم، وأشار أيضا بأصابع الاتهام للمعلم نفسه.. كما اعتبر أن قضية تطوير التعليم والنهوض به تقع في صلب الأمن الوطني الأمريكي. راجع أحمد علي سليمان: التعليم للحياة في الفكر التربوي، القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر، ٢٠١٦م، ص ٧-١٠.

[3] أديب إبراهيم الدباغ: هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي)، المنعقد خلال الفترة من ٢٧-٢٩سبتمبر ١٩٩٢م بإسطنبول، نشر: دار سوزلر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٢.

[4] أحمد عبد الرحيم السايح: الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي)، ٢٧-٢٩سبتمبر ١٩٩٢م بإسطنبول، نشر: دار سوزلر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٥٨-٥٩.

[5] وهو الذي يهتم بجمع الحقائق والمعلومات من خلال دراسة الوثائق والسجلات والآثار، ويستخدم في دراسة الظواهر والأحداث والمواقف التي مضى عليها زمن طويل أو قصير؛ ومن ثم فهو مرتبط بدراسة الماضي وأحداثه؛ من أجل الإفادة منه في فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. راجع ذوقان عبيدات، وعبد الرحمن عدس، وكايد عبد الحق: البحث العلمي: مفهومه وأدواته وأساليبه، ط١٢، الأردن - عمّان: دار الفكر، ٢٠١٠م، ص١٦٦.

[6] التتبع والاستقراء معناه تتبع الجزئيات لأجل الخلوص إلى الكليات وهي غير التتبع والاستقراء بمعنى:

''عملية انتخاب واختيار دقيق من قِبل الباحث، يقوم على جمع الأمثلة والنصوص، وتصنيفها حسب الموضوعات التي سيتناولها في بحثه''، والذي أشر إليه شوقي ضيف: البحث الأدبي: طبيعته، ومناهجه، وأصوله، ط ٨، القاهرة: دار المعارف (د ت)، ص ٣٧.

[7] سعيد محمد القرني: المنهج التربوي عند بديع الزمان النورسي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة بين الأديان، كلية التربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، المملكة العربية السعودية ١٩٩٨م.

[8] إبراهيم أبو محمد: من قضايا التحديات في القرن الواحد والعشرين (التعليم في ضوء فكر النورسي)، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ٢٠٠٠م.

[9] نهيل علي حسن صالح: المشكلات الاجتماعية ومعالجتها في ضوء كليات رسائل النور للإمام النورسي ومقارنتها بالفكر التربوي المعاصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، في التربية الإسلامية، قسم الدراسات الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك،الأردن، ٢٠١١م.

[10] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٣٥.

[11] أحمد بهجت: سعيد النورسي.. الرجل والدور، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي)، (مرجع سابق)، ص ٤١. سيرة ذاتية، ص ٣٥.

[12] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، (مرجع سابق)، ص ٣٥.

[13] المرجع السابق، ص ٤٥.

[14] إبراهيم جانان: القضايا الأساسية للعالم الإسلامي وطرق حلها في نظر بديع الزمان، مجلة النور: السنة الأولى، يوليو ٢٠١٠م، العدد الثاني، تصدرها مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، إسطنبول -تركيا، ص ٢٧-٢٨.

[15] وليم جلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م) تقلد مناصب وزارية متعددة، تعمق في دراسة الدين فكان مؤلفه الأول (الدولة وعلاقتها بالكنيسة). عيّن رئيسًا للوزراء أربع مرات. ألغى الكنيسة الأيرلندية. (باختصار عن: الموسوعة العربية الميسرة).

[16] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، (مرجع سابق)، ص ٦٦.

[17] وله مقولته المشهورة في ذلك إذ يقول: ''ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الكونية الحديثة، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك''..

[18] ما كان الأستاذ سعيد النورسي يُساق من منفى إلى آخر، ويُزج في السجون والمعتقلات في عدد من ولايات تركيا طوال ربع قرن من الزمن، إلاّ ويقيض الله من يستنسخ هذه الرسائل وينشر هذا الفيض الإيماني حتى أيقظت روح الإيمان الراكدة لدى أهل الإيمان وأرستها على دعائم علمية ومنطقية في غاية البلاغة بحيث يفهمه العوام ويتزود منه الخواص..

[19] راجع: النور للدراسات الحضارية والفكرية www.nurmajalla.com/bediuzzaman.php

[20] جون أوبرت وول: حركة التجديد والإصلاح في أواسط القرن العشرين، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة الأولى، يوليو ٢٠١٠م، العدد الثاني، تصدرها مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، إسطنبول - تركيا، ص ٩-١٠.

[21] ذكريات عن سعيد النورسي: ترجمة: أسيد إحسان قاسم، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٧م، ص ١١ - ١٢.

[22] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٩) سيرة ذاتية، (مرجع سابق)، ص: ٤٧٨ - ٤٧٩

[23] راجع: النور للدراسات الحضارية والفكرية www.nurmajalla.com/bediuzzaman.php

[24] سيرة ذاتية (مرجع سابق)، ص: ٤٨٥.

[25] إبراهيم أبو محمد: من قضايا التحديات في القرن الواحد والعشرين (التعليم في ضوء فكر النورسي)، (مرجع سابق)، ص ٢٢-٢٦، وانظر: بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٤) الشعاعات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٩٤ وما بعدها.

[26] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات، (مرجع سابق)، ص ٨٥٦. وراجع من أقوال النورسي بموقع دار السنابل الذهبية http://www.sanabilzahabiya.com/men.html تاريخ الاطلاع على الوثيقة ١٣ فبراير ٢٠١٦م.

[27] عبد الله الطنطاوى: منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسى، دار العلم دمشق، ص ٦٣.

[28] إبراهيم أبو محمد: من قضايا التحديات في القرن الواحد والعشرين (التعليم في ضوء فكر النورسي)، (مرجع سابق)، ص ٢٢-٢٦.

[29] جون أوبرت وول: حركة التجديد والإصلاح في أواسط القرن العشرين، (مرجع سابق)، ص ٩-١٠.

[30] إبراهيم جانان: القضايا الأساسية للعالم الإسلامي وطرق حلها في نظر بديع الزمان، (مرجع سابق)، ص ٢٨-٢٩.

[31] المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

[32] نفسه، ص ٢٩-٣١.

[33] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات، (مرجع سابق)، ص ٢٩٢.

[34] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٢) المكتوبات (مرجع سابق) المكتوب السادس والعشرون، ص٤١٨.

[35] إبراهيم جانان: القضايا الأساسية للعالم الإسلامي وطرق حلها في نظر بديع الزمان، (مرجع سابق)، ص ٣٢-٣٤.

[36] إبراهيم جانان: القضايا الأساسية للعالم الإسلامي وطرق حلها في نظر بديع الزمان، (مرجع سابق)، ص ٣١.

[37] محمد رشدي عبيد: ملامح تربوية في رسائل النور، بحث منشور ضمن كتاب: (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، المنعقد خلال الفترة من ٢٧-٢٩سبتمبر ١٩٩٢م بإسطنبول، نشر: دار سوزلر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٨٤.

[38] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات، (مرجع سابق) الكلمة الرابعة والعشرون، ص: ٤١٠.

[39] محمد رشدي عبيد: ملامح تربوية في رسائل النور، (مرجع سابق)، ص ٨٧-٨٨.

[40] المرجع السابق، ص ٨٨ -٩٢.

[41] جون أوبرت وول: حركة التجديد والإصلاح في أواسط القرن العشرين، (مرجع سابق)، ص ١٧-١٨.

[42] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٤) الشعاعات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الشعاع الخامس عشر، ص: ٦٥٠.

[43] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات، (مرجع سابق) ص ٨٦٤.

[44] محمد رشدي عبيد: ملامح تربوية في رسائل النور، (مرجع سابق)، ص ٨٥-٨٧.

[45] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٤) الشعاعات، (مرجع سابق)، الشعاع الحادي عشر، ص: ٢٦٠

[46] J. Donald Walters. Education for life: Preparing children to meet the challenges. Nevada, USA: Crystal Clarity, publishers, 1997, pp. 7,8

[47] J.Donald Walters, op.cit, p. 10

[48] Renata Nummela Caine. Brain / Mind Learning Principles in action: Developing executive functions of the Human brain. Thousands Oaks, CA: Corwin Press. 2009, p. 9

[49] راجع: بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، (مرجع سابق)، ص: ٢٤٣، بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، (مرجع سابق)، المكتوب الثامن والعشرون، ص:٤٨٧.

[50] محمد رشدي عبيد: ملامح تربوية في رسائل النور، (مرجع سابق)، ص ٩٤.

[51] بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (٢) اللمعات، الطبعة الثانية، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، اللمعة الرابعة والعشرون، ص: ٣٠٦.

[52] الدكتور إبراهيم أبو محمد (مرجع سابق) ص ٢٢ وما بعدها.

ملف العدد

بعض قضايا الفكر الإسلامي في رسائل النور

العمل بإيجابية الأسس والعوائق
– دراسة في رسائل النور –

–ABSTRACT–

Action According to Positive Principles and Obstacles to Study in the Risale-i Nur

Prof. Dr. 'Aziz Muhammad 'Idman

This scientific approach aims at providing a comprehensive perception of the concept of positive action in The Risale i-Nur, by researching its terminology, foundations and barriers.. Positive action is spiritual pleasure and eternal happiness resting upon faith, sincerity, conviction, coexistence with others, and humility. The term "positive action", from Nursi's perspective, is based on a number of principles and elements attributed to it such as honesty, the foundation of work and its essence, and the service of Quran as a great honorable duty.

The research also addresses the barriers to positive action such as envy, arrogance, laxity in religion, disagreement and discord, as well as other serious problems resident in human communities.

Nursi, not only reviews the reality he experienced with all its sufferings and aspirations; but he also presents a remedy for some of these chronic problems, guided by his experience in da'wa (preaching) and reform - to offer a bright model fit to resolve dilemmas of the contemporary world.

– ملخص البحث –

أ.د. عزيز محمد عدمان[1]

من مقاصد هذه المقاربة العلمية تقديم تصور شامل لمفهوم العمل الإيجابيّ في كليات رسائل النور من خلال البحث في اصطلاحه، وأسسه، وعوائقه. والمتأمل في رسائل النور يجد أن بديع الزمان سعيد النورسيّ قارب هذا الاصطلاح في تجلياته المختلفة، وتشعباته المعرفية المتشابكة. فالعمل الإيجابيّ لذة روحية، وسعادة أبدية قائمة على الإيمان، والإخلاص والقناعة، والتعايش مع الآخر، والتواضع. وقد استند

هذا الاصطلاح إلى مجموعة من الأسس والمقومات التي شُدَّتْ إليه كالإخلاص وهو مِلاك العمل وقِوامه وعمدته، والخدمة القرآنية باعتبارها وظيفة شريفة جليلة.

كما عالج البحث عوائق العمل الإيجابيّ وسلبياته كالإسراف، والحسد، والكِبر، والمتاجرة بالدّين والاختلاف والخلاف وغيرها من الأمراض الفتّاكة بالمجتمعات البشرية.

ولم يكتفِ النورسيّ بمعاينة الواقع الذي عايش آلامه وآماله؛ وإنما قدّم العلاج الشافي لبعض هذه العلل المزمنة؛ مسترشداً بخبرته الدعوية، وتجربته الإصلاحية؛ ليقدّم نموذجاً مشرقاً يصلح لحل معضلات العالم المعاصر.

مقدمة:

لقد ارتبط مفهوم العمل الإيجابيّ البنّاء عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسيّ بالخدمة القرآنية باعتبارها أداةً للسمو الروحيّ في زمن كثر فيه التدمير، والتفجير، والتكفير. فالبناء المعنويّ هو مسلك إيجابيّ؛ لأنه يعصم المؤمن عن الفتك بالآخرين؛ فهو قيد عن الانفلات من الكمالات الروحية.

والمتأمل في رسائل النور يلفي أن بديع الزمان النورسي تحدث عن العمل في رسائله وهي: اللمعات، والمثنوي العربيّ النوريّ، والملاحق، والكلمات في مواضع متفرقة من الكليات.

وهو حديث نابع من تجربة شخصية في مجال الدعوة الإسلامية لمدة تزيد عن ثمانية وعشرين عامًا؛ وهي فترة عمرية كافية لوضع تصور شامل لمشكلات الأمة، وتشخيص أمراضها، واقتراح العلاج المناسب لهذه الآفات. فما هي مسوغات اختيار النورسيّ للعمل مسلكاً لمعاينة واقع الأمة؟ ولِمَ قيّد العمل بالإيجابية والبناء؟ وهل هناك عمل غير إيجابيّ في مجال الدعوة الإسلامية؟ وما هي الموانع التي تحول دون بلوغ مرتبة الارتقاء المعنويّ والروحيّ؟ وهل يمكن للعمل الإيجابيّ من منظور النورسيّ أن يكون المخرَج المناسب لمشكلات العالم المعاصر؟

أولاً: العمل متعة، ولذة بيولوجية، وسعادة روحية:

انطلق الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسيّ -رحمه الله- في تقرير مشروعية العمل

من رؤية بيولوجية تنمّ عن فلسفة قرآنية عميقة استند فيها إلى نصوص الوحي دون أن يذكر ذلك صراحة؛ ولعل الإشارة أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع في النفس من التصريح؛ وهو يستلهم النص القرآنيّ في تجسيد فكرته؛ منطلقاً من قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات: ٢١.

فالعملُ قبل أن يكون قوة إنجازية في مجال من المجالات؛ فهو وقفة مع الذات في لحظة تأمل واعية مبصرة يستبطن العامل ذاته للقيام بهذه العبادة الطوعية التي تمتزج بمحبة قلبية، وشوق يفضي إلى سعادة أبدية.

ولعل من ثمار العمل الإيجابيّ الشعور بالأريحية، والسعادة النفسية؛ ولهذا لفت النورسيّ نظر الخامل السلبيّ إلى هذه النتائج المرتبة عن العمل فقال مخاطباً: " يا من لا يدرك مدى اللذة والسعادة في السعي والعمل.. أيها الكسلان! اعلم أن الحق تبارك وتعالى قد أدرج لكمال كرمه جزاء الخدمة في الخدمة نفسها، وأدمج ثوابَ العمل في العمل نفسه. ولأجل هذا كانت الموجودات قاطبة بما فيها الجمادات –من زاوية نظر معينة- تمتثل الأوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند أدائها لوظائفها الخاصة بها والتي تطلق عليها " الأوامر التكوينية".[2]

إن المكافأة على الخدمة نابعة من العمل ذاته؛ ذلك أن المتعة واللذة الحاصلة من المكابدة هي الجزاء الأوفى؛ لأن الباعث على العمل هو الامتثال لأمر المولى تبارك وتعالى؛ ومن ثم فالطاعة طوعية لا إكراه فيها؛ بل إن الإقبال عليها بلذة، ومحبة هو واجب الامتثال لطبيعة الوظيفة ذاتها.

ولا جرم أن أداء المهمة، والوظيفة والانقياد للآمر هو قمة الإحسان الروحيّ والترقي المعنويّ في مراتب العرفان والإقرار بالفضل للمنعِم؛ وأكبر الظن أن التأمل الجاد في الخِلقة البشرية مدعاة لحصول هذه المتعة الروحية؛ وقد أشار سيد قطب -رحمه الله- إلى ثمرة العمل الإيجابيّ في توجيه قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات:٢١ قائلا: "إنّ القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقاً جديداً، بحس جديد؛ ويمتعه بحياة جديدة، ويهبه متاعاً لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع. (...) والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد، وهو الذي يهيئ له هذا المتاع العلوي. وهو بعد في الأرض في عالم الطين".[3]

وبتأمل حصيف، وإدراك لطيف لمخلوقات الكون نجد أن العمل البنّاء يتجاوز

حدود البشر إلى: ''كل شيء ابتداءً من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كلٌّ منها يسعى بلذة تامة في أداء مهماتها''.[4]

ولتعميق أثر العمل الإيجابيّ في حصول الأريحية لدى الإنسان والسعادة الأخروية يرى النورسيّ -رحمه الله- أنّ الإخلال بأداء الوظائف البيولوجية والروحية يفضي إلى ألم وحسرة؛ بيان ذلك أن العضو الذي يتقاعس عن أداء واجب النعمة، وفريضة الإحسان وولاء الطاعة للمنعِم يكون قد حرم اللذة المرجوة من العمل ذاته. وفي هذا السياق يدعو إلى وقفة تأمل وتدبر، وإجالة فكر مع خِلقة الإنسان قائلا: ''تأمل في وظائف أعضائك وحواسّك، ترَ أنّ كلاً منها يجد لذائذ متنوعة أثناء قيامه بمهامه -في سبيل بقاء الشخص أو النوع- فالخدمة نفسها، والوظيفةُ عينها تكون بمثابة ضربٍ من التلذذ والمتعة بالنسبة لها، بل يكون ترك الوظيفة والعمل عذاباً مؤلماً لذلك العضو''.[5]

لا ريب أن مفهوم العمل الذي يطرحه النورسيّ -رحمه الله- يتجاوز المفهوم النمطيّ السائد في الثقافة الإنسانية إلى رؤية تجعل من اقتران الوظيفة الروحية بالوظيفة الجسمانية بدافع الإيمان مصدر السعادة واللذة؛ لأن أداء الوظائف ضمن الحقيقة النورانية هو تجسيد للفطرة الإنسانية التي جُبلت على حب البقاء، والكمال، والسلامة.

فقد قيّد النورسيّ العمل الإيجابيّ بمتعة أبدية سرمدية؛ وهي لذة نابعة من دستور إلهيّ، وسُنة كونية؛ ولعل في الاقتداء بهذه السنن والامتثال لدساتير الخالق ما يكفي للتدليل على أن المؤمن إيجابيّ بحكم نص الدستور الإلهيّ: ''المستريح العاطل شاكٍ من عمره والساعي المجدّ شاكرٌ''.[6]

فالموازنة العادلة تقتضي أن الراحة الجسدية نتاج شخصية سلبية عطّلت مداركها، واستسلمت لشهوة عابرة وافتنان لحظيّ بمباهج الحياة الدنيا؛ في مقابل شخصية إيجابية فاعلة شاكرة حامدة للمنعِم المتفضل عليها بوظائف مفضية إلى راحة كبرى.

ويعلّل النورسيّ لهذه الموازنة بين العاطل، والفاعل في مشارب الحياة من منطلق الوظيفة الإيمانية التي هي مصدر اللذة، ومحرّك الإقبال على أداء رسالة العبادة والتوحيد.

يقول بديع الزمان سعيد النورسيّ: ''يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة أشقى حالاً وأضيق صدراً من السّاعي المجدّ؛ ذلك لأن العاطل يكون شاكياً من

عمره، يريد أن يمضي بسرعة في اللهو والمرح. بينما الساعي المجدّ شاكرٌ لله وحامدٌ له، لا يريد أن يُمضيَ عمرَه سدًى".[7]

فالسعي نحو العمل الإيجابيّ؛ رغبة في لذة منتظرة، وسعادة مرتقبة حاصل من وعي تام وإدراك كامل بطبيعة الوظيفة المسندة للإنسان؛ ولهذا تبدو حياة الساعي المثابر طويلة تحرّكها الرغبة في المزيد من اللذائذ الروحية؛ بينما حياة العاطل حياة سلبية قصيرة تفتقر إلى وهج الدافعية، وحرارة الإنجاز.

وإذا كانت المتعة الحسية والمعنوية هي الدافع للارتقاء في مدارج السالكين طريق الحق؛ فإن العمل الإيجابيّ هو امتثال لأمر الله، وخضوع لطاعته. فالإقرار بنعمة البصر، ومتعة الإبصار هو العبادة السامية، والاعتراف بفضل الجليل القدير. فاللذة لا تحصل عفو الخاطر؛ وإنما بالنظر العميق الذي يفضي إلى إدراك وظيفة الإنسان في الكون؛ ومن ثم فَ: "إنّ الفاطر الحكيم يدرج دساتير الكتاب المبين وأحكامه دَرجاً في غاية الجمال، ويُجمِلُها في غاية الاختصار، ضمن لذةٍ خاصة لذلك الشيء، وفي ثنايا حاجة مخصوصة له. فإذا ما عمل الشيء وفق تلك اللذة الخاصة والحاجة المخصوصة، فإنّه يمتثل -من حيث لا يشعر- أحكام ذلك الكتاب المبين".[8]

فالقانون الربانيّ هو خلاصة لعمل إيجابيّ بنّاء تحرّكه الحاجة لبلوغ السعادة واللذة المرجوة؛ وبعبارة أكثر بياناً؛ فإن: الصلاة إنجاز روحيّ يستوجبه الحكم الشرعيّ الملزم لأداء هذه الشعيرة على أحسن وجه وأتم صورة لتحصل المتعة.

والمستقرئ لبعض رسائل النور التي تناولت مفهوم العمل الإيجابيّ يجد أن النورسيّ لم يحدّد تحديداً دقيقاً هذا الاصطلاح؛ وهذا ليس قصوراً منهجياً -كما قد يتصور البعض-؛ وإنما لِعظم العمل في بناء الحضارات الإنسانية من جهة، ومركزيته في سعادة البشر من جهة أخرى؛ فقد تداخل هذا المفهوم بجملة من المفاهيم التي تؤلف بنية اصطلاحية متكاملة. فالعمل الإيجابيّ إخلاص، وعدالة، وقناعة، وتقوى، وبناء، ولذة روحية، واحترام الآخر، وغيرها من القيم الإيجابية الفاعلة والمثمرة.

ولئن ارتبط العمل الإيجابيّ بنسيج متداخل من المعاني، والدلالات إلا أنه ينصهر في بوتقة الإيمان الذي يتحلى به المؤمن من خلال الامتثال لأوامر الله تعالى لبلوغ مقام اللذة الروحية، والاستقرار الداخليّ.

ثانياً: أسس العمل الإيجابيّ:

تعددت أسس العمل الإيجابيّ ومقوماته بتعدد مشارب الحياة، والناظر في كليات رسائل النور يقف على جملة من الركائز التي تشدّ عضد العمل المنتِج؛ وإن كانت كثيرة إلا أن النورسيّ -رحمه الله- راعى في ترتيبها سلم الخدمة القرآنية التي توجّه أعمال الإنسان؛ ومن أبرز هذه الأسس:

الإخلاص:

لا يستطيع عارف بصير بمشكلات الأمة العربية والإسلامية في مجال الدعوة أن يقفز على هذه الحقيقة التي لامسها النورسيّ في مراحل حياته المثقلة بالآلام والآمال، وما كان يعتري أصحابه من فتور الهمّة، وحديث النفس، وتلبيس إبليس. فَلِمَ قيّد العمل الإيجابيّ بالإخلاص؟ وهل الإخلاص ثمرة أم وسيلة لبلوغ درجة الصفاء الروحي والطهر المعنويّ؟

كثيرة هي الشوائب التي تمتزج بالعمل، وتختلط به اختلاطاً عجيباً لدرجة من التسويغ والتعليل؛ فهل يكفي الإخلاص لتخليص العمل مما يكدر صفوه؟

يعرّف أبو حامد الغزاليّ الإخلاص بقوله: "الإخلاص: ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع المقاصد".[9] وقد يكون من المناسب الوقوف عند هذا المفهوم؛ لأنه يعكس حقيقتين:

حديث النفس، وتلبيس إبليس مما يمنع من بلوغ درجة الاستتار؛ ومن ثم يفقد العمل إيجابيته؛ ولهذا يرى الغزاليّ أن الاهتداء إلى صفاء الروح مسلك دونه عقبات؛ وهي حقيقة نفسية لا مناص من الإقرار بسلطتها وهيمنتها على السلوك البشريّ؛ ومن ثم يرى الغزاليّ أن: "الإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإنْ بالغ في الاحتياط".[10]

كثرة العلائق مفضية إلى العوائق.

فقيمة العمل في صفائه وخلوصه من الشوائب، والأكدار؛ ولا عبرة بكثرة الأعمال ما لم تكن خالصة لوجه الكريم؛ كما يرى النورسيّ؛ لأن: "ذرة من عمل خالص أفضل عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة. فالذي يجعل الإنسان يحرز الإخلاص هو تفكّره في أن الدافع إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجته كسب رضاه وحده، ثم عدم تدخله في الشؤون الإلهية".[11]

إن الاحتياط من الوقوع في مصيدة الافتنان بالنفس هو التأمل الجاد في البواعث التي تحرك الرغبة في القيام بعمل من الأعمال؛ وبالحرص والمراقبة يرقى الإنسان إلى ذرة من الإخلاص. وأغلب الظن أنّ في انتقاء النورسيّ لهذه الفلسفة الكميّة (ذرة-أطنان) ما يعزز وعورة مسلك الإخلاص، ويجسد دقة مأخذه، وصعوبة ملتمسه. فما هي مؤشرات معرفة الإخلاص، وعلاماته وتجلياته؟

لقد لامس النورسيّ -رحمه الله- حقيقة الباعث على العمل الإيجابيّ؛ آية ذلك الفائدة المرجوة من العمل، والثمرة المنتظرة هي مؤشر الإخلاص، والاستحواذ بالفضل والانفراد بالعمل هو تحجيم للعمل ذاته، وتقليص لمساحات الاستفادة؛ فالمشاركة الجماعية في إسعاد البشرية هي ترجمة عمليةٌ للإخلاص. يقول النورسي: ''إنّ الإخلاص في العمل ونشدان الحق فيه إنّما يُعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامةً أيّا كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر. وإلاّ فحصر النظر بأن يؤخذ الدرس والإرشاد مني فقط لأفوز بالثواب الأخروي هو حيلة النفس وخديعة الأنانية''.[12]

وظاهر من هذا النص الواقعيّ أن الخدمة الإنسانية ليست موقوفة على فرد بعينه؛ وإنما هي مبادرة جماعية بغض النظر عن مصدرها، وموقع صاحبها الدينيّ والاجتماعيّ ما دامت الفائدة حاصلة.

والناظر في مجال الدعوة الإسلامية المعاصرة يجد ما يزكي رأي النورسيّ في كثرة ظهور الزعامات، وعشق الاستحواذ على أعمال مشوبة بالرياء؛ رغبة في كثرة المريدين والأنصار والأتباع. وفي لجة هذه الأمراض النفسية، والحيل الشيطانية يتوارى الباعث الجوهريّ على العمل، وتختفي الرغبة الصادقة في خدمة المسلمين. فهل من مقتضيات العمل الإيجابيّ متعة الظهور ولذة الاستيلاء على رضا الناس؟ وهل العمل الخالص موقوف على فرد بعينه دون الآخرين؟

إن الافتقار إلى الله تعالى موجب لدرجة عالية من الاحتياط في الوقوع في مكر الأنانية، وحبال النفس ومصائدها؛ ولأن النورسيّ كان عاشقاً لله تعالى، حيث ذاق حلاوة القرب والأنس، وشاهد لأنه جاهد؛ فقد سَلكَ مسلك العارفين في التثبت من سُبل الصفاء؛ وتحري الحقيقة العرفانية؛ وهو المسلك ذاته الذي عبّر عنه الغزاليّ بقوله: ''فإن الباعث للأكثر على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار

بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال على الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ''.[13]

لا مناص لنا من الإقرار بهذه الحقيقة الناصعة في مجال العمل الإسلاميّ؛ ولعل كثر الجذل والحبور والأريحية بأعمال مشوبة برغبات دنيوية فانية هو الذي كدّر العمل، وأفقده إيجابيته وفعاليته في العالم الإسلاميّ.

فكلما نأى المرء بنفسه عما جبُل عليه من حب الظهور والاستحواذ والاستيلاء كان إلى العمل الإيجابيّ أقرب وبه ألصق؛ ولا يستطيع الإنسان أن يتخلص مما جُبل عليه من حب الرياسة إلا بنقاء السريرة؛ برهان هذا التعلق الدنيويّ بحظوظ النفس ومكاسبها العاجلة ما عبّر عنه الإمام الشاطبيّ -رحمه الله- (٧٩٠هـ): ''فإن في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة؛ إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم، والحوز له، ومحبةُ الاستيلاء قد جُبلت عليها النفوس ومُيِّلت إليها القلوب''.[14]

فاللذة المعنوية نتيجة طبيعية للتعبير عن هذا التعلق النفسيّ باكتشاف المجهول؛ إلا أن توجيه هذه اللذات لخدمة المسلمين دون رياء أو مقابل ماديّ هو العمل الإيجابيّ؛ ولهذا ورد في الحديث الشريف: ''قال رسول الله ﷺ: من تعلم علماً ممّا يُبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلاّ ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرف الجنّة يوم القيامة''.[15]

وقد عبّر النورسي عن هذه الفطرة المشروعة لدى الإنسان، والميل الطبيعيّ إلى دفع ألم القهر والسعي إلى إنجاز عمل إيجابيّ يتغلب به المؤمن على هذه الهواجس الشيطانية، والأطماع الدنيوية، وتحويلها إلى طاقة روحية منتجة فقال: ''أحاسيس الإنسان المادية وهي أحاسيس مطموسة تعجبها اللذة العاجلة، فتفضّل ثمرة حاضرة على روضة آجلة من رياض الجنة الباقية، لهذا لا يسأل طلاب النور الأذواق الروحانية والكشفيات المعنوية في الدنيا. فلا تستغل النفس الأمّارة هذه الحالة الفطرية في الإنسان''.[16]

وبمنطق الشرع والعقل فإن لذة روحية باقية أشهى من لذة عابرة لحظية تنقضي بانقضاء أسبابها ومقدماتها؛ إلا أن الشهوة الخفية، والهواجس المستترة في لاوعي الإنسان هي التي ترجّح المتعة الزائلة على حياة باقية سرمدية؛ وبين العاجل والآجل صراع أبديّ.

المشاركة في الأعمال الأخروية:

ينقل النورسيّ مفهوم العمل الإيجابيّ نقلة نوعية بعد أساس الإخلاص؛ ويَعدّه من الإمداد المعنويّ القائم على الإيمان والوفاء؛ فيرى أن الدعاء هو مشاركة روحية ومعنوية بعد أن كان امتثالاً لأوامر تكوينية أضحى مدداً روحياً وسنداً معنوياً. يقول النورسيّ -رحمه الله-: ''فإن أعظم قوة لدينا -بعد قوة الإخلاص- هي قوة ''الاشتراك في الأعمال الأخروية'' إذ يكتب كل منكم في دفتر أعمال آخرته حسنات كثيرة مثلما يرسل بلسانه الإمداد والعون إلى قلعة التقوى وخنادقها''.[17]

فالعمل الإيجابيّ يتجاوز إطار جهد الفرد إلى مشاركة في عمل أخرويّ قوامه الدعاء للآخرين؛ وقد أيقن النورسيّ بأن هذا السلاح هو سلاح بناء الأرواح، وحمايتها من التدمير والانهزامية.

العمل الإيجابيّ خدمة قرآنية مقدّسة:

من أبرز الأسس التي يستند إليها العمل البنّاء في كليات رسائل النور هو الخدمة القرآنية باعتبارها معراجاً لبلوغ المراتب السامية؛ فما هي مراتب هذه الخدمة وأنواعها؟

وصف النورسيّ العمل الإيجابيّ بخدمة قرآنية مقدسة؛ باعتباره رجلاً قرآنياً نشأ في محراب التقوى، وناضل من أجل تجسيد قيم العدالة الإنسانية؛ فهو يرى أن هذه الخدمة شريفة جليلة؛ وأنْ تكونَ خادماً للقرآن يعني من وجوه كثيرة الالتزام بقيم البناء، والتحلي بروح المبادرة في إسعاد الآخرين؛ ولا ينبغي أن تُفهم الخدمة القرآنية بمعزل عن السنة النبوية الشريفة التي هي امتداد وترجمان لهذه الخدمة. وقد قسّمها النورسي إلى ثلاثة أنواع: ''النوع الأول: تهيئة وسائل العمل والخدمة، وسَوق العاملين فيها إلى الخدمة. النوع الثاني: ردّ الموانع من حولها، ودفع الأضرار عنها، وتأديب من يعيق سيرها، بإنزال عقوبات بهم (...) النوع الثالث: هو أنّ العاملين المخلصين في هذه الخدمة القرآنية لما يعتريهم الفتور والإهمال في العمل يأتيهم التحذير والتنبيه فيتلقون لطمة ذات رأفة وعطف، وينتبهون من غفلتهم، ويسرعون بجد للخدمة مرّة أخرى''.[18]

فخدمة القرآن فضاء من الطهر والسموّ الروحيّ، والأخلاقيّ؛ وفي تأكيد النورسيّ هذه الأنواع ما يقوم دليلاً ساطعاً على أن القداسة في العمل لا تنطلق من فراغ أو عدم؛ وإنما هي بيئة صافية فيها من وسائل العمل المشروعة، والنقية ما يفضي إلى

الإخلاص. ولصيانتها من شوائب النفس، وهواجس الهوى لا بد من تخليصها من أكدار الإهمال والتقاعس؛ فهي خدمة شرعية روحية يترتب عن الترهل في القيام بها عقوبات ربانية تأديبية فيها من اللطف الإلهيّ، والإحسان الربانيّ ما يرشد إلى مكمن الإهمال؛ فيسرع العامل المخلص إلى تصحيح مسلكه، والالتزام بمنهج الاستقامة؛ لأن خدمة القرآن سامية كالجواهر تسمو عن السياسات الدنيوية؛ بل إن الخوض في السياسة يفقد الخدمة قداستها وألقها ونفاستها.[19]

التقوى والعمل الصالح:

لعل من مقتضيات العمل الإيجابيّ أن يكون عملاً منتجاً روحياً؛ فلا تكفي الخدمة القرآنية بأنواعها الثلاثة ما لم تكن التقوى رافداً لها؛ وقد مزج النورسيّ بين التقوى والعمل الصالح؛ لتحقيق مقصد الخيرية والطاعة. ''فالتقوى: هي ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات. والعمل الصالح: هو فعل المأمور لكسب الخيرات. ففي هذا الوقت الذي يتسم بالدمار -الأخلاقيّ والروحي- وبإثارة هوى النفس الأمّارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها.. تصبح التقوى أساسًا عظيماً جداً بل ركيزة الأسس، وتكسب أفضلية عظيمة حيث إنها دفع للمفاسد وترك للكبائر''.[20]

إن القراءة المتأنية الهادئة لهذا الأساس تقودنا إلى الاعتراف بأن هذين التعريفين للتقوى والعمل الصالح في غاية التحقيق. بيان ذلك أن التقوى والعمل الصالح في غياب القيم الأخلاقية والروحية، وكثرة الانحرافات والضلالات تغدو أكثر من ضرورة؛ باعتبارها أداة للتقويم والإصلاح والإرشاد. فالمفسدة والكبائر قوتان تدميريتان لقيم الفضيلة، والتقوى طاقة التشييد والبناء التي تحصّن الأمة من الزوال، وتحميها من الاندثار.

فالتقوى فعل إيجابيّ لها قوة الحضور ودفع مخاطر التدمير التي تحدق بالأمم في زمن الفتن والأوهام والمصائب؛ ولعل التقوى هي الطاقة المحرّكة للعمل الصالح التي تشحنه بقيم الاستقامة والانضباط. ولِعِظم التقوى والعمل الصالح يرى الإمام الماورديّ -رحمه الله- (٤٥٠هـ) أنّ: ''أعظم الأمور خطراً وقدْراً، وأعمها نفعًا ورِفدًا، ما استقام به الدين والدنيا، وانتظم به صلاح الآخرة والأولى، لأنّ باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا تتمّ السعادة''.[21]

ثالثاً: عوائق العمل الإيجابيّ:

شخصية بديع الزمان النورسيّ شخصية واقعية تستمد واقعيتها من معاينة دقيقة لتقلبات الأمة العربية والإسلامية؛ فقد كانت حياته بمراحلها القاسية والقاهرة مدعاة للتأمل في مسار العمل الإسلاميّ في مجال الدعوة.

ومن منطلق خبرته الدعوية والفكرية والإصلاحية والجهادية اهتدى إلى جملة من العوائق التي كانت تعترض مسيرة النضال؛ وهي عوائق لا تخلو منها حركة إصلاحية؛ إلا أن النورسي لم يكتف بالمعاينة؛ بل عايش هذه الهموم معايشة فكرية، وخالطها مخالطة وجدانية صادقة من منطلق المعاينة للغاية؛ ليقدم الحلول المناسبة بعد تشخيص حاذق ماهر، ومن أبرز هذه العوائق ما يأتي:

الإسراف:

قد لا نبالغ إذا جنحنا إلى القول بأن: في كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسيّ إشارات وافية لفلسفة اقتصادية متكاملة؛[22] يجد المتأمل فيها رؤية قرآنية عميقة لفلسفة ترشيد الإنفاق الماليّ والاقتصادي. وليس هذا موضع بسط القول فيها، وحسبنا أن نشير إلى علاقة العمل الإيجابيّ بالإسراف الذي يُعدُّ عملاً سلبياً.

ولا مرية في أنّ الحرص يورث أهله الفقر، ويحرم الحريص من نعمة السعادة، ولذة الشكر والقناعة؛ وقد قدّم النورسيّ معالجة اقتصادية تشريحية للإسراف باعتباره آلة تدميرية تغرس في نفس العاطل روح الانهزامية والترهل؛ فقال: "إنّ الإسراف ينتج الحرص، والحرص يؤكّد ثلاث نتائج: أولاها: عدم القناعة. وعدم القناعة هذا يُثني عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به إلى أحضان الكسل (...) النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران. إذ يفوّت مقصود الحريص ويتعرض للاستثقال ويُحرم من التيسير والمعاونة. (...) النتيجة الثالثة: إنّ الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخروي".[23]

إن القراءة الواعية للوضع الاقتصاديّ العالميّ تؤكد أن الإسراف هو منبع الأزمة العالمية التي مست الدول العربية والإسلامية أكثر من غيرها؛ إذ أصبحت نموذجاً للعطالة والبطالة؛ فأفرزت جيلاً من الشباب استكان للكسب غير المشروع، وآنس إلى الكسل الذي قاده إلى التطرف والإرهاب.

فالحرص هو إفراز طبيعيّ لشخصية مريضة لا تقنع بالقليل، وتطمع في المزيد؛

وتستعذب الشكوى، وتتلذذ بألم عدم القناعة؛ وهو المسلك الذي يفضي إلى الكسل والملل والكآبة؛ فيتوقف العاطل عن السعي إلى الرزق الحلال؛ ومن ثم يفتر وهج العقيدة، والإيمان، والاطمئنان إلى القضاء والقدر.

فالعمل الأخرويّ موقوف على القناعة باليسير؛ لأن الإسراف هو تنفيس عن الرغبة الجامحة للاستحواذ والاستيلاء غير المشروع؛ والنفس البشرية مجبولة على حب العاجل. ولقد صدق الشاعر أبو ذؤيب الهذليّ:

''والنفس راغبةٌ إذا رغبتَها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ.''[24]

وفي مقابل الإسراف باعتباره عملاً سلبياً يقترح النورسيّ الاقتصاد -ليس بوصفه تخصصاً معرفياً-؛ وإنما هو وسيلة للكسب المشروع، ومناف للحرص على متاع الدنيا؛ بل إنه يرى في الاقتصاد استقلالية القرار الشخصيّ، وسيادة الإنسان. فكيف يكون الاقتصادُ منتجاً للعزة الإنسانية؟

يقول النورسيّ: ''أمّا الاقتصاد فإنه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، (...) كما أنه يشحذ الشوق والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقاً إلى الكدّ وبذل الجهد فيهما''.[25]

ولا نجانب الصواب إذا قلنا: إن ربط الاقتصاد بالعزة البشرية هو منتهى الأنفة السياسية والفكرية والاقتصادية؛ ذلك أن استعذاب الشكوى بدافع الحرص هو قمة الذلّة، وهوان السؤال، والتبعية؛ فالقناعة بلغة اقتصادية هي مظهر من مظاهر تحرر البشر من عبودية الاستكانة، وسلطة القهر والغلبة.

الحسد والغرور والأنانية (قراءة نفسية تحليلية علاجية):

تناول النورسيّ باستفاضة -بحكم خبرته الدعوية الطويلة- أمراض الحسد والغرور والأنانية؛ وهي من العلل المفسدة لفطرة الإنسان، ونقاء معدنه. فما حقيقة الحسد؟ يعرّف الماورديّ الحسد بقوله: ''شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل، وهو غير المنافسة، (...) لأن المنافسة طلب الشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر عليهم، والحسد مصروف إلى الضرر، لأن غايته أن يعدَم الأفاضل فضلهم''.[26]

يفرّق الماورديّ بين الحسد الذي قِوامه تمني زوال نعمة أصحابها، والمنافسة التي هي مقصد نبيل؛ لأن محرّكها الغبطة في بلوغ مرتبة الأشراف من الناس؛ إلا أن النورسيّ يذكر المنافسة باعتبارها نتيجة من نتائج الحسد؛ بيد أنّ المتأمل في علاجه

لهذه الظاهرة يلفي أنه يقصد المنافسة غير الشريفة. يقول النورسيّ: ''وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون أثراً بعد عين''.[27]

فسلامة العمل من هوى النفس، وسلطان الكبرياء، عماده الإخلاص، والتواضع مع الآخرين، وقبول الرأي الآخر في رحاب المحبة، والأنس، والألفة. وبالحد الأدنى من الانسجام والتوافق تذوب أوهام النفس، وتتوارى الأنانية المقيتة، وحب الظهور، وغلبة الشعور بالتفوق، والاستبشار بالتألق الموهوم.

ولا جرم أن حلبة المنافسة الشريفة النبيلة التي تحرّكها هِمم جليلة، ومكارم جزيلة لا تسمح بطغيان السلطة الفردية والتسلط النفسيّ البغيض. ولعلاج هذه الآفة المزمنة، يقترح النورسيّ تسعة أمور؛ نوجزها فيما يأتي:

''١- العمل الإيجابيّ البنّاء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب (...)

٢- أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام -مهما كان نوعها-(...)

٣- اتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو أنّ صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: ''إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل'' من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين (...)

٤- العلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية (...)

٥- الحفاظ على الحق والعدل بإيجاد شخص معنويّ (...)

٦- ولأجل إنقاذ الحق من صولة الباطل:

٧- ترك غرور النفس وحظوظها.

٨- وترك ما يُتصور خطأً أنّه من العزة والكرامة.

٩- وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة.''[28]

دستور كامل جامع لعلاج آفة الحسد والغرور والأنانية؛ ومنطلق هذا العلاج الشافي هو العمل الإيجابيّ البنّاء؛ لأن الإيجابية بمفهومها الأخلاقيّ والنورانيّ تمنع من بروز هذه الأمراض الفتّاكة؛ وهي في مجملها من أوهام النفس، وتلبيس إبليس. ولعل من الصعوبة بمكان أن تتجسّد معالم هذه النظرية الروحانية في واقع المسلمين اليوم لغياب الشخصية الاعتبارية والمعنوية والروحية التي تقوم مقام النورسيّ. فحبُّ الزعامة، وغياب الأخوة الإسلامية، وعشق التفرد بالرأي الشخصيّ، وجنون لذة الظهور، والتعصّب، والأنانية، وإقصاء الآخر، والخوض في أعراض المؤمنين واحتقارهم، وغيرها من رذائل الصفات تحول دون تحقيق هذا المشروع الإصلاحيّ الجاد.

يقدّم النورسيّ -رحمه الله- تفسيراً مشرقاً لبواعث الحسد ودواعيه، من خلال ملابسات العمل المنجَز في مجال الدعوة الإسلامية؛ فيرى أن حظوظ النفس، وشهواتها في الحسد والغبطة إنما تتجلى عند نهاية الخدمة القرآنية. يقول النورسيّ: "اعلم! أنّ عِرق الرقابة والغبطة والحسد إنّما يتحرك عند أخذ الأجرة وتوزيع المكافأة وملاحظتُها. وأما عند الخدمة وفي وقت العمل فلا، بل الأضعف يحب الأقوى، والأدنى يميل إلى الأعلى، ويستحسن تفوقه عليه، ويحب زيادته في الخدمة عليه؛ لأنه يتخفف عنه ثقلُ الخدمة وكُلفة العمل".[29]

فلِمَ تختفي هواجس النفس الأمّارة بالسوء أثناء العمل؟ وتظهر عند المكافأة؟

إن المشاركة الروحية والأخوية والوجدانية أثناء العمل الصادق تقمع النفس من الحركة؛ بل تحاصرها؛ لأن الجميع انصهر في بوتقة الإيمان، وتحوّل فريق العمل إلى رجل واحد يحمل أعباء العمل؛ فذابت وساوس النفس، واحترقت حبال الغرور بنار المحبة والتقوى. فتغدو نفوس العاملين بريئة من المنافسة غير الشريفة، لأن الخدمة القرآنية جامعة للنفوس؛ إلا أن حركة النفس تظهر عند نهاية العمل، وقد تبدد جو المشاركة الجماعية؛ فعاد كل عامل إلى حظوظه النفسية لينال أُجرة ما قدّم.

غياب الإيمان مانع من بلوغ مرتبة الإحسان الإلهيّ:

يركّز النورسيّ على الإيمان بوصفه وظيفة جليلة شريفة تقوم على الاستمداد والإمداد؛ فيستمد الإنسان إيمانه من الحقيقة النورانية، ويمدّ إيمان إخوانه بعناصر

المتانة والفاعلية. وبين هذين القطبين يبلغ المؤمن درجة الإحسان المنشودة؛ وهي التخلق بالكمالات الإلهية، والتحلي بالنور.

فغياب الإيمان مصدر كل العوائق التي تحول دون قيام العمل الإيجابيّ البنّاء؛ والإيمان بالله هو مرتبة عالية من الصفاء الروحيّ؛ لا مجال فيها للحسد والاستعلاء والحقد؛ فمن استمسك بالعبودية الحقة صفتْ نفسه، وسمتْ مشاعره وتألم لآلام الآخرين. فلِمَ عُدّ الإيمان أشرف إحسان؟

لا جدال في أن بلوغ مرتبة الإحسان الإلهيّ تعصم المؤمن الحق من أذى إخوانه؛ بل تمنعه من الاستبداد بهم مادياً ومعنوياً؛ لأن مقام العبودية لله من المقامات الموجبة للتواضع، والانكسار، والإخلاص في خدمة الآخرين؛ فالذي يمنح لبعض المسلمين سلطة القهر، والإكراه والتسلط على إخوانه؛ إنما هو الخواء الروحيّ، ومن ثم تبرز نوازع الشر والانتقام؛ لأنه انفلت من عقال الفضيلة الخلقية والإيمانية. يقول النورسيّ: ''إنّ أعظم إحسان أعدّه في هذا الزمان وأجلّ وظيفة، هو إنقاذ الإنسان لإيمانه والسعي لإمداد الآخرين بالقوة. (...) ينبغي لأهل الحقيقة في هذا الزمان نكران الذات، ونبذ الغرور والأنانية، وهذا هو الإلزام لهم، لأن أعظم خطر يتأتى في هذا العصر، إنّما يتأتى من الأنانية والسمعة، فعلى كل فرد من أفراد أهل الحق والحقيقة أن ينظر إلى تقصيرات نفسه ويتهمها دائمًا ويتحلى بالتواضع التام''.[30]

فَشرفُ الانتساب لأهل الفضيلة والحق، والحقيقة النورانية، يوجب التخلق بكمالات أهل الإحسان الروحيّ؛ ومن ذاق حلاوة الإيمان، واغترف من معين الصفاء تحلى بالتواضع، وأرغم نزواته وشهواته أن تنقاد مطيعة للحق مستجيبة لنداء الفضيلة.

ولا ينبغي أن يعزب عن بالنا أن العمل الإيجابيّ المنضبط على الفضيلة الإيمانية هو مظهر من مظاهر العدل والإنصاف والافتقار إلى الله تعالى. ومن الطريف أن يربط النورسيّ إنقاذ الإيمان بمقام الإحسان؛ لأن في الإحسان ما يكفي لتجسيد قيم السلم والأمن والاستقرار بين البشر؛ ومن ثم قمع شهوات التدمير والتفجير؛ وبهذا المعنى يتحول المؤمن إلى طاقة بنّاءة منتِجة تعشق أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، وتسعى إلى إسعاد البشرية جمعاء.

فقد كشف النورسيّ -رحمه الله- عن أثر الإيمان في نشر السّلم قائلاً: ''إنّ الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون سببًا للإكراه، لا تكون سببًا للاستبداد قطعًا. إذ الإكراه

والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلاّ، بل إنّ أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع".[31]

وكأن النورسيّ يشير من طرف خفيّ إلى الإيمان بوصفه وسيلة للتعايش بين المجتمعات البشرية؛ فالفضيلة مانعة من طغيان شهوات الاستحواذ والاستيلاء والتجبّر؛ بل إن القيم الإيمانية هي وسيلة المشاركة والتفاعل الإيجابيّ والاندماج في الوسط الاجتماعيّ؛ ذلك أن الإكراه والقهر تعبير عن عزلة المرء، وعجزه عن الذوبان في الحياة بكل تواضع وانكسار.

جعل الدين وسيلة لمكاسب مادية:

لا يستطيع ناظر أمين، وباحث مكين في شؤون الدعوة الإسلامية المعاصرة أن ينكر هذا الداء المزمن عند كثير من الدعاة؛ وهو داء التكسّب من الدين، واتخاذه مورد رزق غير مشروع.

وقد اهتدى النورسيّ إلى هذه المعاينة الجليلة من خلال مسار دعويّ شاق تخللته انكسارات وانتصارات؛ فوقف على هذه الآفة المنتشرة في بلاد المسلمين؛ حيث كثر الفقهاء والدعاة والمفكّرون والمصلحون كثرة مذهلة تبعث على إلطاف النظر في هذا المسلك الطارئ.

ثم إنّ التعفّف والاستغناء عمّا في أيدي الناس هو ذروة المروءة، وقمّة الافتقار إلى الله تعالى. فَلِمَ أضحى الدّين في العالم الإسلاميّ سجّلاً تجارياً، ومغنماً، وربحاً طائلاً؟

يرى النورسيّ أن الخدمة القرآنية لا تسمح بهذه المتاجرة؛ لأنها خدمة مقدسة، تروم ثمرة آجلة لا عاجلة؛ فكل من تخلّق بأخلاق العلماء العارفين والعاشقين لله تعالى أبى أن يستثمر في الدين؛ لأنه استثمار غير مشروع؛ ذلك أن طبيعة الخدمة ذاتها تأبى الانقياد لحظوظ النفس، وترقّب المكافأة الفانية الآفلة.

ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من مراجعة سجل بعض الدعاة في زمن الاتصالات الرقمية والانفجار المعرفيّ الهائل في مجال المعرفة؛ ليقف بنفسه على غياب الإخلاص، وطغيان حب الظهور، وشهوة الفرح بالاستتباع. وفي هذا السياق يقول النورسيّ: "الحقائق الإيمانية والخدمة النورانية المقدسة تأبى أن تكون وسيلة لأي شيء كان في الكون، ولا يمكن أن تكون لها غاية إلاّ رضى الله سبحانه. وفي الحقيقة،

إنه من الصعوبة بمكان، الحفاظ على سرّ الإخلاص في خضم الصراعات المتنافرة للتيارات الحالية، ومن العسير الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية، لذا فإنّ أفضل علاج لهذا هو الاستناد إلى العناية الإلهية وتفويض الأمر إلى توفيق رب العالمين بدلاً من الاستناد إلى قوة التيارات الحالية''.[32]

وظاهر من كلام النورسيّ أنّ التوفيق في العمل الإيجابيّ مرده إلى الله تعالى؛ وهو أعلم بصفاء قلوب عباده؛ ولعل تضارب التيارات وكثرة الملل المتناحرة من أجل الظهور قد تحجب إيجابية العمل، وتضعف من درجة إخلاصه.

ونرى أن التمسك بمفهوم الخدمة القرآنية، والتخلّق بآدابها هو المنهج الأسلم من الرياء ولذة البقاء؛ لأن خادم القرآن إذا أيقن أنه يقوم بوظيفة مقدّسة شريفة؛ وهي الامتثال لأمر الله تعالى، ونيل رضاه ذاق طعم الصفاء، واختفت شهوة المكافأة المادية المتنظرة. فهو خادم لرب العزة الجليل القدير، وليس خادماً لغيره من العباد؛ ومن هنا تكمن أهمية إدراك طبيعة الخدمة الإيمانية، ومآلاتها.

الخلاف والاختلاف:

من أبرز عوائق العمل الإيجابيّ من منظور النورسيّ المنافسة غير الشريفة بين أفراد أهل الحقيقة. وأمر طبيعيّ في كل دعوة إسلامية أن تجمع بين دفتيها بعض العناصر التي هي من الدهماء تتسبب في تعطيل مسار الدعوة لقصور في أفهامهم، وعجز عن إدراك حقيقة الخدمة القرآنية. وهؤلاء هم مصدر الخلاف والاختلاف؛ لأن أهل الفضل والحق على قلب رجل واحد من العمل البنّاء؛ إلا أن تسرّب البعض إلى فضاء الدعوة بدوافع ذاتية وشهوات شيطانية قد يفقد مشروعية الخدمة؛ ولعله ينتقص من إنجازاتها. وفي هذا المضمار يقول النورسيّ: ''إنّ أهل الحقيقة لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة ولم يستطيعوا البقاء والثبات ضمن منافسة شريفة في سبيل الحق بتسلل القاصرين في هذا الميدان؛ لذا فقد أساءوا -بعض الإساءة- إلى تلك الصفات المحمودة، وسقطوا في الاختلاف والخلاف نتيجة التحاسد فأضروا أنفسهم وجماعة المسلمين أيّما ضرر''.[33]

فالدهماء وحشو الناس إذا تسللوا إلى ميدان الدعوة عطّلوا فعاليتها، واعترضوا سريان مفعولها؛ وهذا مشاهُد في كثير من الدول العربية عندما يتصدر المفتي للإفتاء قبل أوانه؛ فيتصدى لهوانه؛ ومن ثم ينبغي تصفية جماعة المسلمين مما يكدّر من

مشاربهم، ويلهيهم عن القضايا الجوهرية الكبرى. فعشق الإفتاء، وشهوة الاستبشار بثناء الناس على هؤلاء القاصرين هو مصدر تشويه للحقيقة النورانية المقدسة.

الخاتمة:

التحقيق أن هذه المقاربة المتواضعة قد لا تفي بالغرض المقصود من الاستفاضة المعرفية، والإشباع العلميّ في استجلاء حقيقة العمل الإيجابيّ البنّاء، واستكشاف أسسه وعوائقه؛ ذلك أن كليات رسائل النور بحر من الدرر، والجواهر التي يعجز باحث غمر ناشئ عن الغوص في محيطاتها. وحاصل الكلام جملة من النتائج الآتية:

العمل قدرة تفضي إلى لذة روحية، والعطالة عجز عن إدراك الحقائق النورانية.

العمل الإيجابيّ البنّاء قوامه الإخلاص، والامتثال لأوامر الله تعالى.

الخدمة القرآنية المقدّسة عمادها العمل الإيجابيّ.

الإسراف رذيلة، والقناعة فضيلة العمل الإيجابيّ.

الحسد والغرور والعُجب والتفاخر قيم مدمّرة للعمل الإيجابيّ.

الفضيلة المتّسمة بالإيمان وسيلة لبلوغ مرتبة الإحسان.

المتاجرة بالدِّين لمكاسب دنيوية منافٍ لقيم أهل الحق والفضيلة.

قِصر النّظر يفضي إلى فساد المعتبر كما هو شائع عند أهل الخلاف والاختلاف.

المصادر والمراجع:

١ القرآن الكريم، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبيّ.

٢ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا، إندونيسيا (د.ت).

٣ ديوان الهذليين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

٤ بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

٥ بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ٢٠٠١م، الطبعة الثالثة.

٦ بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة.

٧ بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، (د.ت).

٨ سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، السعودية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى، أو ل كتاب العلم باب في طلب العلم لغير الله ﷻ.

٩ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، المجلد السادس، الجزء السادس والعشرون.
١٠ الشاطبيّ، الموافقات، ضبط نصّه وقدّم له وعلّق عليه وخرّج أحاديثه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م، الطبعة الأولى، المجلد الأول.
١١ الماوردي، أدب الدين والدنيا، شرح وتعليق محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م، الطبعة الرابعة.

* * *

الهوامش:

[1] باحث أكاديميّ جزائريّ، وأستاذ بجامعة نجران بالمملكة العربية السعودية.
[2] بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر،[د.ت]،ص: ١٨٨. والعبارة ذاتها وردت بألفاظ متقاربة في المثنوي العربي النوري، ص: ٢٧٤.
[3] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، المجلد السادس، الجزء السادس والعشرون، ص: ٣٣٨٠-٣٣٨١.
[4] بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ص: ١٨٨.
[5] المصدر نفسه، ص: ١٨٩.
[6] المصدر نفسه، ص: ١٩١.
[7] المصدر نفسه، ص: ١٩١.
[8] المصدر نفسه، ص: ١٩٢.
[9] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا، إندونيسيا، الجزء الرابع، ص: ٣٧٠.
[10] المصدر نفسه، ص: ٣٧٤.
[11] بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ص: ٢٠١. يقول النورسي عن عواقب الرياء: "وإذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس إليه فقد ضيّع الإخلاص ووقع في الرياء". اللمعات، اللمعة العشرون، هامش ص: ٢٢٦.
[12] المصدر نفسه، ص: ٢٣٠-٢٣١.
[13] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ص: ٣٦٩.
[14] الشاطبيّ، الموافقات، ضبط نصّه وقدّم له وعلّق عليه وخرّج أحاديثه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م، الطبعة الأولى، المجلد الأول، ص: ٨٦.
[15] سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، السعودية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى، أو ل كتاب العلم باب في طلب العلم لغير الله ﷻ، الجزء الخامس، ص: ٥٥٠، رقم الحديث: ٣٦٦٤.
[16] بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة، ص: ٢٧٣.
[17] المصدر نفسه، ص: ١٧٠-١٧١.
[18] النورسي، اللمعات، ص: ٦٧.
[19] ينظر بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، المكتوب الثالث عشر، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ٢٠٠١م، الطبعة الثالثة، ص: ٥٩. وينظر المصدر نفسه، ص: ٦١-٧٨-٨٨.
[20] النورسي، الملاحق في فقه دعوة النور، ص: ١٦٩.

[21] الماوردي، أدب الدين والدنيا، شرح وتعليق محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت،١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م، الطبعة الرابعة، ص: ٥.

[22] يجد المتأمل في كليات رسائل النور تركيز النورسي على الاقتصاد والقناعة وتجنب الإسراف؛ فقد أفرد رسالة كاملة تعد دستوراً شاملاً في الاقتصاد، وترشيد الإنفاق؛ إذ خص اللمعة التاسعة عشرة لـ: ''رسالة الاقتصاد '' لخّصها في سبع نكات من ص: ٢١١ إلى ص: ٢٢٤.من رسالة اللمعات؛ وهي رسالة تعكس رؤية اقتصادية معاصرة.

[23] النورسي، اللمعات، ص: ٢٢٠-٢٢٢.

[24] ديوان الهذليين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية، القسم الأول، ص: ٣.

[25] بديع الزمان سعيد النورسيّ، اللمعات، ص: ٢٢٢.

[26] الماوردي، أدب الدين والدنيا، ص: ٢٧٨-٢٧٩.

[27] النورسي، اللمعات، ص: ٢٢٨. لمزيد من التفصيل في خمس مسائل صارت مدار الالتباس. ينظر اللمعات، ص: ١٩٨- ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٤.

[28] المصدر نفسه، ص: ٢٢٨-٢٢٩.

[29] النورسي، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، الطبعة الأولى، ص: ٣٧٦.

[30] بديع الزمان سعيد النورسيّ، الملاحق، ص: ٢٥٩-٢٦٠.

[31] بديع الزمان سعيد النورسيّ، اللمعات، ص: ٢٥٩.

[32] بديع الزمان سعيد النورسيّ، الملاحق، ص: ٢٤٣-٢٤٤.

[33] بديع الزمان سعيد النورسيّ، اللمعات، ص: ٢٣٩.

الحداثة البديل عند بديع الزمان النورسي

–ABSTRACT–

Bediuzzaman's Views on an Alternative Modernity

Hamid Samir

By exploring The Risale-i Nur, it becomes apparent that many topics address issues of the West - such as Western modernity, Western Islamic dialogue, the relation between the Islamic World and Western civility. The issues of the adoption and borrowing from others (i.e. the West) based on their modern approach to civil "progress", in addition to other issues which come up in the context of Islamic civil dialogue and Western modernity, are distributed (in brief segments) extensively throughout the Risale-i Nur. The commentary delves into such issues (previously tackled in a limited and general manner) with a high degree of detail and comprehensibility.

In this paper, the author focuses on Nursi's extensive approach in addressing the Western issues, namely the modern Western model and its relation to the Islamic world in terms of dialogue, exemplariness, and its construction.

As a result, adoption and borrowing from the other (the West) had to be reviewed based on reform, which distinguishes between the benefit of aims and effectiveness of methods. It also scrutinizes the reality of cultural and social identity and the variables pertaining to changes of time and place. Even in the case of borrowing from the West's culture and civilization; only the technologies perceived as useful as well as the modern sciences should be considered. This is because while the West enjoys a civilization, the East still arguably boasts a comprehensive and prospering Islamic civilization, historically surpassing that of the West (since it stems from the Quran and remains directed by it).

Nonetheless, modernity and civility shall not be refused altogether as many historians and scholars might think. On the contrary, it is simply a case of avoiding the importation of modernity with all its philosophical and historical baggage. Such an import of modernity ought to be refuted by sound thinkers, who do not fall for the appealing traits and deceiving looks of modernity without exploring its essence.

Nursi warns of the blind imitation of Western culture without reform or discrimination, indicating that Western culture - which is often described as a culture of mind, modernity and technology - is not absolute good. Nor is it the ideal model for others to follow as an example without thorough examination,

for it stands as a deficient and unjust civilization, a model which requires criticism, reform, review and adjustment. This must be done in order to present a model supported by morals and as an example to be followed. Western civilization ignores human beings, without whom no modernity nor civilization can be built. On the other hand, it focuses on the mind, whereas a mind with no ties to religion is the reason behind corruption of civilization, leading humanity to insolence, aberrance and misery.

– ملخص البحث –

حميد سمير[1]

يدرك الناظر في رسائل النور بداهة كثرة الموضوعات والقضايا التي تناولت المسألة الغربية، مثل قضية الحداثة الغربية والحوار الإسلامي الغربي؛ وعلاقة العالم الإسلامي بالمدنية الغربية؛ وقضية الأخذ والاقتباس من الآخر اعتمادا على نموذجه الحداثي لتحقيق النهضة الحضارية؛ وغيرها من القضايا التي ترد ضمن سياق الحوار الحضاري الإسلامي والحداثة الغربية، وتتوزع هذه القضايا عبر عدد من رسائل النور تكثيفا وتفصيلا إيجازا وإطنابا، فما كان مقتضبا ومجملا هناك أجابت عنه رسائل النور بشيء من التفصيل والبيان .

وقد تتبع المؤلف في هذه المقالة طرق التفصيل وكيفية علاج النورسي للمسألة الغربية ولقضية النموذج الحداثي الغربي وعلاقته بالعالم الإسلامي حوارا واقتداء وبناء.

ومن خلال ذلك كان لابد من مراجعة حركة الاتباع والأخذ عن الآخر) الغرب (مراجعة مبنية على التقويم الذي يميز بين النفع في المقاصد والنجاعة في الوسائل، وبين الثابت الملازم للهوية والمتغير التابع لتغيرات الزمان والمكان، وحتى إن كانت هناك استعارة من الغرب حضارته وثقافته؛ فلابد من استعارة ما هو في حاجة إليه وما يهم فقط من التقنيات والعلوم الحديثة لأنه كما للغرب حضارة فإن للشرق أيضا حضارة إسلامية مزدهرة ومتكاملة تفوق حضارة الغرب وتعلو عليها بكثير، لأنها موجهة من طرف القرآن ومبنية عليه.

يفهم من هذا الكلام أنه لا يجب رفض الحداثة والمدنية جملة وتفصيلا كما تسرب إلى أذهان كثير من المؤرخين والدارسين، وإنما يتم ذلك بناء على ماهو نابع من الذات بدل الحداثة المستوردة على شكل تطعيم، وتحمل في بنيتها آثار البيئة والفلسفة التي

نشأت فيها، وهذا ما يجب أن يرفضه كل ذي عقل سليم، وكل عاقل لا يستهويه بريق المدنية ولا مظاهرها الخادعة دون النظر إلى بواطن الأشياء .

والنورسي يحذر من التقليد الأعمى للحضارة الغربية دون تقويم أو تمييز، وهو إشارة إلى أن الحضارة الغربية التي توصف بأنها حضارة عقل وحداثة وتقنية ليست خيرا مطلقا وليست نموذجا أمثل للاتباع والاقتداء من غير تمحيص، وإنما هي حضارة متأزمة ناقصة وظالمة يحتاج نموذجها إلى النقد والتصويب والمراجعة والإصلاح؛ وعندها يكون نموذجا مسددا ومؤيدا بالأخلاق قابلا للاقتداء .فمن حيث إنها :تهمل الإنسان؛ حيث لا حداثة بدون إنسان ولا حضارة بدونه، وتركز على العقل؛ بحيث إن العقل المنقطع عن الدين هو الذي كان سببا في فساد الحضارة وساق البشرية إلى السفاهة وأوردها مهالك الضلالة والتعاسة.

١ - القضية والسياق

ليست هناك قضية شغلت العالم الإسلامي منذ القرن السابع عشر إلى اليوم أكثر مما شغلته المسألة الغربية التي تناولها الباحثون بأسماء مختلفة والمسمى واحد، فقد سميت عند البعض بقضية الحداثة أو التحديث أو التنوير، وسميت عند آخرين باسم المدنية أو التغريب أو الحضارة. إن هذه المفاهيم هي من المترادفات التي ينوب بعضها عن بعض عند الكثير للدلالة على الحداثة، بيد أني لا أرتضي مثل هذا التفسير الذي يجمع هذه المفاهيم كلها في حقل دلالي واحد. وعندي أن الفروق بينها دقيقة تحتاج إلى شيء من التوضيح، وكنت قد أشرت في دراسة لي سابقة أن الحداثة غير التحديث أو التنوير، وأنها ليست مرادفا للحضارة أو بديلا عنها، فقد تنشأ الحضارة أو المدنية من غير أن تحذو حذو الحداثة الغربية ذات المنزع الحسي المادي ووفق نموذجها الحضاري. ''إن الغرب، كما لاحظ هنتجتون، ينزع إلى الخلط بين التحديث الذي يعني التصنيع والبنية المهنية المعقدة والزيادة في الثروات ومحو الأمية والتوسع في المدن، وبين التغريب أو الحداثة الغربية باعتبارها نموذجا للتحديث الغربي. ولكن التجارب بينت أن التحديث شيء غير الحداثة الغربية على الرغم من التقائهما في جذر لغوي واحد وانتمائهما إلى حقل دلالي مشترك. فكلمة التحديث (Modernisation) تدل على الفعل والحركة والاندفاع نحو تحقيق نموذج ما وصولا إلى حال أو وضع متطور عن نقطة المنطلق، كما تدل الكلمة على ذات فاعلة وعلى واقع يمارس فيه فعل

الذات، وعلى حيز زمني يتحرك فيه الإنسان من الأدنى إلى الأعلى ومن القديم إلى الجديد.''[2]

ولما للحداثة ولفعلها (أعني التحديث) من وظيفة ودور أساس في بناء الحضارات ونشأتها فقد قيست بهما مراتب التقدم والتخلف والاستمرار والسقوط الحضاري، فكلما كانت حركة الحداثة نشيطة إلا نشأت بسببها الحضارة والمدنية واقترنت بهما، وكلما ضعفت هذه الحركة كان ذلك سببا في الانحدار الحضاري وصولا إلى السقوط النهائي، حتى إن كثيرا من المؤرخين الأجانب قد أرجعوا سبب سقوط الخلافة العثمانية إلى تخلفها في مجال المدنية وتخلفها عن موكب الحداثة.[3]

ويؤرخ المؤرخون لمرحلة ضعف وانحلال العالم الإسلامي باللحظة التي أحس فيها أنه دون الغرب بكثير حداثة وتقنية، فأخذ يتطلع إلى نموذجه الحداثي ويركض وراءه مقتفيا آثاره في كل شئ سلبا وإيجابا. وتبدأ هذه اللحظة بالضبط عامي ١٨٥٤ و١٨٥٦ حين أضفى السلطان عبد المجيد من آل عثمان على حركة تغريب الدولة صفة الرسمية. ولما تولى السلطان عبد الحميد الثاني تبين له أن الركض وراء هذه الحداثة دون نقد أو تمييز بين نافع وضار هو نوع من الا تباع السلبي والتقليد الأعمى الذي يحتقر الذات ويطمس هويتها الثقافية والحضارية. وكما هو معلوم فإن التبعية والاستلاب يبدءان ''حين تشعر الأنا أنها دون الغير أو الآخر معرفة وعلما وحضارة فتنبهر به وبمنجزاته، فتختار أن تستعير نموذجه للمحاكاة والاقتداء. ولا يعد ذلك كله خطيئة عند عقل او ثقافة تبتغي أن ترتقي صعدا إلى الأعلى وتحقق التفوق والازدهار. ولكنه قد يصبح كذلك عندما تتحول المحاكاة إلى تقليد أعمى، والاتباع إلى تبعية سلبية، والقدوة والاقتداء إلى استنساخ مكرور''.[4]

وهذا بالضبط ما أحس به السلطان عبد الحميد فأخذ يراجع حركة الاتباع والأخذ عن الآخر (الغرب) مراجعة مبنية على التقويم الذي يميز بين النفع في المقاصد والنجاعة في الوسائل، وبين الثابت الملازم للهوية والمتغير التابع لتغيرات الزمان والمكان. ولقد أشار السلطان عبد الحميد في مذكراته أنه لم يكن يريد أن يستعير من الغرب حضارته وثقافته؛ لأنه كان يرى أن للشرق حضارة إسلامية مزدهرة ومتكاملة تفوق حضارة الغرب وتعلو عليها، ولكنه كان يريد استعارة ما هو في حاجة إليه وما يهم فقط من التقنيات والعلوم الحديثة. وفي ذلك يقول: ''ليس من الصواب القول

بأني ضد كل تجديد يأتي من أوروبا، لكن العجلة من الشيطان ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال. يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل الله به علينا... ليس الإسلام ضد التقدم، لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج". [5]

يفهم من هذا الكلام أن مشروع السلطان عبد الحميد لم يكن يقوم على رفض الحداثة والمدنية جملة وتفصيلا كما تسرب إلى أذهان كثير من المؤرخين والدارسين، وإنما كان يقوم على بناء حداثة بديل نابعة من الذات بدل الحداثة المستوردة على شكل تطعيم، وتحمل في بنيتها آثار البيئة والفلسفة التي نشأت فيها، وهذا ما كان يرفضه السلطان عبد الحميد وكل عاقل لا يستهويه بريق المدنية ولا مظاهرها الخادعة دون النظر إلى بواطن الأشياء.

٢- الحداثة المستوردة والحداثة البديل عند النورسي

إن الناظر في رسائل النور لبديع الزمان النورسي يدرك بداهة كثرة الموضوعات والقضايا التي تناولت المسألة الغربية، مثل قضية الحداثة الغربية والحوار الإسلامي الغربي؛ وعلاقة العالم الإسلامي بالمدنية الغربية؛ وقضية الأخذ والاقتباس من الآخر اعتمادا على نموذجه الحداثي لتحقيق النهضة الحضارية؛ وغيرها من القضايا التي ترد ضمن سياق الحوار الحضاري الإسلامي والحداثة الغربية، وتتوزع هذه القضايا عبر عدد من رسائل النور تكثيفا وتفصيلا إيجازا وإطنابا، وتندرج كلها في سياق كلام السلطان عبد الحميد آنف الذكر، فما كان مقتضبا ومجملا هناك أجابت عنه رسائل النور بشيء من التفصيل والبيان. فلنمض إذن نتتبع طرق التفصيل وكيفية علاج النورسي للمسألة الغربية أو لقضية النموذج الحداثي الغربي وعلاقته بالعالم الإسلامي حوارا واقتداء وبناء.

في خطاب لبديع الزمان النورسي عبارة عن رسالة أو خطبة موجهة إلى العالم الإسلامي من الجامع الأموي يحذر فيها من التقليد الأعمى للحضارة الغربية دون تقويم أو تمييز، يقول: "فيا أسفى! ويا ويل من ضل بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارة أولئك الذين يقلدونهم تقليدا أعمى، ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. فيا أبناء هذا الوطن لا تحاولوا تقليد الإفرنج! وهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع وعداوتهم اللدودة، تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب

أفكارهم الباطلة؟ فأنتم بهذا تحكمون على أنفسكم وعلى إخوانكم بالإعدام الأبدي... كونوا راشدين فطنين! إنكم كلما اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالهم ازددتم كذبا وافتراء في دعوى الحمية والتضحية، لأن هذا الاتباع استخفاف بأمتكم واستهزاء بملتكم".[6]

يتضمن هذا الكلام إشارة إلى أن الحضارة الغربية التي توصف بأنها حضارة عقل وحداثة وتقنية ليست خيرا مطلقا وليست نموذجا أمثل للاتباع والاقتداء من غير تمحيص، وإنما هي حضارة متأزمة ناقصة وظالمة يحتاج نموذجها إلى النقد والتصويب والمراجعة والإصلاح؛ وعندها يكون نموذجا مسددا ومؤيدا بالأخلاق قابلا للاقتداء.

فما هي إذن مظاهر الأزمة وما هي أوجه النقص والظلم في الحداثة الغربية، وما هي سبل التخلص منها لقلب الحداثة الحاضرة إلى حداثة بديل تصوب النموذج القديم وتعدل منه، وعندها يصبح نموذجا صالحا للاتباع؟

يجمع منظرو الحداثة على مجموعة من الخصائص والصفات التي يجب توفرها في مجتمع ما ليكون حداثيا أعلاها رتبة وقيمة صفتا الأنسنة والعقلنة.

١ - **الأنسنة:** ثمة مقولة ترى أن روح الحداثة هو الإنسان، فلا حداثة بدون إنسان، بل لا يمكننا أن نتصور نشأة ووجود الحضارة في غياب العامل البشري النوعي عقلا وتجربة. فهذا أمر مسلم به، وإليه يشير النورسي في قوله: "فمما ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة، إلا أنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية -ولاسيما الشريعة المحمدية- وحاجة الفطرة البشرية. فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، لذا لا يتملكها أحد من الناس".[7]

إن بناء ونشأة الحضارة الغربية مرده إلى تلاقح أفكار وتجارب الإنسان، وهي إرث كوني لا ينفرد به نوع دون نوع أو جيل عن جيل، فالأمم والحضارات فيه سواء، فلكل منها آثار وبصمات. والحضارة الغربية نفسها ليست شذوذا عن هذا القانون، ولا تشكل طفرة، ولم تنشأ من فراغ وبمعزل عن سلالات الحضارات، كما أنها لا تمثل قطيعة مع الإرث الإنساني. إنها نتاج متتابع ومتلاحق زمنيا ومتفاعل متلاقح فكريا، ساهمت فيه حضارات متنوعة ومن ضمنها الحضارة الإسلامية التي تركت آثارها في مسار هذه الحضارة. كما لا يمكننا أيضا أن نغفل -إلى جانب العامل الإنساني- العامل الديني

والإيماني، فهو باعث قوي على ميلاد الحضارات بما فيها الحضارة الغربية نفسها، فقد نشأت في كنف الدين المسيحي بل كانت للقسيسين والرهبان جهود علمية لا يمكن إغفالها، وأن المؤرخين الأوروبيين لأسباب مغرضة يسعون إلى طمس هذه الحقيقة ويتناسونها، ويركزون على أن الحضارة الغربية ثمرة من ثمار العلمانية. والحقيقة ليست كذلك، إذ العلمانية ليست سوى حركة هامشية متأخرة أنفصل فيها الفكر الإنساني عن اللاهوت المسيحي، أما البداية الأولى فقد كان التفكير فيها لاهوتيا خالصا، وكبار الفلاسفة والعلماء -أمثال ديكارت ولايبنتس وباسكال ونيوتن- كانوا مؤمنين بالله، وكانوا من ذوي المشروعات الإصلاحية في المسائل الدينية. والحقيقة نفسها يشدد عليها آرنولد توينبي في إشارة منه إلى أن الحضارة الغربية وإن كانت تتميز بطابعها المادي والعقلاني في مرحلتها المتأخرة، فإن أصولها الأولى ذات نزعة مسيحية مرتبطة بالمسيحية الكاتوليكية ارتباطا محكما.

إن هذه الحقيقة يتغافلها دعاة العلمانية اليوم فيربطون بينها وبين الحداثة، ولكن التاريخ يؤكد غير ذلك. ولقد وردت عند النورسي إشارة تلفت الانتباه إلى هذا الربط الوثيق بين التفكير الإنساني وبين الدين الأمر الذي يؤكد أن الشرارة الأولى للحضارة الغربية قد قدح زندها الإيمان، وحثت عليها الشرائع السماوية بما فيها الشريعة الإسلامية.

ولكن التحول الكبير الذي طرأ على التفكير الإنساني هوالذي جسدته مجموعة من النظريات العلمية الجديدة، التي شكلت قطيعة مع نظريات أخرى قديمة كانت تتبناها الكنيسة المسيحية باعتبارها نظريات دينية غيبية. ففي القرن السابع عشر أحدث كتاب غاليليو ''حوار حول النظامين الكبيرين للكون'' انقلابا كبيرا غير نظرة الإنسان إلى الكون والعالم، وكذلك كتاب إسحاق نيوتن ''الأسس الرياضية '' الذي شرح فيه نظريته حول الجاذبية ورسم فيه صورة جديدة للكون، أصبحت تجيب عن أسئلة الناس طيلة قرنين. وبذلك يكون نيوتن هو الآخر قد غير نظرة الإنسان العادي إلى العالم بما أوحت به أقواله إليه، ''وبدأ يلوح للناس أخيرا أن العلم قد يكشف جميع أسرار العالم، وبدأت حفنة قليلة من الأفراد الجريئين تقول إنه إذا كان الأمر كذلك فما الحاجة إلى رجال الكنيسة لتفسير الأمور؟ بل ما الحاجة للحديث عن الله كجزء من هذا التفسير، لما كان العلم قادرا على شرحها كلها عن طريق اكتشاف المزيد من

القوانين الكبرى الناظمة لها؟ أما نيوتن فهو لم يكن يفكر بهذه الطريقة حتما، إذ إنه كان رجلا شديد التدين''.[8]

وما إن ينتهي القرن السابع عشر حتى تكون مثل هذه النظريات العلمية قد أوحت للإنسان الغربي أن بمقدوره فهم وتفسير العالم دون حاجة إلى الكنيسة ونظرتها الدينية الغيبية، وبذلك أعلن تمرده على آرائها بل على الدين كله وأصبح إنسانا حرا متمردا. ''وللمرة الأولى أصبح الإلحاد عقيدة محترمة ولو في نظر عدد قليل جدا من الناس''.[9]

ولكن سرعان ما ستعرف هذه العقيدة انتشارا واسعا وتكتب لها الهيمنة، ثم أصبحت صفة وخاصية ملازمة للحداثة الغربية وهي التي تعرف باسم الأنسنة. ''وتعني أن الإنسان لا يمكنه أن يصبح فردا حرا ومستقلا بنفسه على نحو حق، وأن تتحقق له الذاتية المطلقة إلا إذا كف عن تصور عالم الألوهية، أي عندما يصير إنسان نفسه لا إنسان إلهه وفرد ذاته لا فرد ربه. أو نقول بعبارة أخرى لا يمكن للفردية والذاتية أن تتحقق في مفهوم الحداثة، إلا إذا تجاوز الإنسان الفكر الديني المسيحي الذي قيد حريته، محققا بذلك خيلاءه الإنسي''.[10]

لقد أصبحت الحداثة أكثر ميلا إلى تطبيق حداثة الفرد بدل حداثة الإنسان التي هي روح الحداثة وجوهرها، وقد يكون هذا التحول سببا رئيسا فيما آلت إليه الحداثة الغربية من انحراف وانحلال، أصاب الحضارة في صميمها فأصبحت حضارة متأزمة. وتعود أسباب الأزمة في أصلها إلى العنصرالبشري وإلى المجتمع الذي تتكون منه هذه الحضارة. ولما كان الفرد في هذه الحضارة قد فقد العروة الاجتماعية التأنيسية، فإنه يكون قد تحول من وجود طبيعي إلى وجود رافض للوجود الطبيعي. فالوجود الطبيعي يكون فيه الكائن تابعا لطبيعة الشيء وطبعه تفاعلا وانفعالا وتجاوبا، اعتمادا على قدرة الإنسان ومقدرته وملكاته التي زود بها والتي تجعله متدرجا من الأدنى إلى الأعلى طلبا للكمال والرقي، وكل شيء في الطبيعة مسخر للإنسان حتى يتدرج في منازلها ومراتبها صعدا إلى منتهى الكمال. أما الوجود الرافض للوجود الطبيعي فهو الذي يسميه دعاة الحداثة بالوجود الإنسي، ومن صفاته أنه يرفض الوجود الطبيعي ويتمرد عليه وينكره مثل ما يشهد على ذلك وجود الإنسان الغربي ذي الصفة الفردانية، وقد انتهى به المطاف في الأخير إلى اعتناق فلسفة العبث واللامعقول دليلا على أزمته

النفسية وما آلت إليه من فراغ وشقاء وخواء، تشهد على ذلك حالات الثرثرة والجنون والانتحار التي يدل عليها واقعه وتؤكدها ثقافته حتى أصبحنا في ما يشبه مملكة الحيوانات المثقفة.

ولا شك أن كل وجود يتمرد على الطبيعة مآله إلى مثل هذه الحال، وكل شيء مضاد للفطرة يحمل عناصر فنائه في ذاته ولو طال الزمان، والدين من الفطرة ومعاداتها يعني الحكم على الإنسان بالشقاء والمأساة. إن من الوظائف الكبرى للدين أنه يكفل للإنسان الإجابة الواضحة عن الأسئلة المصيرية التي يوحي بها العقل المجرد فتؤرقه وتحيره. ولما كانت الحداثة الغربية قد أغفلت هذا الجانب واستبدلت بالدين صفة الأنسنة القائمة على الفردانية والحرية المطلقة، فقد جعلته عرضة للشقاء والخواء، تتنازعه الأهواء والغرائز والشهوات النابحة حتى حولته إلى حيوان، يلهث وراء الحاجة المادية والشهوات الحسية ظنا منه أن إشباع الحاجات المادية كفيل بتحقيق السعادة، والواقع يؤكد عكس ذلك.

إن من مظاهر أزمة الحداثة في الحضارة الغربية -يقول النورسي- أن صفة الأنسنة قد أنشأت أولا إنسانا مغرورا بذاته معجبا بنفسه إعجابا كبيرا، فانبهاره "بالعلوم وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة أعطاه الحرية وروح الانتقاد والتمرد، فظهر الضلال من غروره".[11] وثانيا إنسانا متمردا، "ولكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان... وأن غاية ما يصبو إليه تطمين رغبات النفس وإشباع هواها، حتى إنه دساس يبحث تحت ستار الحمية والتضحية والفداء عن منافعه الذاتية."[12]

وثالثا إنسانا طاغية جبارا ولكنه طاغية "ذليل، إذ يعبد أخس الأشياء، ويتخذ كل شيء ينتفع منه ربا له... أو جبار عاجز في ذاته لأنه لا يجد مرتكزا في قلبه يأوي إليه".[13] ورابعا إنسانا لا أخلاقيا، يظل يجري وراء الأهواء والنوازغ حتى مسخت سيرته الإنسانية مسخا معنويا فأصبح حيوانا مثقفا.

إن المدنية الحاضرة يقول النورسي: "قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية. وهكذا محيت راحة البشرية، إذ كان الإنسان في البداوة محتاجا إلى أشياء أربع، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته

في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة. حتى لم يعد السعي الحلال كافيا لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام. ومن هنا فسدت أسس الأخلاق، إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيرا وفاقدا للأخلاق''.[14]

ومما يؤكد أزمة الذاتية والأنسنة في الحداثة الغربية ما يشهد به مثقفو هذه الحضارة وأدباءها أنفسهم، فهم شهود عصورها؛ الناطقون باسمها؛ المشخصون لأدوائها وعللها؛ ويرون ما لا يرى غيرهم. ويرى النورسي أن أسباب الأزمة الذاتية شاخصة في الأدب الغربي تجسدها جميع أجناسه الأدبية رواية ومسرحا وشعرا. والمتأمل في موضوع الذاتية كما يجسده الأدب الغربي -بطولة وحماسة وشهامة- يدرك أن من وظائفه الافتتان بالقوة، وأن الغاية منه ليست هي وجدان الحق وإنما تمجيد ''جور الظالمين وطغيانهم. وفي ميدان الحس والعشق، لا يعرف العشق الحقيقي؛ بل يعزز ذوقا شهويا عارما في النفوس. وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع، لا ينظر إلى الكائنات على أنها صبغة إلهية، ولا يراها صبغة رحمانية بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ذوقها، ولا يقدر الفكاك منها، لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة وتأليه المادة، حتى يمكن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منه بسهولة''.[15]

إن المشكل الذي يثيره مفهوم الأنسنة عائد في جوهره إلى الالتباس والتداخل الحاصل بين الإنسان والفرد في فكر الحداثة الغربية. والحق أن الإنسان ليس ملازما للفرد ولا للذات، لأنه قد يكون زوجا أو جماعة أو مجتمعا. واعتبار الإنسان ذاتا وفردا هو نفي للفاعلية التي خص بها الإنسان، والحكم عليه بالثبات على ذات وحال لا يتحول عنها، ومن شأن الثبات على الذات والحال أن يعرض المرء للجمود الذي يؤدي بدوره إلى القلق فالعبث، وتلك هي أزمة الذاتية والفردانية في الفكر الغربي.

إن أزمة الحداثة الغربية هي في الحقيقة أزمة فلسفة وجودية، تمس جوهر الإنسان وكينونته، وبدل أن نتحدث عن إنسان حر وطليق يتقلب في أفعاله وحالاته وصفاته الخلقية، أصبحت الحداثة تتحدث عن الذات التي لا تعدو أن تكون حالة فقط من حالات وأفعال الإنسان المتعددة، وبذلك أصيب الإنسان بالجمود والتحجر وتلك هي بداية المشكل في الحداثة الغربية.

إن الإنسان الحق هو من كان شأنه ألا يثبت على حال ومقام واحد، لأن هويته ذات رتب متعددة، فقد يكون الواحد من الجماعة إنسانا أكثر أو أقل من غيره فيها، كما أن هويته أيضا ''ليست ثابتة، وإنما متغيرة، فيجوز أن يكون الفرد الواحد في طور من أطوار حياته إنسانا أكثر أو أقل منه في طور سواه''.[16] وإذا كان الأمر على هذا النحو فالإنسان من شأنه أن يتقلب في أحواله النفسية وصفاته الخلقية حتى ينال مراده ويصل إلى مبتغاه ويتحرر من حال الثبات والجمود، وعندئذ تكون ذاته بعد هذا المسار ذاتا مختلفة عن ذاته وحاله التي كان عليها قبل التحول. وهكذا فالإنسان الحق هو من كانت له ذوات كثيرة متتالية لا ذاتا واحدة جامدة. فكل ذات خرج منها الإنسان هي بمثابة الآخر الذي كان، وهكذا في حركة دائبة و تجدد دائم لا يقبل الثبات والاستقرار، ومن هنا تكون الغيرية أيضا صفة داخلية لازمة للإنسان وليست صفة خارجية، مما يجعل الذات والغير شيئا واحدا في الإنسان.

ولما كانت الغيرية صفة لازمة للإنسان الواحد بحكم التداخل بين الذات والغير، فإن ذلك من شأنه أن يجعل الإنسان في جوهره وحقيقته قائما على تنوع الذوات والأغيار. فالذات والغير في الإنسان ذات واحدة، فلا نفكر إلا كما نتكلم ولا ''نتكلم إلا ونحن اثنان، بل لا نتكلم إلا ونحن زوجان، لأن الزوجين هما بالذات الاثنان المتواجد بعضهما مع بعض''.[17] والمراد بالكلام هنا هو الكلام النفسي الذي تكون فيه ذات الإنسان واحدة خَلْقاً ولكنها اثنان خُلُقاً، وهذا ما يسمى في اصطلاح النظار التعدد الاعتباري لا الواقعي.[18] وبهذا يصير النظر ''مناظرة''، مثلما يصير التفكر مفاكرة، إذ الطريق إلى الحق ليس واحدا لا ثاني له، وإنما هو طرق شتى لا حد لها، كما أن من شأن الحق أن لا يأتي به واحد سواء أكان معتقدا أم منتقدا.

إن الأصل في إثبات ونسبة الذات للإنسان هو وجود ذاتين اثنتين متمايزتين خُلُقياً أو اعتباريا. بمعنى أن الذات في حقيقتها مزدوجة أنا وأنت أو الذات والآخر معا في نفس واحدة ازدواجا وانعكاسا واجتماعا.

فهذا المفهوم للذات والإنسان يختلف عن مفهوم الحداثة كما كرسه الكوجيطو الديكارتي عن الإنسان باعتباره فردا وذاتا مفكرة واحدة ثابتة وجامدة. فأيهما إذن أحق بصفة الحداثة والتجديد هل الرؤية التي تنفي عن الإنسان الفاعلية والحركة أم تلك

التي تحقق له إنسانيته بواسطة أفعال مجالها متسع ومتنوع، وظروفها الزمانية والمكانية متقلبة، وبواعثها ومقاصدها متفاوتة؟

ولقد وردت عند بديع الزمان إشارة لطيفة مفهومها وفحواها أن الإيمان والدين يمنح للإنسان قدرة هائلة ليس على الحركة والفاعلية فحسب، بل يمنحه أيضا القدرة على تجاوز العوائق والقيود وعلى التحرر والانعتاق من الزمان وقيوده ليسبح في المطلق واللا تناهي. ومن كان ذلك حاله وديدنه فأنى يتسرب إليه القلق الذي يؤدي إليه التحجر والثبات على ذات وحال واحدة كما هو الأمر في الحداثة الغربية. يقول بديع الزمان النورسي: " فكما أن دوائر حركة عقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات تختلف في السرعة، رغم تشابهها الظاهري، كذلك الأمر في الإنسان، حيث أن حكم الزمن متفاوت في دائرة جسمه، ودائرة نفسه، ودائرة قلبه، ودائرة روحه، فبينما ترى حياة الجسم وبقاءه ووجوده محصورة في اليوم الذي يعيش فيه أو في ساعته، وينعدم أمامه الماضي والمستقبل، إذا بك ترى دائرة حياة قلبه وميدان وجوده يتسع ويتسع حتى يضم أياما عدة قبل حاضره وأياما بعده، بل إن دائرة حياة الروح وميدانها أعظم وأوسع بكثير حيث تسع سنين قبل يومها الحاضر وسنين بعده.

وهكذا، بناء على هذا الاستعداد، فإن عمر الإنسان الفاني يتضمن عمرا باقيا من حيث حياته القلبية والروحية اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية والعبودية السبحانية والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقي الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر أبدي".[19]

ألا يوحي مفهوم هذا الكلام أن للإنسان ملكات واستعدادات فطرية داخلية، بإمكانها أن لا تجعله يركن إلى ما هو كائن وما هو واقع، بل تملي عليه ما يجب أن يكون وما يمكن أن يقع، وتزوده بقيم معينة تعلو بهمته وتحرره من أسر اللحظة الحاضرة وانتهاء بأحوال أخرى لا حد لها. "والشاهد على ذلك كونه لا يفتأ يطلب الكمال في كل أفعاله، فلا يصل إلى مرتبة حتى يطلب مرتبة فوقها، ولا يزال آخذا في هذا التدرج من كامل إلى أكمل منه فالأكمل، ولو لا هذا التعلق بما ينبغي أن يكون وما ينبغي أن يقع، لما خرج الإنسان إلى طلب هذا الكمال واستفرغ الجهد في تحصيله".[20]

٢ -**العقلنة:** ما تكاد الحداثة تذكر حتى تذكر معها العقلانية التي غدت لازمة من لوازمها، فالحداثة والعقلانية شيء واحد وأن أحدهما يسد مسد الآخر. وتعد العقلنة أو العقلانية من الصفات الألصق بالحضارة الحديثة وبها عرفت عند الجمهور، بل إن هذا الوجه منها هو الذي شغل الناس والفلاسفة والحداثيين إلى حد الافتتان به، فأصبحت الحضارة الحديثة توصف بأنها حضارة عقل. وتعني هذه الصفة أو الخاصية أن أصبحت للعقل المجرد قيمة كبرى ودرجة أعلى في الحكم والتقويم لا تعلوها أي قيمة ولو كان الأمر يتعلق بنص أو دين. ولقد تجلت هذه الصفة تخصيصا في أهل الغرب وفي مدنيتهم الحديثة "حتى كأن غيرهم إن لم يحرموا منها كليا، فلا أقل من أنهم لم يعرفوها في خلوصها وإطلاقها كما يعرفها هؤلاء".[21] ولعل نتائج هذا العقل المحصل عليها في مجال التقنية والعلوم هي التي أغرت المفتونين بالرفع من مكانته وتقديسه إلى درجة التأليه، وألهتهم عن النظر في جوانب النقص والقصور فيه.

ويقر بديع الزمان النورسي أن حسنات العقل ومنافعه ظاهرة لا يمكن نكرانها وذلك وجهه المشرق. ففي كلام لبديع الزمان يميز فيه بين أوروبا النافعة للبشرية وأخرى فاسدة تجسد الوجه السلبي الذي هو من نتاج العقل المجرد الذي أصبحت تدين به أوروبا عندما تحولت من النصرانية إلى العلمانية: "...ولئلا يساء الفهم لا بد أن ننبه: إن أوروبا اثنتان. إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحق، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاورة- هذا القسم من أوروبا. وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة".[22]

صحيح أن فوائد الحداثة العلمية والتقنية مصدرها هو تفعيل العقل حتى أصبح يحقق ذاته بواسطة أفعال مجالها متسع ومتنوع، فنشأت عن ذلك نظريات وصناعات وعلوم نفعها على البشرية ظاهر وجلي، دون أن ننسى أن فعل هذا العقل قد نشأ أولا في كنف النصرانية وعلى يد رجال الكنيسة ورهبانها؛ أو على يد علماء مؤمنين بالله ذوي مشروعات إصلاحية كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وبذلك كان هذا العقل في حركته الأولى ذا منزع إيماني، موجها من الدين ومؤيدا بتعاليمه. ولا شك أن عقلا نشأ في ظل هذا الكنف لا يمكنه أن يكون عقلا ضارا مطلقا، ولو كان الدين الذي يؤيده

هو النصرانية المحرفة، لأن ما بقي منها من تعاليم تدعو إلى التسامح والتصالح من شأنها أن تحد من غلوه وتجعله يحرص على تحقيق النفع في المقاصد والنجاعة في الوسائل. ولما كان الدين يدعو إلى مسؤولية الإنسان عن أفعاله وإلى الترهيب من سوءاتها فإن الشعور بالخوف من شأنه أن يكون زاجرا ورادعا له حتى لا تنقلب أفعال هذا العقل إلى مضار و مساوئ تعود على الناس بالويل والثبور. وهذا ما حدث فعلا حين اختار العقل أن ينفصل عن الدين وأن يشتغل في منأى عنه وعن مقاصده النافعة ووسائله الناجعة.

إن العقل المنقطع عن الدين يمثل المرحلة الثانية في تاريخ الحضارة والمدنية الغربية، وهو الذي كان سببا في فسادها وساق البشرية -كما يقول النورسي- إلى السفاهة وأوردها مهالك الضلالة والتعاسة. وتتجلى مظاهر العقلانية المنقطعة عن الدين في مجموعة من الصفات السلبية، هي التي يرجع إليها السبب في تقويض نظام الحضارة الغربية كما يقر بذلك فلاسفة ما بعد الحداثة، الذين قاموا بنقد لاذع للعقل الغربي ولنظامه العلمي والتقني. ولقد أرجع النورسي الصفات السلبية للحداثة الغربية إلى عنصرين اثنين هما: عنصر القوة وعنصر المنفعة.

٢-١. عنصر القوة: لما كان العقل مصدر العلوم والمعارف التي تحققت بسببها كثير من المنجزات العلمية أسندت إليه القدرة على التحكم في كل شيء، لا يحده عن ذلك عائق ولا يحول دونه مانع، حتى أصبحت الحداثة تتحدث - انبهارا بالعقل ومنجزاته - عن تأليه الإنسان أو تأنيس الإله. ولقد ترتبت عن هذه الرؤية صفات سلبية أخرى مثل الإحساس بتفوق الإنسان الغربي على غيره من الأجناس مما ولد لديه الرغبة في الهيمنة على أمم الأرض وقهرها واستغلالها وإذلالها، والشاهد على ذلك النزعة الاستعمارية التي صاحبت الحداثة الغربية. كل ذلك سببه كما يقول النورسي نمو النزعة العنصرية لدى الإنسان الغربي على حساب غيرها، ومن شأن العنصرية أن ينشأ عنها ''التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هنا ينشأ الدمار والهلاك''.[23] ولقد كانت الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين إحدى النتائج السلبية لهذا العقل الغربي الذي تضخم وانتفش - عنادا وغرورا - ''حتى بلغ السماء ومس حكمة الخلق، وأنزل من السماوات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا''.[24]

٢-٢. عنصر المنفعة: لما كان العقل الحداثي عقلا منقطعا عن الله والدين؛ منفصلا عن الأخلاق، فإنه ينسب إلى ما يسمى العقلانية المجردة، ومن صفاتها أنها لا تربط بين الأشياء وخالقها، وإنما تربط الأسباب والعلل بمسبباتها، لا تتعداهما إلى تدبر آيات الله خارج العلل المادية والربط بينها وبين خالقها الأصلي. وإلى ذلك يشير النورسي في كلام موجه إلى أوروبا قائلا: ''فيا أوروبا! ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة! وقسمت ملك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تعبد من دون الله''.[25]

إن الوقوف عند العلل والأسباب المادية في تفسير الظواهر والأشياء لمن شأنه أن يشيئ العقل. أي أن يجعله ذاتا مستقلة ينسب إليها تفسير الظواهر والموجودات كلها تفسيرا ماديا محضا، بدعوى أنه التفسير العلمي الذي يفسر الأشياء اعتمادا على بنيتها الظاهرة، وهذا نوع من الوثنية أصبحت تدين به العقلانية والحداثة، وإن كانت تدعي أنها حداثة لا دين لها ولا تؤمن بالغيب. والحق أنها عقلانية مجردة عن الأخلاق، منفصلة عن النصرانية، متصلة بالوثنية عندما تقف عند العلل المادية لا تتجاوزها. أليس في ذلك ظلم واعتداء على ملك الخالق تعالى، حين تنسب صنعته المحكمة ونظامه البديع وناموسه الكوني العام الذي يحكم الموجودات كلها ويسري على المخلوقات جميعها إلى آلهة أخرى لا تعقل شيئا خارج ذاتها كالعقل والعلم والطبيعة؟

ولما كانت العقلانية مادية التفسير وثنية المعتقد والدين وإن كانت تدعي عكس ذلك، فإن جانب النفع فيها يكتسي صبغة مادية خالصة، بل إنه ينتزع انتزاعا ويؤخذ عنوة واغتصابا، بل إن هذه الحياة كلها في مفهوم هذا العقل تقوم كما يقول النورسي على ''منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية''.[26]

ويرد النورسي نزعة الاستعلاء واغتصاب النعم عند الإنسان الغربي إلى جينات وراثية انحدرت إليه من أصول رومانية تمتد جذورها عميقا في التاريخ. فالرومان كان لديهم العقل مرادفا للمكر والدهاء والبطش والرغبة في الاستغلال والاستيلاء على الأرض وخيراتها قهرا واغتصابا. يقول بديع الزمان: ''كانت روما القديمة واليونان يملكان دهاء، وهما دهاءان توأمان، ناشئان من أصل واحد. أحدهما غلب الخيال

عليه، والآخر عبد المادة. ولكنهما لم يمتزجا، كما لا يمتزج الدهن بالماء. فحافظ كل منهما على استقلالها، رغم مرور الزمان، ورغم سعي المدنية لمزجهما، ومحاولة النصرانية لذلك. إلا أن جميع المحاولات باءت بالإخفاق."[27]

إن مما يؤكد صفة الدهاء التي تستحوذ على العقل الغربي هو النظر إلى النعم المبسوطة والمنتشرة في مناكب الأرض بأن لا مالك لها، ولا مولى يرعاها، وإنما يغتصبها الإنسان دون شكران ويقتنصها من الطبيعة، وبذلك تولد لديه شعور حيواني. أليست هذه النظرة هي نفسها التي كانت سائدة عند الرومان مما جعل حضارتهم قائمة على سلطان القهر واستغلال خيرات الأمم والشعوب؟ إنه الشعور نفسه والرؤية ذاتها التي انتقلت وراثيا إلى جينات الحضارة الغربية فجعل منها حضارة بطش وظلم واستعمار، خلافا لما عليه الأمر بالنسبة للحضارة الإسلامية التي كانت ترى في النعم المبسوطة على الأرض "ثمرات الرحمة الإلهية، وتحت كل منها يد المحسن الكريم، مما يحض الإنسان على تقبيل تلك اليد بالشكر والتعظيم".[28]

والآن وبعد أن مضى على الحداثة حين من الدهر، لم يعد ينظر إليها باعتبارها خيرا مطلقا أو نموذجا أعلى وأمثل، وإنما هي نموذج فيه من المحاسن والمنافع -كما يقول النورسي- مما لا ينبغي ألا ينكر، ولكن هذا الجانب ليس من صنع هذا العصر، بل هو نتاج العالم وملك الجميع.[29] كما أن فيه من المضار والمساوئ مما لا ينبغي قبوله والسكوت عنه. ومن أجل ذلك ارتفعت أصوات من داخل المنظومة الغربية ومن خارجها انتقدت عيوب هذا المنهج نقدا لاذعا وبينت سوءاته ومخاطره ثم قدمت حلولا وتصويبات بديلة من شأنها الاستدراك على الحداثة وتعديلها حتى تتحول إلى حداثة بديل، تستوعب النموذج القديم ثم تغير قيمه وروحه حتى لا يتعارض مع طبيعة الإنسان وطبعه وفطرته.

وتتلخص هذه الحلول والاقتراحات في أربع نظريات هي:

- نظرية المسؤولية: وهي تدعو إلى إقامة تصالح مع الطبيعة، يصير الإنسان بمقتضاه مسؤولا عن أفعاله، ويصير الشعور بالخوف من عواقب الأفعال زاجرا له عن نقض الميثاق الطبيعي.[30]

- نظرية التواصل: من بين دعاتها هابرماس الذي يدعو إلى تأسيس أخلاق شاملة عن طريق التناظر بين الجماعات والثقافات المختلفة، وتقييد المعرفة العلمية بمعايير كلية.[31]

- نظرية الضعف: لقد كشفت هذه النظرية أن العقلانية كلما طلبت الإحاطة بكل شيء انقلبت إلى ضدها، ولذلك دعت إلى ضرورة ''ترك الإكثار من التقنية ووجوب الزهد في طلب المزيد من القوة''.[32]

- نظرية التعبد: تنتمي هذه النظرية إلى منظومة الحضارة الإسلامية ويعتبر النورسي من بين الداعين إليها. ويشير في أماكن متفرقة من رسائله إلى أن بمقدور التعبد والإيمان أن يدفع عن الحضارة الغربية كل الآفات التي أصابتها جراء اعتمادها على العقل المجرد المؤدي إلى سلطان القهر والبطش. وإن استبدال نظرية التعبد القائمة على التوحيد والفضيلة والهدى بالعقلانية المجردة القائمة على التحكم المؤدي إلى الحسد والصراع من شأنها أن تقلب حال الحضارة ووضعها من سيء إلى حسن فالأحسن. يقول النورسي: ''لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية والإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب''.[33]

ويلخص النورسي أسس الحداثة والمدنية البديل القائمة على التعبد والفضيلة في خمسة مبادئ تناقض المبادئ التي تقوم عليها الحداثة الغربية وهي:

- ''... الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن، ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

- والفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة المحبة والتقارب ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة...

- والتعاون بدل الخصام والقتال (ومنه ينشأ) الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات...

- والهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم".

- ورابطة الدين وأخوة الإيمان بدل العنصرية والقومية السلبية، ومن شأن هذه الرابطة أخوة خالصة.[34]

فالحق والفضيلة والتعاون والهدى والدين أو الإيمان هي المبادئ التي تقوم عليها نظرية التعبد عند النورسي، ومن شأنها أن تخرج الإنسان من طلب حظوظ السيادة على الكون القائمة على القوة والمنفعة والصراع والأهواء والعنصرية إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون. أليس هو الذي سخر له هذا الكون تسخيرا ليعيش وإياه في توافق وانسجام بناء على قانون التعاون؟

إن هذا القانون يقول بديع الزمان جار بين المخلوقات "امتثالا لأمر الخالق الكريم الذي هو واضح جلي في أرجاء الكون كله كإمداد النباتات للحيوانات والحيوانات للإنسان... فيا سبحان الله! كيف يكون إمداد ذرات الطعام إمدادا بكمال الشوق لتغذية خلايا الجسم جدالا وخصاما؟ بل ما هو إلا سنة التعاون، ولا يتم إلا بأمر رب حكيم كريم!"[35]

* * *

قائمة المصادر والمراجع

- حميد سمير. خطاب الحداثة: قراءة نقدية. سلسلة روافد. رقم ١٥. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الكويت. مارس ٢٠٠٩/ربيع الأول ١٤٣٠هـ.
- روبيرتس. ج. م. موجز تاريخ العالم. ترجمة فارس قطان. منشورات وزارة الثقافة السورية. دمشق. ٢٠٠٤.
- السلطان عبد الحميد. مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة محمد حرب. دار القلم. دمشق. ط٣. ١٤١٢هـ/١٩٩١م

طه عبد الرحمن:

١- الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء –المغرب. ط٢. ٢٠٠٦.
٢- سؤال الأخلاق. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء –المغرب. ط١. ٢٠٠٠.

النورسي، بديع الزمان سعيد:

١- صيقل الإسلام. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر. إسطنبول. ط١. ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٢- الكلمات. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر. إسطنبول. ط٣. ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣- اللمعات. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر. إسطنبول. ط١. ١٤١٣هـ/١٩٩٢م

* * *

الهوامش:

[1] جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء -كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق- المغرب.
[2] حميد سمير، خطاب الحداثة: قراءة نقدية، سلسلة روافد، الكويت، ٢٠٠٩ ص: ٣٦.
[3] ج.م. روبرتس، موجز تاريخ العالم، ترجمة فارس قطان، دمشق ٢٠٠٤، ٦٢٨/٢.
[4] خطاب الحداثة، ص: ٤٨.
[5] مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب، دار القلم دمشق ١٤١٢هـ/١٩٩١ م، ص: ٢٧/٢٦.
[6] بديع الزمان النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر، ص: ١٨٤.
[7] بديع الزمان النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر، ص: ٨٦٠.
[8] موجز تاريخ العالم، ٦٠٩/٢.
[9] نفسه، ٦١٠/٢.
[10] خطاب الحداثة، ص: ٤٢.
[11] الكلمات، ص: ٨٧٧.
[12] نفسه، ص: ٨٥٩.
[13] الكلمات، ص: ٨٦٠.
[14] نفسه، ص: ٨٥٦.
[15] نفسه، ص: ٤٨٤.
[16] طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي ط١ س: ٢٠٠٠ ص: ١٤٧.
[17] طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط٢ س: ٢٠٠٦ ص: ٢٧.
[18] نفسه، ص: ٢٨.
[19] بديع الزمان النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر، ص: ٢٤.
[20] سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن ص: ٦٢.
[21] سؤال الأخلاق، ص: ٥٩.
[22] اللمعات، ص: ١٧٧.
[23] الكلمات، ص: ٨٥٥.
[24] نفسه، ص: ٨٦٠.
[25] الكلمات، ص: ٨٥٩.
[26] نفسه، ص: ٨٥٥.
[27] الكلمات، ص: ٨٥٧.
[28] الكلمات، ص: ٨٦٠.
[29] نفسه، ص: ٨٥٩.
[30] سؤال الأخلاق، ص: ١٤٢.
[31] نفسه، ص: ١٤٢.
[32] نفسه، ص: ١٤٢.
[33] بديع الزمان النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر، ص: ٥٠١.
[34] الكلمات، ص: ٨٥٦/٨٥٥.
[35] نفسه، ص: ٨٥٦.

ثقافة البيئة في الفكر الإسلامي
من خلال مدرسة بديع الزمان النورسي

–ABSTRACT–

The Culture of Environment in Islamic Thought Through the School of Bediuzzaman Said Nursi

Dr. Habiba Abu Zayd

Environment is one of the intellectual dilemmas stirring the interest of countries all over the world. This interest grows on a daily basis, due to the alarming increase in environmental destruction and disruption of vital elements on earth at the hands of humans.

This grave situation led many to voice their concerns, in spoken or written words, in order to address environmental safety and the necessity of preserving it. There are also those who have been striving to spread an environmental culture based on warning people about the severe negative consequences of environmental destruction for human life. However, these efforts did not achieve more than the passing of laws and the implementation of various punishments. The methodology of addressing the environmental dilemmas remained unable to fulfill its aim; humans did not tackle the core of this issue. This being that the destruction of the environment is an outcome of humans' attitude towards it, which eventually influences human thoughts and vision of life.

This means that addressing environment and other dilemmas facing humanity rely, in the first place, on the intellectual, moral, educational and emotional elements of humans. This calls for exploring what has been written in this matter in terms of the intellectual and moral aspects. Badiuzzaman Said Nursi, who is highly regarded as one of the most recognized names in modern Islamic thought, is among those shaping (as part of his reform project) a comprehensive environmental culture of intellectual and doctrinal, as well as emotional, behavioral and moral dimensions.

Reading Nursi's commentary, entitled "The Risale i-Nur", one can be perceive it as both an intellectual and spiritual voyage, a rational wandering with profound contemplation of the components of the universe and environment, and even more, an emotional and rational understanding of nature's beauty. Nursi's intellectual and emotional grasp of creatures serves as a strong

educational method in underlining a great foundation in Islamic doctrine; i.e. that every sign of artistry in this created world is a manifestation of the glory of Allah the Creator and His Beauty.

Hence, Nursi partakes in a comprehensive intellectual vision of the environment, which could be summarized as comprising three main characteristics constituting the foundations of environmental culture in Islamic thought as perceived, interpreted and applied by Nursi. This vision can assertively argue for an environmental culture in Islamic thought, and consquently, it is necessary that Muslims present it to the world as a beneficial added value to address the pervasive environmental dilemmas.

– ملخص البحث –

الدكتورة حبيبة أبو زيد[1]

إنّ قضية البيئة من المعضلات الفكرية التي استأثرت باهتمام جميع دول العالم. ويقوى هذا الاهتمام يوما بعد، مع تزايد تدمير البيئة واختلال العناصر الحيوية في الأرض بفعل الإنسان. وأمام خطورة الوضع كثر الكلام والكتابة حول سلامة البيئة ووجوب حفظها والحفاظ عليها، إلا أنّ ذلك لم يتجاوز وضع القوانين وسن العقوبات الزجرية، والعمل على نشر ثقافة بيئية مبناها التخويف والتحذير من الآثار الخطيرة لتدمير البيئة على حياة الإنسان. وبقي منهج معالجة معضلة البيئة قاصرا عن بلوغ المقصود، ولم يتوجه إلى الإنسان لب المشكلة، إذ خراب البيئة أثر من آثار سلوكه معها، وسلوكه أثر فكره ورؤيته للحياة. ومعنى ذلك أن معالجة معضلة البيئة وغيرها من المعضلات التي تواجه الإنسانية تستند بالدرجة الأولى إلى العنصر الفكري والمعنوي والتربوي والوجداني في الإنسان، مما يسترعي العناية بما كتب في معالجة المسألة من الناحية الفكرية والمعنوية، ويعد الأستاذ بديع الزمان النورسي، وهو من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، من أبرز من حرر في مشروعه الإصلاحي ثقافة بيئية شاملة في بعدها الفكري والعقدي، وفي بعدها الوجداني والسلوكي والخلقي. فمن يقرأ بتمعّن رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور'' يجدها سياحة فكرية روحية، وتأملات عقلية، ونظرات عميقة في أجزاء الكون والبيئة، وقراءات عقلية ووجدانية لجمال الطبيعة. وهذا التعلق الفكري والوجداني بالكائنات عند النورسي، منهج تربوي قوي في ترسيخ أصل عظيم من العقيدة الإسلامية وهو أن كل أثر وصنعة في هذا العالم المخلوق إنما هو تجليات لجلال الله تعالى الخالق وجماله تعالى. فالكون كله معرض لتجليات جمال الله وجلاله.

ومن هنا فللنورسي رؤية فكرية متكاملة في النظر إلى البيئة، يمكن اختصارها في ثلاثة معالم رئيسة هي أصول الثقافة البيئية في الفكر الإسلامي كما فهمها النورسي وتصورها وسار عليها. ويمكن لهذه النظرة أن تكون جامعة لثقافة البيئة في الفكر الإسلامي كما ينبغي للمسلمين أن يقدموها للعالم بصفتها قيمة مضافة نفيسة لمعالجة معضلة البيئة.

أصول ثقافة البيئة عند الأستاذ النورسي:

١ – الكون والكائنات كتاب منظور وشريعة كونية، صفتها الطهر والجمال، ونعتها الإحسان والإتقان.

٢ – النظر إلى البيئة بعين التقدير والتثمين والاحترام من مقتضيات منهج تجليات أسماء الله الحسنى في الكون، لأن الناظر من خلال هذه الرؤية يرى البيئة معرضا تتجلى فيه آيات الجمال الدالة على جمال الله تعالى وجلاله.

٣ – ثقافة البيئة التي تؤسس لها رؤية النورسي أساس في نظرية الجمال وفق ما تصوّر المستفاد من رؤيته، وهذا يقتضي ثقافة بيئية حقيقية. لأن جمال الكون طريق للتعرف إلى جلال الخالق والتذكير بالجمال الكامل والتشوف إلى النعيم الخالد.

فمن يستحضر هذه الأصول ينظر بعين التقدير إلى البيئة ويمارس تفاعلا ذوقيا معها فلا يستجيز إفسادها ولا الاعتداء عليها بوجه من الوجوه.

نص البحث:

لا يخفى على أحد أن قضية البيئة من المعضلات الفكرية في العصر الحاضر. فآثار الخلل في توازن البيئة ظاهر للعيان أنّ مبعثها تصرّفات الإنسان، ومخاطر تدمير البيئة وإفساد مكونات الفضاء الخارجي واضح تتجلى آثاره يوما بعد يوم. ولأجل تلافي ذلك تعقد الندوات والمؤتمرات في مختلف أصقاع العالم وفي مستويات مختلفة، فكثر التنبيه إلى ضرورة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من البيئة وحفظ التوازن البيئي، لاتقاء كوارث خطيرة تهدد الحياة على ظهر الأرض. إن الكائنات من حولنا، يذهب رونقها يوما بعد يوم، ويختل نظامها بفعل الهوس الاستهلاكي. وإن غاية الخبراء المختصين بالموضوع، وهدف أهل العلم والفكر في العالم، هو حمل كل من يعيش على ظهر الأرض على الوعي بخطورة الوضع، وبضرورة ضبط التصرف البشري للحد من تدمير العناصر الحيوية في البيئة. وبالرغم من الجهود الكبيرة المبذولة في جميع دول العالم

رسميا وأهليا (المجتمع المدني)، فإن المعضلة لا تزال قائمة. ومعنى هذا أن منهج معالجة المعضلة غير ناجع، أو ناقص في أحسن الأحوال.

غاية ما تقوم عليه ثقافة البيئة في العالم المعاصر التخويف من آثار خراب عناصر البيئة المختلفة، والتحذير من الخلل المحتمل في الحياة المادية والصحية والنفسية للإنسان، حتى غدا الكلام حول البيئة تخويفا وتهديدا، وانحصرت التربية البيئية في التعريف بالمخاطر وتوقع المفاسد، ووضع القوانين الزجرية. فكانت المعالجة قاصرة عن إحداث وعي حقيقي واستشعار باعث على المحافظة على البيئة، ذلك أنّه يفتقد للنظرة الشاملة ودور الإنسان فيها، إذ الإنسان سببها وفعله وسلوكه عليه مدارها صعودا ونكوصا، فتصرفه اليومي في العيش والاستهلاك مبعثها. وعنايته أو إهماله لجملة مكوناته (جسد وروح، فكر وسلوك، عقل وقلب) أساس نجاحها أو فشلها، لهذا لابد من تحرير ثقافة بيئية، ونشر ثقافة البيئة بالمعنى الواسع الذي يشمل الفكر والسلوك.

ونقصد بثقافة البيئة، بإيجاز جامع ''النظر الواعي إلى البيئة بنظر التقدير والاحترام، واستحضار قيمتها في الحياة، والتعلق المعنوي والوجداني بها ومحبتها، والعمل على صيانتها وحفظ توازنها، واحترام كل القوانين المتعلقة بها في العالم كله.''

وإن حمل الإنسان على هذا النظر الواعي وهذا الفهم بقصد إصلاح سلوكه في البيئة ومعها، لا يكون إلا باستشعار أهمية الرؤية العقدية في تغيير نظرته للبيئة، وهذا محلّه قلبه وله تعلق مباشر بوجدانه، مع استيعاب المسألة بعقله وعلمه، ثم تأتي بعد ذلك القوانين الزجرية، والإجراءات التعزيرية.

ولقد أسهم الباحثون المسلمون في المسألة ببيان قضية البيئة في الفكر الإسلامي من مصادر الأحكام والفكر الإسلامي من القرآن الكريم والسنة النبوية ثم الاستئناس بأنظار علماء الإسلام من الفقهاء وغيرهم من خلال تتبع القواعد والأحكام التي لها تعلق باحترام البيئة وصيانتها.

والأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله، من خلال مدرسته الفكرية، ومنهجه في العلم والتربية، أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر الذين يظهر لي أن ثقافة البيئة في شمولها وعمقها حاضرة في رسائله، ولهذا حضرت في منهجه قضية ثقافة البيئة. سنحاول بهذا الصدد الكشف عن معالم الثقافة البيئية وموقعها من منهجه في العلم والتربية.

يمتاز النورسي بمنهج خاص في التعامل مع ثقافة البيئة، وإنْ لم يفصح عنه

بصراحة، فهو مسلك مهم لحماية البيئة، فقد أورده في سياق مشروعه الإصلاحي الشامل، وصنّف ما ييسّر تحقيق هذا القصد، فوضع كليات فكرية، وقواعد منهجية، من لوازمها ضرورة امتلاك ثقافة البيئة. ولم يكتف بالتنظير فقط، بل دلّ على ذلك حاله وبيّنه بسلوكه اليومي رحمه الله في تعامله مع الكون من حوله، وما فيه من كائنات حية. فمن يطلع على بعض تصرفاته اليومية مع بعض مكونات الطبيعة، ومع الحيوان، والحشرات يعلم أنه يصدر في ذلك عن فكر شامل سديد، ونظر ثاقب رشيد يحمله على حماية البيئة ومحبتها بوصفها تجل من تجليات أسماء الله الحسنى، لهذا كانت وسيلة للتعلّق بخالقها، فيحفظ جمالها ويحذر من إفسادها والتأثير على توازنها.

إن من يقرأ رسائل النور التي أودع فيها النورسي خلاصة أفكاره، وزبدة منهجه، يجدها رسائل في بيان جمال الكون والطبيعة، تشدك إليها قلبا وقالبا وعقلا، من خلال تأملات دقيقة، وسياحات فكرية وروحية في الكون المخلوق، من أصغر جزئياته إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات، وما بين ذلك من عوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وحركاتها، وخصائصها وصورها، وتجليات الحسن والجمال في ذلك كله. إن النورسي رجل الحسن والجمال، يبحث عن الجمال والبهاء في كل أجزاء الكون، ينظر إليه باحترام وتقدير، لأنه يرى فيه تجليات جلال الله الخالق وآثار جماله سبحانه وتعالى. فلنستمع إليه في بعض هذه التأملات التي يحضر فيها معنى التقدير لجمال الطبيعة والكون، وكيف يتفاعل بقلبه وعقله مع الكائنات الجميلة.

قال الأستاذ: ''كنت جالسا ذات يوم في الطابق العلوي من فندق شهر عقب إطلاق سراحنا من سجن 'دنيزلي' أتأمل فيما حولي من أشجار الحور والصفصاف الكثيرة في الحدائق الغناء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلى بحركاتها الراقصة الجذابة تتمايل بجذوعها وأغصانها وتهتز أوراقها بأدنى لمسة من نسيم، فبدت أمامي بأبهى صورها وأحلاها وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل. مسّت هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبي المحزون من فراق إخواني، وأنا مغموم لانفرادي وبقائي وحيدا، فخطر على البال فجأة موسما الخريف والشتاء وانتابتني غفلة إذ ستتناثر الأوراق وسيذهب الرواء والجمال، وبدأت أتألم على تلك الصور الجميلة، وأتحسر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما شديدا حتى اغرورقت عيناي واحتشدت على رأسي أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الستار المزركش البهيج للكائنات''[2] فانظر كيف تتحرك أوتار قلبه، وتنهال عينه عبرات من جمال الكون وتجدده وتبدله.

وقال في الكلمات: ''كنت سارحا في رفقة غربتي أسرح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل فقادتني قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة فرنت إليّ على استحياء

من وسط هذا البساط الأخضر زهرة صفراء ساطعة النضرة وألوت جيدها إليّ تناغيني بود ومحبة، فأثارت مشاعري وأشواقي إلى زهرات مثلها التقيتها في ربوع بلدتي 'وان' وفي سائر المدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرة بعد أخرى فانهال هذا المعنى فجأة على قلبي".[3] فها هو في حوار روحي وتواصل معنوي مع الزهرة تهتز لها مشاعره.

وذكر في سياق آخر: "لقد أحصيت ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق بغلظ إصبعين، تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال، في بستان كرمه، فكانت مائة وخمسين عنقودا، وأحصيت حبات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين حبة فتأملت وقلت: لو كانت الساق الهزيلة خزانة ماء معسل وكانت تعطي باستمرار لما كانت تكفي أمام لفح الحرارة ما ترضعه لمئات الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة، والحال أنها قد لا تنال إلا رطوبة ضئيلة، فليزم أن يكون القائم بهذا العمل قادرا على كل شيء فسبحان من تحيّر في صنعه العقول."[4] فانظر هذا التقدير للمكونات، والإقرار الصادق لنفاستها ودقة صنعها، وما يلزم عن ذلك من الاعتراف بالصانع المنعم وشكره. ومن شكره النظر بالتقدير والاحترام لصنعته، والامتناع عن إفساد بهائها حياء من الصانع المنعم.

لقد كان للكائنات أثر بالغ في نفس النورسي، ففي كل صفحة من كتابه يرى قراؤه الكائنات ويحسون بجمالها ويستلذون بهاءها معه.

قال أستاذنا الدكتور فاروق حمادة: "لقد كان النورسي رحمه الله مرهف الإحساس، رقيق المشاعر، يقظ الفؤاد، نبيه الفكر، رأى الكون والطبيعة من حوله فتأمل فيها بهذا الإرهاف والنباهة. فعكس ذلك على قلبه أفكارا عميقة الغور بعيدة المدى إنه يرى كل شيء في هذا الوجود من حوله صغيرا وكبيرا فينظر إلى موضعه وغايته وهدف وجوده ويفجر منه الأحاسيس والأفكار وقد نثر ذلك في كتابه بما يضيق المقام عنه"، ثم يضيف قائلا:". إن القارئ ليشعر أن آيات الكتاب المسطور (القرآن الكريم) تفاعلت في كيانه مع آيات الكتاب المنظور (الكون)، فأبدع أروع الأفكار وأهم الرؤى والآثار، ومن تتبع ما كتب نجد أن أكثر ما أثر فيه منظر الربيع بما يضمه ويبتدئ فيه من حياة، ومنظر الخريف، وكيف يتغير فيه وجه الأرض ويستعد للموت، لذلك أكثر جدا من وصف هذا المنظر المؤثر البليغ علما بأنه تأمل في صغير المخلوقات وكبيرها من الأرض والسماء انتهاء إلى صغيرها كالأرضة والبعوضة والنحلة والذباب، وتأمل في النافع والضار وبين حكمة هذه الأضداد في مخلوقات الله وضرورتها وفائدتها."[5]

ويزيد الأمر بهاء وقدسية، وجمالا وعظمة عندما يربط جمال الكون والطبيعة بجمال الله وجلاله تعالى فيترآى الكون كله وكأنه مسجد تسبيح وتهليل للخالق العظيم جل جلاله.

وتجده في تأمل عميق لعالم الكائنات الحية وما فيه من نظام وحكمة، فينظر إليه نظر الاحترام لما فيه من الحكمة وغاية حفظ التوازن البيئي. فقد تأثر لمنظر إذاية الناس للذباب بقتله. فقال: ''عندما يقترب زمن تسريح الذباب من مهمة الحياة وذلك في موسم الخريف، يستعمل بعض من يقصد نفعه بالذات دواءً لمكافحة الذباب ليحولوا دون أن يمسهم شيء من الإزعاج، فمسّ ذلك رقة قلبي وأثّر فيّ كثيراً. علماً أن الذباب قد تكاثر أكثر من قبل على الرغم من استعمال الدواء القاتل. وكان في غرفتي في السجن حبل لنشر الملابس لأجل تنشيفها، فكانت تلك الطويرات الصغيرة جداً تتراصف على ذلك الحبل مساءً تراصفاً جميلاً منتظماً. فقلت لرشدي (وهو أحد تلاميذه): لا تتعرض لهذه الطويرات الصغيرة، انشر الملابس في مكان آخر.''[٦]

فانظر إلى هذا المقام السامي في التربية ورقة القلب والشفقة على الحشرات، فتستنكف نفسه عن إزعاجها وهي متراصة على الحبل الذي ينشر فيه ملابسه وهو في ضيق السجن وغربة الأسر.

ووجه ذلك أنه يرى فيها وجها للجمال هو جلال الخالق العظيم وحكمته. وذلك معنى قوله:

''إن هذه الطائفة من الذباب التي تنظّف وجهها وعينيها وجناحيها كل حين، وكأنها تتوضأ، تشكّل موضوعاً مهماً للآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.الحج:٧٣ بمعنى أنّ الأسباب وما يدّعيه أهل الضلالة من ألوهية من دون الله لو اجتمعت على خلق ذبابة واحدة لعجزت. أي إنّ خلق الذباب معجزة ربانية وآية تكوينية عظيمة، بحيث لو اجتمعت الأسباب كلها لما خلقت مثل تلك الآية الربانية ولا استطاعت أن تعارضها ولا تقليدها قطعاً. فتلك المعجزة قهرت نمرود، ودافعت عن حكمة خلقها دفاعاً فاق ألف اعتراض.''[7]

ونظر إلى النمل على أنه موظف صحي يؤدي مهمة سامية فقال: ''وكذا النمل موظف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم الإلهية وصيانتها من التلف والامتهان لئلا تداس تحت الأقدام، فضلاً عن جمعه جثث الحيوانات الصغيرة وكأنه موظف صحي.''[8]

وقال أيضا: ''وكذا النحل... تطعمك العسل الذي هو ألذّ غذاء وألطفه، وهي الملهمة بالوحي الإلهي كما نص عليه القرآن الكريم. فعليك أن توليها حبّك. إنّ العداء للذباب (الذباب هنا بمعنى كل ما له جناح) لا معنى له، بل هو ظلم وإجحاف بحق تلك الحيوانات التي تعاون الإنسان وتسعى لصداقته وتتحمل أذاه. وإنما يجوز مكافحة المضرة منها فحسب، وذلك دفعاً لأضرارها، كدفع ضرر الذئاب عن الأغنام.''[9] بل اعتبر الذباب أستاذا له يتعلم منه الجد والعمل فقال: ''اني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها. فقلتُ: لا تملكين شيئاً!. فقالت: فاذاً لا اهتم بما ليس لي من البدن.. فقلت: لابد ان لا تكوني اقل من الذباب.. فان شئتِ شاهداً فانظري الى هذا الذباب، كيفَ ينظِّفُ جناحَيهِ برجليهِ ويمسحُ عينيه ورأسه بيديه! سبحان من ألهَمَه هذا، وصيّره استاذاً لي وأفحمَ به نفسي!''[10]

... وهكذا يتبين أمام الأنظار مدى عظمة أمة الذباب الصغير هذا، ومدى عظمة وظائفها. وكأنها تقول بلسان الحال: لا تنظروا إلى صغر أجسامنا بل إلى عِظَم وظائفنا. وقولوا: سبحان الله.''[11]

فلا يشك من يقرأ هذا أن هذه نفس عالية، وعقل سام، ولا شكّ أنّه يصدر في ذلك عن فكر خاص وينظر بنظر خاص. أي إنّ له ثقافة أو فلسفة خاصة ينظر من خلالها إلى الكون والحياة، هي التي يتأثر لها قلبه، وتوجه سلوكه على هذا المنهج الخاص في النظر إلى الكون نظر التقدير والاحترام، والسعي إلى حفظ توازنه واحترام نظامه. استمع إليه مرة أخرى وهو يداعب بنظره وقلبه أنواع الذباب الطائرة، فيرى فيها الحكمة والقصد إلى التوازن فيقول: ''إن طائفة صغيرة جداً من الذباب تُخلق على هيئة كتلة سوداء، على أغصان اللوز والمشمش، في أواخر الربيع، وتبقى ملتصقة بالغصن، وتسيل منها بدلاً من الفضلات، قطرات شبيهة بالعسل فتتجمع حولها أنواع الذباب الأخرى وتمصها. وطائفة أخرى من الذباب تستخدم في تلقيح بعض أزاهير النباتات والأشجار المثمرة، كالتين. وطائفة أخرى للذباب، هي اليراع، المتلمعة ليلاً، وهي أعجوبة تلفت الأنظار وتدعو إلى التدبر والتأمل، كما أن قسماً منها تتلمع لمعان الذهب.'' ويذكر في السياق نفسه التنبيه إلى غيرها من الحشرات؛ فقال: ''ولا ينبغي أن ننسى البعوض والزنابير المجندات الحاملات للرماح. فلو لم تكن زمام هذه الذبان بيد الخالق الرحيم، وأغارت على الأحياء والإنسان لأفنت نوع الإنسان كما قتلت نمرود، ولفسّرت لنا المعنى الاشاري للآية الكريمة ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ﴾ ولهذا فإن جنس الذباب الذي يضم مائة من الطوائف المالكة للمزايا والخواص

المذكورة، لها أهميتها التي أهّلتها لتكون موضوع الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾. الحج:٧٣

فما هي هذه الفلسفة التي يصدر عنها وما هو هذا المنهج في التفكير الذي منحه هذا السمو في احترام جميع الكائنات؟ والإفصاح عن هذه الثقافة البيئية في أرقى مظاهرها؟ ذلك ما أحاول كشفه هنا. ويمكن جمع هذه النظرة في ثلاثة معالم رئيسية يمكن اعتبارها أصول ثقافة البيئة في الفكر الإسلامي من خلال منهج النورسي.

١ - الخلق والطبيعة كتاب منظور وشريعة كونية صفتها الطهر والجمال وسمتها الإتقان والإحسان.

٢ - منهج تجليات أسماء الله الحسنى وما يقتضيه من ثقافة البيئة.

٣ - نظرية الجمال عند النورسي وما تقتضيه من ثقافة البيئة.

الخلق والطبيعة كتاب منظور وشريعة كونية صفتها الطهر والجمال وسمتها الإتقان والإحسان:

أول معالم الثقافة البيئية من خلال منهج النورسي هو اعتبار الكون والطبيعة معرضا للجلال وموطنا للبهاء، يدل بنظامه على جلال الخالق العظيم تبارك وتعالى، وعلى قصده التعريف بجماله وجلاله. فمن يقرأ رسائل النور يشعر أنه في سياحة في أنحاء هذا العالم المخلوق بأجزائه العلوية والسفلية، والنورسي في ذلك يقتبس من منهج القرآن الكريم ويتشرب معانيه ومقاصده في النظر الصحيح الواعي إلى الخلق والطبيعة، وقراءة صور الجمال والبهاء المبثوثة فيهما ليرى في ذلك كله معرضا لتجليات التوحيد ودلائل الربوبية. وخلاصة هذا النظر -كما عبر أبو حامد الغزالي- فيما نقله عنه المناوي في "فيض القدير" في شرح حديث (إن الله جميل يحب الجمال): "فالعالم جمال الله وهو الجميل المحب للجمال. فمن أحب العالم بهذا النظر فما أحب إلا جمال الله، إذ جمال الصنعة لا يضاف إليها بل إلى صانعها"[12] وأصل ذلك في القرآن الكريم آيات كثيرة فيها وصف للكون المخلوق والامتنان به وبجماله على الخلق. وكلها تعريف بأصل هذا الجمال ومنبع هذا الإتقان، يقول الله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. إبراهيم:٣٢-٣٤

وفي الحث على التعلق بأجزاء الكون من حيث هو طريق سالك إلى معرفة الخالق قال عز من قائل: ''﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾. الملك:٥ وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾. ق:٦-١١

فالكون مخلوق طاهر مزين أودع فيه الخالق آيات الحسن والبهاء ليعرف بجلاله وجماله. يقول رحمه الله: ''فالطُهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهَد في قصر العالم البديع هذا ما هو إلا نابع من تنظيف حكيمٍ مستمر، ومن تطهير دقيق دائم.. فلولا هذه المراقبة المستديمة للنظافة، والعناية المستمرة بالطهر، لكانت تختنق على سطح الأرض -بأجوائها الموبوءة- مئاتُ الآلاف من الأحياء خلال سنة.. ولولا تلك المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة في أرجاء الفضاء الزاخرة بالكواكب والنجوم والتوابع المعرّضة للموت والاندثار، لكانت أنقاضُها المتطايرة في الفضاء تحطم رؤوسَنا ورؤوس الأحياء الأخرى، بل رأس الدنيا! ولكانت تمطر علينا كتلاً هائلة بحجم الجبال، وتُرغمنا على الفرار من وطننا الدنيوي...

نعم، مثلما ينظف الطيرُ أجنحته بسهولة تامة أو يطهّر الكاتب صحائف كتابه بيُسر كامل، فإن أجنحة هذه الأرض الطائرة -مع الطيور السماوية في الفضاء- وصحائف هذا الكتاب العظيم -أعني الكون- ينظَّفان ويطهَّران ويجمَّلان ويزيّنان بمثل تلك السهولة واليسر، بل إن تطهير سطح الأرض هذا وتنظيفه وتنسيقه وتزيينه هو من كمال الإتقان ما يجعل الذين لا يرون -بإيمانهم- جمال الآخرة يعشقون هذا الجمال وهذه النظافة لهذا العالم الدنيوي بل قد يعبدونه''. [١٣]

لقد ''كانت شدة التأثر للكون والطبيعة تريه يد القدرة الإلهية في كل شيء، وجمال الوجود يظهر له حكمة الخالق وجماله وجلاله في كل شيء، فجعل الكون والطبيعة شهب أدلة للملحدين وأنوار هداية للراغبين، فكان في هذا الباب مجددا فذا، وإماما متميزا رائدا يقود الظامئين لتحقيق العبودية بين يدي رب العالمين''. [14]

إن الطهر والزينة التي يكتسيها الكون أخذت بعقل النورسي وشدت إليها قلبه، فكان لهجا بجمال الطبيعة من حوله، فيجول في أجزاء الكون ويخاطب عناصر الطبيعة من أكبرها إلى أصغرها، يرتشف من خلال ذلك كله جمال الخالق تبارك وتعالى. فتراه يتأمل في السماء جامعا بين الكون المنظور والكتاب المسطور فيقول: ''فاستمع الآية

الكريمة ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ق:٦ ثم انظر إلى وجه السماء كيف ترى سكوتا في سكونة، حركة في حكمة، تلألؤا في حشمة، تبسما في زينة مع انتظام الخلقة، مع اتزان الصنعة، تشعشع سراجها، تهلل مصباحها، تلألؤ نجومها، تعلن لأهل النهى سلطنة بلا انتهاء"[١٥] وتراه أيضا ينظر إلى البحار والأنهار،[١٦].

وينظر إلى ألوان الأطعمة وصنوف الفواكه وفي الزهيرات الجميلة المتفتحة وفي كل ما تقع عليه عينه ويصطحب معه القارئ في هذه السياحة الفكرية والروحية فيقول: "وانظر إلى مضايف الرحمن الرحيم الكريم المنصوبة على سفرة الأرض كلها. وانظر إلى ما في هذه الأطعمة غير المحدودة من روائح طيبة متنوعة، وألوان جميلة متباينة ومذاقات لذيذة مختلفة، ثم أنعم النظر في أجهزة كل ذي حياة كيف أنها تتلاءم مع أذواق حياته ولذائذها.. فشاهد الجمال الحلو الذي لا جمال فوقه جمال الإكرام، والكريمية الربانية... تلك الصور البديعة الحكيمة... وتأمل في الوجوه الملاح لأزاهير الربيع وهي في غاية الجاذبية المتفتحة من بذيرات متناهية في الصغر.. فشاهد الجمال المعجز، جمال الفتاحية والمصورية الإلهية". [17]

بل حتى صور الشر يرتشف منها اللذة والجمال، لأنه وطن نفسه على أن الكون المخلوق سمته الجمال والطهر لأنه من خلق الجميل القدوس وذلك من أسرار قوله تعالى: ﴿الذي أَحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ﴾السجدة:٨ فيقول: "نعم، إنَّ كل شيء في الوجود، بل حتى ما يبدو أنه أقبح شيء، فيه جهة حُسنٍ حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلاّ وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها.. فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلاّ أنَّ تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة. فتحتَ حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة.. وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملةً نذر البين، وعازفةً لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قَرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة.

نعم! إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تختبئ تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت."[18]

ومن استحضر -كما فعل النورسي- أن الله تعالى خلق الكون طاهرا مزينا، استحيى أن ينجس ما طهر الله تعالى. ومن عرف أن الطبيعة والبيئة شريعة كونية، احترم هذه الشريعة في أحكامها، فلا يغيرها بالتقبيح والإفساد، لأنها فعل الخالق الجليل الجميل، ولأنها هدية أنيسة من هدايا رحمته الواسعة. لأن تغيير بهائها احتقار لهدية المنعم تبارك وتعالى. ومن نظر إلى الطبيعة على أنها هدية جميلة مزينة من الله تعالى هو الذي أبدعها ومنحها بهجتها، لا يسمح بحال لنفسه تغيير خلق الله وإفساد جماله وتدنيس بهجته!! وقد حذر الله تعالى من ذلك فقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١] فحذر الله تعالى الناس من فساد البيئة من حولهم، وأن ذلك إنما هو بفعل الإنسان. ومن لوازم ذلك أيضا أن الكون والطبيعة نعمة من الله، والنعمة تقتضي الشكر، وشكر النعمة بحسن استعمالها ورعايتها. ومن شكر نعمة البيئة رعايتها وصيانة جمالها. فمن أفسد البيئة فقد كفر نعمة الله تعالى عليه.

وكل هذا من مقتضيات العقيدة الإسلامية. فمن آمن بقلبه توجه إلى البيئة من حوله بالتقدير والحفظ والصيانة، لأنه يرى فيها معرضا لمعرفة ربه تعالى ومعرفة جلاله وجماله ووحدانيته وأسمائه وصفاته، ويرى فيها هدية إلهية ومنحة من ربه له فينظر إليها بعين التقدير والاحترام، ويستحيي أن يفسد ما جمل الله ويحذر أن يدنس ما طهر الله وزينه.

فهذا سر هذا التقدير العظيم من قبل النورسي للكون وللطبيعة. فالكون كتاب مخلوق تتلى فيه آيات التوحيد وتقرأ فيه علامات الجلال الإلهي وتعرض فيه أمارات الكمال الرباني. فأحبه لأنه يعرفه بربه ويدله على جلاله وجماله.

منهج تجليات أسماء الله الحسنى وما يقتضيه من ثقافة البيئة:

مما تميز به النورسي في منهج معرفة الله تعالى وصفاته وإحصاء أسمائه، التعرف إلى أسماء الله تعالى الحسنى من خلال تجلياتها في الكون وتتبع آثارها في الموجودات. فالكون معرض لتجليات أسماء الله الحسنى. يقول رحمه الله: "إن الجمال الذي هو في منتهى الكمال لابد أن يَشهَد ويُشهِدَ جمالَه. وإن الكمال الذي هو في منتهى الجمال لابد أن يَشهَد ويُشهِد كمالَه. فبناء على هذا الدستور العام فإن البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا، يعرِّف جمالَ كمالِه ويحبّبه بألسنةِ مخلوقاته -ابتداءً من أصغر جزئي إلى أكبر كلي- فيعرِّف سبحانه ذاتَه المقدسَّة، ويفهم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع، بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا."[19] فالنظام

والانتظام في الكون والزينة والحسن في العالم، والدقة في الخلق والميزان في التدبير ما هي إلا ظلال لتجليات معاني الأسماء الحسنى. وإن كل فرد من الكائنات المخلوقة قد ناله نصيب من هذا الجمال وتجلى عليه حظه من ذلك البهاء. هذا ما ارتشفه النورسي من المعاني وهو يتأمل بعقله وقلبه في الكون فيقول: ''تعال تأمل في هذا الجمال الزاهي، والحسن الباهر ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره توا... نعم، إن كل نوع من أنواع الكائنات، بل حتى كل فرد من أفرادها قد نال حسب قابليته حظاً من جمال الأسماء الإلهية الحسنى التي لا منتهى لجمالها.''[20] ولقد تتبع النورسي بتفصيل تجليات كل اسم من الأسماء فكانت رسائل النور بحق موسوعة في شرح أسماء الله الحسنى بمنهج التجلي وممارسة التفاعل العقلي والروحي مع الكون.

ففي بيان تجلي اسم القدوس يقول رحمه الله ''فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حَظَيا بتجلٍ من تجليات اسم الله 'القدوس' عليهما، حتى انه عندما تصدر الأوامر الإلهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها أيضاً أنواع الديدان والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الأوامر التنظيفية حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الأجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى **الذباب** يستمع لها فيقوم بتنظيف أجنحته دائماً.. ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الأوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها أيضاً الرياح الهوج والسحاب الثقال، فتلك تطهّر وجهَ الأرض من النفايات، والأخرى ترشّ روضَتها بالماء الطاهر فتسكّن الغبار والتراب، ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملة أدواتها ليعود الجمالُ الساطع إلى وجه السماء صافياً متلألئاً...وهكذا فان فعلَ التطهير هذا الذي هو فعلٌ واحد، ويعبّر عن حقيقة واحدة هو تجلٍ أعظم من تجليات اسم 'القدوس' الأعظم.''[21] فكل مظاهر التطهير في الكون تجليات لاسم الله القدوس. وهذا الاسم ''جعل موجودات الكائنات نظيفة طاهرة، صافية زكية، مزينة وجميلة''.[22]

ومن اسم الله تعالى **المحيي** واسمه **المميت** يتجلى التجدد والتنوع في الكون، وتقلب أجواء البيئة بين موسمي الخريف والربيع. ففي كل حين تشهد الأرض موكب

انتقال ورحيل لمن أنهوا مهامهم من المخلوقات، وفي الحين نفسه موسم كبير لمواليد جديدة تتسلم مهامها.[23]

ولنظرية التجلي هذه فائدة في التربية على ثقافة البيئة وهي أن من يستحضر هذه المعاني ينظر بعين التحسين والتقدير لكل ما خلق الله، لأنه مرايا جماله، فلا يستجيز لنفسه أبدا أن يدنس ما جمل الله أو يقبح ما حسنه، فيعظم الحرمات، ومنها حرمة الإنسان لأنه يرى فيه تجليات جمال أسماء الله تعالى ''الخالق'' ''البارئ'' ''الرزاق'' ''المصور'' المحيي'' ''المميت''. ولا يمكن لمن ينظر بمنظار تجليات أسماء الله الحسنى، أن يفسد جمال شجر أو نبات أو ماء لأنه يرى فيه فعل التحسين والتجميل من الخالق العظيم الجميل. ولهذا فإن منهج استحضار تجليات الأسماء الحسنى أصل عظيم لحماية البيئة، فمن يتخذ الكون مذكرا بجمال الله وعاكسا لجلاله وبهائه لا يحتمل أن يرى فيه قبحا. ولهذا الوجه جعل الرسول حماية البيئة وحفظ جمالها من شعب الإيمان في قوله: ''الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.''[24]

نظرية الجمال عند النورسي وما تقتضيه من ثقافة البيئة:

خلاصة نظرية الجمال عند النورسي[25] أن الإنسان يطلب الجمال. وجمال الدنيا منقوص غير كامل، تلتبس به المشقة. وإنما الجمال الكامل والسعادة الحقة في دار الخلد حيث النظر إلى وجه الله تعالى الجليل الجميل، فلا يحصل للإنسان الارتواء في الدنيا. ولهذا نصب الخالق العظيم في الكون علامات تدل على جماله وتذكر به، وتجعل الإنسان يتشوف إلى نعيم الآخرة ولذة الجنة. ومنح الله تعالى الإنسان الجوارح والحواس ليبقى على تواصل مع العالم من حوله يرى فيه ويلمس ويذوق قبسا يسيرا من اللذة والجمال يدله على غيره ويذكره بجلال الله وجماله، فيبقى مدة حياته متشوفا إلى النعيم الغامر والجمال الكامل بدخول الجنة والنظر إلى وجه الله تعالى الجليل الجميل.

تبدأ رحلة الإنسان في البحث عن كمال الجمال من الحياة الدنيا ثم يرتقي في منازله ويتقلب في ظلاله عبر لمحات سريعة من غير توقف ولا ارتواء، وإنما للتشوف والتذكير، لأن الرحلة منطلقة إلى مشهد خالد دائم. يقول رحمه الله وهو يصف هذه الرحلة في طلب الجمال الخالد: ''ونحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في

دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزراً يسيراً بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلاّ لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنزهات خالدة ومَشاهدَ أبدية.''[26]

ومعنى هذا أن الكون والطبيعة معرض لقبسات من جمال الله الذي بثه في الكون للتذكير بالجمال الخالد. فجمال الطبيعة إذن وسيلة للتذكير بالجمال الخالد الكامل. ومن اعتقد أن جمال الكون وسيلة للتذكير بالجمال الخالد توجه إليه بالتقدير والاحترام لأنه يرى فيه معرضا وإعلانات عن جمال الله وجلاله تعالى. وبهذا فنظرية الجمال هذه أصل لترسيخ ثقافة البيئة وحفظها وصيانتها.

إن نظرية الجمال كما وضعها النورسي، تؤسس منهجا عقديا وتربويا في النظر إلى البيئة والتعلق بها والتواصل معها على أنها معرض للمخلوقات تشع بأنوار الأسماء الحسنى، وتعرف بأصل الجمال وتدل على كماله، وتذكر بالجمال الخالد عند لقاء الجليل الجميل.

من خلال هذه المعالم يشدك النورسي إلى جمال الكون والطبيعة في تفاعل فكري وروحي، يرسخ به قواعد عقدية وتربوية وسلوكية في التعامل مع البيئة. وهي قواعد يشهد لها القرآن الكريم، ويؤيدها النظر السليم. ومن تشرب هذه العقيدة لم يستجز لنفسه إفساد بيئة أو تدمير نعمة من الكون. وهذا وجه من وجوه الإبداع والتفرد عند النورسي رحمه الله. وعن هذا المعنى في الإبداع ووجهه وسببه يقول الدكتور فاروق حمادة عنه: ''إن ظروف وحدته في سجونه وتنقلاته، فتحت على الكون عين بصره وبصيرته، فأصبح يرى ما لا يراه المغمورون في خضم الحياة. وبحكم ما تكنه حناياه ومشاعره من آي القرآن، تولد لديه إحساس مرهف بهذا الكون من حوله ففجر طاقات عظيمة جدا، واقتبس نزرا من النماذج الكثيرة الوفيرة التي تبين لنا مدى تأثيره وتفاعله بهذا من حوله... إن الإمام النورسي قد فتح الله عليه بأفكار جديدة ورؤى سديدة لا يجدها الباحث عند سواه، ولم يسبقه إليها أحد ممن نحا منحاه''.[27]

* * *

المصادر والمراجع:

- ''كليات رسائل النور'' لبديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة احسان قاسم الصالحي. شركة سوزلر للنشر. ط٣. ٢٠٠٣ م.
- ندوة ''جهود بديع الزمان النورسى فى تجديد الفكر الإسلامي في القرن الرابع عشر للهجرة'' بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مارس ١٩٩٩م.

- ''إشراقات نورية من الديار المغربية'' للدكتور عبد الكريم عكيوي.ط١. ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م. منشورات جمعية المركز المغربي للثقافة والتنمية والتعاون بتنسيق مع مركز استانبول للثقافة والعلوم. مطبعة النجاح الجديدة.
- ندوة ''الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا'' جامعة ابن زهر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير. أبريل ٢٠٠٥ م.

* * *

الهوامش:

[1] كلية الشريعة، جامعة ابن زهر بأكادير/المغرب.
[2] الكلمات، ص: ٢٦.
[3] الكلمات، ص: ٨٢٢.
[4] الكلمات، ص: ٣٣٧.
[5] ''الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي''، الدكتور فاروق حمادة ندوة ''جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي''، ١٧-١٨ مارس ١٩٩٩م. كلية الآداب بالرباط.
[6] اللمعات، ص: ٤١٠.
[7] اللمعات، ص: ٤١١.
[8] نفسه، ص: ٤١٢.
[9] اللمعات، ص: ٤١٣.
[10] المثنوي العربي النوري، ص: ١٦٨.
[11] نفسه، ص: ٤١٤.
[12] ''إشراقات نورية من الديار المغربية'' للدكتور عبد الكريم عكيوي ص ١١٥.
[13] اللمعات، ص: ٥١٨.
[14] ''الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي'' للدكتور فاروق حمادة. ندوة ''جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي.
[15] المكتوبات، ص: ٧١٩.
[16] ينظر الشعاعات، ص: ١٥٠.
[17] الشعاعات، ص: ٩٠-٩١.
[18] الكلمات، ص: ٢٤٩-٢٥٠.
[19] اللمعات، ص: ٥٣٠.
[20] الشعاعات، ص: ٣٦.
[21] اللمعات، ص: ٥١٨ - ٥١٩.
[22] اللمعات، ص: ٥٩١ - ٥٩٢.
[23] ينظر ''نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور''، للدكتور عبد الكريم عكيوي. ''ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا''، ص: ٦٢.
[24] ينظر: ''إشراقات نورية من الديار المغربية''، للدكتور عبد الكريم عكيوي، ص: ٢٧.
[25] ينظر في تفصيل هذه النظرية ''إشراقات نورية من الديار المغربية''، ص: ٩٩ ١٢٧.
[26] الكلمات، ص: ٧٢.
[27] ''الكون والطبيعة فى فكر الإمام النورسى''. ندوة جهود بديع الزمان النورسى في تجديد الفكر الإسلامي في القرن الرابع عشر للهجرة، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مارس ١٩٩٩م.

موقف رسائل النور من منهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة في بحث مسألة النبوة

–ABSTRACT–

The position of Risale-i Nur collection on the approach of philosophers, theologians and mystics regarding the research on the prophethood issue

Dr. Asya Shakirab

Bediuzzaman Said Nursi Gave special attention to the research on prophethood in his Risale-I Nur collection; he dealt with various issues and subjects while referring to the holy Qur'an and the Hadith. His vision of the prophethood concept was characterized by his depth of knowledge as he investigates our need of prophethood in its many aspects.

From this overall perspective on this concept, Nursi criticized the physical and mental philosophical approach in his research on prophethood with the conviction that philosophy is perverted and is in contradiction with the innate divine approach; it also lacks logic and reason when it ascend the mind above all. As for the approach of theologians who rejected the prophethood of Muhammad (may peace be upon him), believing that the Christ is a god that came down to save mankind from sin by his crucifixion, Nursi criticized this approach as an intellectual and as a thinker. Regarding the mystics approach on the prophethood research, they assumed that the saint precedes the prophet; Nursi has answered to this allegation through a scientific approach based on arguments and proofs.

– ملخص البحث –

الدكتورة آسيا شكيرب[1]

أولى النورسي اهتماما خاصا بمبحث النبوة في مجموع رسائل النور، وقد عالج من خلالها قضايا وموضوعات متنوعة اعتمادا على القرآن الكريم والأحاديث النبوية. وقد اتسمت نظرته لمفهوم النبوة بالعمق المعرفي الذي يثري المفهوم ويتجاوزه ليبحث عن ثمرة النبوة وحاجة الإنسانية لها في شتى مجالاتها.

وانطلاقا من هذه النظرة المعرفية الشاملة لمفهوم النبوة، كان للنورسي موقف خاص من منهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة في البحث عن النبوة؛ فقد انتقد النورسي المنهج الفلسفي المادي والعقلي في بحثه عن النبوة، انطلاقا من قناعته أن الفلسفة المفسدة الخارجة عن نطاق المنهج الرباني الفطري، كما أنها تفتقر إلى المنطق والعقل عندما ترفع العقل وتصعد به فوق كل شيء. أما منهج اللاهوتيين الذين رفضوا نبوة محمد ﷺ، قناعة منهم بأن المسيح الإله نزل ليخلص البشرية من الخطيئة بموته على الصليب، فلا ضرورة تقتضي ارسال الأنبياء، وقد كان للنورسي وقفة العارف المفكر الناقد إزاء هذا المنهج اللاهوتي. وأما منهج المتصوفة في البحث عن النبوة، فقد أفضى بهم للقول بأفضلية الولي عن النبي، ولأن هذه الدعوى ذات صلة وثيقة بالعقيدة، حرص النورسي على ردها وفق منهج علمي يستند على الحجج والأدلة.

مقـدمة:

تمثّل رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي إرثا فكريا متنوّع الجوانب، وحاجة الأجيال اللاحقة إليه ماسة، إذ تعكس عالما تتماوج فيه الأفكار والأحاسيس والمشاعر، في وحدة معرفية متمازجة الجذور، فكليات رسائل النور فيض معرفي علمي بثّ النورسي فيه كل ما استلهمه من نور القرآن الكريم من معاني الإيمان، وهذا بإحياء معاني القرآن ومقاصده في النفوس والعقول والأرواح. وقد اصطبغت الكليات بهذه الميزات، ونحاول في هذا البحث التدليل عليها بالتركيز على ركن ركين في رسائل النور، فاخترنا البحث في مسألة النبوة، وهي من المواضيع التي أعطاها النورسي حقها من البحث والدراسة، إذ طرق البحث فيها بإسهاب وتركيز له مبرراته الواقعية؛ فقد عاش في مرحلة زمنية مجّدت فيها القيم الغربية المادية النفعية، واعتل فضاء الفكر الإنساني، فسيطر على قلب النورسي التفكير في الخروج من الوضع المتأزّم الراهن، واعتصره الألم وهو يشهد وضع العالم الإسلامي، الذي استبدل المنهج الرباني بالفكر المادي. فانطلق ليثبت أن النور هو العودة إلى كتاب الله والتمسك بالسنة المطهرة. ورأى أن للنبوة نورا ومقصدا من مقاصد القرآن الكريم، وانطلاقا من عمق معرفته وشمولية فكره كان للنورسي موقف خاص من كل منهج يحيد عن طريق الرؤية الصحيحة للنبوة، ولعلّ الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة من أهمّ من تناول مسألة النبوة، لهذا تعيّن علينا بيان موقفه منها.

لأجل بيان موقف النورسي ومسلكه في مناقشة آراء الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة من النبوة، اعتمدت التحليل الأفكار وإعادة بنائها، كما استعنت بالمنهج الاستقرائي، فهو ضروري في بناء الوحدات الأساسية لمنهج النورسي، وعمدت إلى توظيف مادة متنوعة تتناسب ومطالب الموضوع وطبيعته، وقسمت البحث وفق ما ييسّر لنا بيان حقيقة النبوة لدى كل من الفلاسفة والمتصوفة واللاهوتيين، ثم أعقبتها بذكر آراء النورسي:

أولا: منهج الفلاسفة في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي منه.
١/١ منهج الفلاسفة في بحث مسألة النبوة.
٢/١ موقف النورسي من آراء الفلاسفة في مسألة النبوة.
ثانيا: منهج اللاهوتيين في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي.
١/٢ منهج اللاهوتيين في بحث مسألة النبوة.
٢/٢ موقف النورسي من آراء اللاهوتيين في مسألة النبوة.
ثالث: منهج المتصوفة ومنهجهم في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي.
١/٣ منهج المتصوفة في بحث مسألة النبوة.
٢/٣ موقف النورسي من آراء المتصوفة في مسألة النبوة.
خاتمة.

أولا: منهج الفلاسفة في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي منه من خلال رسائل النور.

١/١ منهج الفلاسفة في بحث مسألة النبوة.

اهتم الفلاسفة الإغريق ببحث مسألة النبوة والعرافة حتى إن أفلاطون قد سمح لبيثيا (عرافة معبد دلفي) أن تؤدي وظيفتها في جمهوريته المثالية[2] ويشرح ديموقريطس Démocrite[3] كيفية ظهور "الصور" المحتمل أن تكون أجساد الآلهة نفسها، ويمتد أثرها على العقل، فيتكشف على الأحداث المستقبلية.[4] وكان أرسطو Aristote في مرحلته الأفلاطونية مقتنعا بأن العقل له القدرة على التخيل والعرافة بسبب خصوصية طبيعته التي تنتمي للعالم الروحاني، ثم في مراحل لاحقة، قال بأن النبوة والعرافة تحدث أثناء النوم،[5] وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التي تتعظم قوتها أثناء النوم على إثر تخلّصها من أعمال اليقظة، والأحلام فهي لا تأتي من الله، فمن لديهم تجربة الرؤى الصادقة ليسوا هم الأفضل ولا الأحكم، بل هم الأكثر عرضة للأحزان.[6]

وقد حاول فلاسفة المسلمين التوفيق بين النظرة الفلسفية للنبوة وبين الدين، أي بين العقل والنقل، بين لغة السماء (كما يتصورونها) ولغة الأرض، وحاولوا أن يشرحوا لغة السماء ويوضحوا كيفية وصولها إلى العالم الأرضي، فكوّنوا نظرية النبوة كمحاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين، والفارابي كان أول من ذهب إليها، وهي تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة، وتتصل اتصالا وثيقا بالأخلاق، فالفارابي يفسر النبوة تفسيرا سيكولوجيا، ويعدها وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء.[7] يرى الفارابي -وفق طريقة أفلاطون- أن المدينة الفاضلة كل مرتبط الأجزاء كالبدن الواحد، ولابد أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع عمل خاص، وأسمى وأشرف الأعمال ما اتصل برئيس المجتمع، لأنه من المدينة الفاضلة كالقلب من الجسد، لهذا نجد الفارابي يعلّق آماله على رئيس المدينة -كما علّق أفلاطون آماله على رئيس الجمهورية- وقد وضع له العديد من الشروط، وأضاف شرطا أبعده عن أفلاطون، وقرّبه من التعاليم الإسلامية، وهذا الشرط هو ضرورة أن يسمو رئيس المدينة إلى درجة العقل الفعّال الذي يستمد منه الوحي والإلهام. والعقل الفعّال[8] أحد العقول العشرة المتصرفة في الكون، وهو أيضا نقطة الاتصال بين العبد وربه، ومصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية.[9]

ويرى الفارابي أن الاتصال بالعقل الفعّال ميسور من طريقين، طريق العقل وطريق المخيلة، أو طريق التأمل وطريق الإلهام، فبالنظر والتأمل يستطيع الإنسان أن يصعد إلى منزلة العقول العشرة، وبالدراسة والبحث ترقى نفسه إلى درجة العقل المستفاد حيث تتقبل الأنوار الإلهية.[10] وليست النفوس كلها قادرة على هذا الاتصال، فالأرواح القدسية وحدها القادرة على السمو لتخترق حجب الغيب وتدرك عالم النور.[11]

يضيف الفارابي أن الاتصال بالعقل الفعّال ممكن أيضا عن طريق المخيلة، وهذا ما يحدث للأنبياء، فكل إلهاماتهم وما ينقلون إلينا من وحي منزل أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها، فللمخيلة دور هام في استنزاله، وتنفذ إلى نواحي الظواهر النفسية المختلفة، فهي متينة الصلة بالميول والنزوعية بما يستثيرها ويوجهها نحو غرض ما، وتغذي الرغبة والشوق بما يؤججهما ويدفعهما إلى السير في الطريق حتى النهاية، وبهذا يشير الفارابي إلى المخيلة المبدعة (imagination créatrice) التي تكلم عنها علماء النفس المحدثون، بجانب المخيلة المحافظة (imagination conservatrice) ومن الصور الجديدة التي تخترعها المخيلة تنتج الأحلام والرؤى.[12] فالفارابي يرى أن ميزة

النبي أن تكون له مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعّال أثناء اليقظة وفي حال النوم، وبهذه المخيلة يصل إلى ما يصل إليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحي أو الرؤى الصادقة، وليس الوحي شيئا سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعّال.[13]

وخلاصة القول أن النبي والحكيم عند الفارابي هما الشخصان الصالحان لرياسة المدينة الفاضلة، وكلاهما يحظى في الواقع بالاتصال بالعقل الفعّال[14] الذي هو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية لنظام المجتمع، وأما الفارق بينهما فيتلخّص في كون النبي يحظى بهذا الاتصال عن طريق المخيلة، والثاني عن طريق البحث والنظر. فالنبي والفيلسوف عند الفارابي يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصدر رفيع، والحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحي، وأثر من آثار الفيض الإلهي على الإنسان عن طريق التخيل أو التأمل.[15] وعلى ذلك فالنبي لا يصل إلى الوحي عن طريق المخيلة فحسب، بل بما فيه من قوى عقلية عظيمة. [16]

ونستنتج من ذلك أن النبوة ضرب من المعرفة يصل إليها الناس على السواء. فبتأثير العقل الفعّال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العامة، وبتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضا، وإذا ما عظم إشراقه سما البعض إلى مرتبة الإلهام والنبوة.[17]

٢/١ آراء النورسي حول المنهج الفلسفي في فهم مسألة النبوة.

يرتكز منهج النورسي في الرد على الآراء المخالفة على التمعن في القرآن الكريم ليتجهز بالأدلة الشافية، انطلاقا من يقينه بسمو القرآن وشموليته. فهو يرى أن مناهج المفكرين المختلفة أدت إلى فقر الإنسانية والابتعاد عن ماهيتها.. ويرى أن لديه السلاح الأمثل الذي سينسي الأمة آلامها؛ إذ يقول: ''لقد تحملت آلامي الشخصية كلها، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني، إنني أشعر بأن الطعنات التي وجهت إلى العالم الإسلامي أنها توجه إلى قلبي أولاً ولهذا تروني مسحوق الفؤاد. ولكني أرى نوراً سينسينا هذه الآلام إن شاء الله''.[18]

يرى النورسي أن الفلاسفة مجّدوا العقل[19] ورأوا أنه السبيل الأوحد للوصول إلى المعرفة وأنكروا أي موقف آخر تجاه معنى ومغزى العالم. وينتقد الفلسفة كثيرا عندما تنفصل وتبتعد عن النبوة، ويتهم أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا[20] بأنهم ''مهّدوا

''مهّدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، أمثال: عَبدة الأسباب وعَبدة الأصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم 'الأنانية' لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، وغلّقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلّوا في أوحال الطبيعة ولا نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع.''[21]

يتبين من كلام النورسي أنه يهاجم الفلسفة الفاسدة المفسدة، فهو لا ينكر الفلسفة اذا امتزجت بالدين وكانت خادمة له، يقول النورسي: ''الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة.''[22] ويمكن أن نستنتج مما سبق أن النورسي لا يتخذ موقفا سلبيا من الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا، بل يناقش أفكارهم وآراءهم بعيدا عن إصدار الأحكام والخوض في التصنيف العقدي.

ويمثل النورسي الفلسفة العاصية للدين بكونها اتخذت صورة شجرة زقوم خبيثة تسهم في نشر الشرك والضلال؛ أما الحكمة والتي تعترف بالنبوة فقد أثمرت ثمرات طيبة في الكرة الأرضية، فتدلت قطوفا دانية من غصن القوة العقلية.[23]

وقد ركز النورسي على الدور السلبي للفلاسفة اليونانيين والمسلمين على حد سواء، وأكد على أنهم فتحوا الباب لسبل كثيرة أبعدت الناس عن سبيل عبودية الله تعالى حين قالوا أن الحصول على المعرفة وإدراك الحقائق متوفر عن طريق العقل الفعّال، فلا يكون للإنسان حاجة إلى النبوة، فعقله قادر على توفير ما يحتاجه. وهم بهذا القول عطلوا فطرة الإنسان. ويؤكد النورسي على أن الاعتماد الزائد عن حده على العقل يوجِد هوية إنسانية لا تملك قيماً ومعاني أعلى منها. يقول النورسي: ''هذه القاعدة للفلسفة القديمة تعطي للأسباب القائمة والوسائط نوعا من الشراكة في الربوبية، وتظهر أن القدير على كل شيء والغني المطلق المستغني عن كل شي بحاجة إلى وسائط عاجزة، بل ضلوا ضلالا بعيدا فاطلقوا على الخالق جلّ وعلا اسم مخلوق وهو العقل الأول، وقسموا ملكه بين وسائط، ففتحوا الطريق إلى شرك عظيم''.[24]

لقد عرفنا سابقا أن الفلاسفة من القائلين بأنّ الفيلسوف والنبي يتلقيان المعرفة من العقل الفعّال، ونجد النورسي ينطلق من أرضية فكرية خصبة ليعقد مقارنة بين النبوة والفلسفة، فيقول بأن الفرق بينهما مثل الثريا والثرى، فالنبوة تهدف إلى رفع الإنسان من وهدة الثرى إلى أعلى عليين، لتلحق روحه إلى رب العالمين، أما الفلسفة فهي سجن رهيب لروح الإنسان، تجعله في خضم الأسباب المادية والأطماع الروحية، والفارق الرهيب بين نتائج كل من المسلكين تكون في نظرة كل منهما إلى جوهر الإنسان وأسرار ''أنا''[25] التي أودعها الله فيه.[26]

فتعامل الأنبياء مع الإنسانية ينبع من فهمهم الصحيح لما تحمله ''أنا'' من أسرار إلهية، فهم يحاولون أن يبرزوا ما فيها من أنوار وتلك هي الرسالة السامية التي بعثوا من أجلها. أما الفلسفة فتتعامل مع ''أنا'' بالمعنى الاسمي، تاركة وظيفتها الفطرية مما يولد في الإنسان الشرك والشرور والضلالات ويبعده عن رب الأرضين والسماوات.[27]

ويرى النورسي أن في تاريخ البشرية منذ سيدنا آدم -عليه السلام- إلى الوقت الحاضر، تيارين عظيمين وسلسلتين للأفكار، كأنهما شجرتان ضخمتان أرسلتا أغصانهما وفروعهما في كل صوب، أحدهما: سلسلة النبوة والدين؛ وثانيهما سلسلة الفلسفة والحكمة. ''فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، في أي وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه، وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة، ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة''[28] ويبدو من كلام النورسي أنه لا يقف ضد الفلسفة حين تتحد بالدين.

ويرى النورسي أن الفلسفة نظرت إلى الأنا بالمعنى الاسمي، أي أنها تقول أنا يدل على نفسه بنفسه، وهذا يقتضي أن معناه في ذاته، ووجوده أصيل، أي له ذاتية خاصة به. وقد اعتقد كثير من رواد الفلسفة ودهاتها -على حد تعبر النورسي- أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي، بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي التشبه بالواجب، أي الخالق جلّ وعلا، فأطلقوه حكما فرعونيا طاغيا. بينما الذين هم في مسار النبوة حكموا حكما ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي السجايا السامية التي يأمر

بها الله سبحانه وتعالى، وأن يعلم الإنسان عجزه فيلوذ برحمة الله تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى. فالفلسفة العاصية للدين قد ضلت ضلالا بعيدا، وصار الأنا ماسكا بزمام نفسه، مسرعا إلى نوع من أنواع الضلالة، فنبتت شجرة زقوم على قمة هذا الوجه من ''أنا'' غلطت بضلالها نصف البشرية وحادت بهم عن سواء السبيل.[29]

ومما تقدم يمكن القول أن النورسي اعتنى بالرّد على المنهج الفلسفي في نظرته للنبوة، حرصا منه على أن لا تُساوى هذه المنّة الإلهية، بالإدراكات البشرية، فردّ بعناية فائقة على حصول المعرفة عن طريق العقل الفعال لدى الفلاسفة.

ثانيا: منهج اللاهوتيين في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي منه من خلال رسائل النور.

١/٢ منهج اللاهوتيين في بحث مسألة النبوة.

النبي في اللاهوت المسيحي إنسان يتكلم باسم الله ليطلع على إرادته، وفي الجيل المسيحي الأول كان هناك مسيحيون ملهمون من الله خلفوا أنبياء العهد القديم في الإرشاد.[30]

وأول نبي في العهد الجديد هو يوحنا المعمدان، ويرى اللاهوتيون النصرانيون أنه أعظم الأنبياء، لأنه جاء ليهيئ الطريق أمام المسيح.[31] ويقرن اللاهوت النصراني مفهوم النبوة بمفهوم العهدين القديم ''العهد القديم'' و ''العهد الجديد''، فمن الناحية النظرية لم يختلف تعريفهم النبي عن مفهوم اليهود له، فالنبي هو الذي ينبئ بالأحداث المستقبلية، ويكون واسطة بين يهوه وشعبه،[32] لكن من الناحية الواقعية، فالله خاطب الناس عن طريق ابنه الوحيد والأقنوم الثاني من الأقانيم المقدسة، الذي بنزوله وافتدائه البشرية بدأ معه عهدا جديدا، فالنبوة وصلت ذروتها في المسيح نفسه، فهو الابن الذي أعلن الأب وتمم مشورته.[33] ويرى اللاهوتيون أن الله كلّم البشرية في ابنه الذي هو بهاء مجده ''وقد كلمنا الأب في الأيام الأخيرة في ابنه الذي.. هو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته''،[34] وقد اعترفت الجموع بأنه نبي، وهذا بسبب الأعمال العظيمة التي رأوه يقوم بها[35] أما أهم نبوءات المسيح فتتمحور النبوءة حول اقتراب ملكوت الله، ونبوءات عن خراب أورشليم والهيكل، ونبوءة مجيء ابن الإنسان في مجد أبيه.[36]

ومن الواضح أن اللاهوت النصراني يميّز بين نبوة المسيح ''يسوع'' -حسب التعبير اللاهوتي- والتي تشير إلى كون المسيح هو النبي ومحور النبوة، الذي حلّ في التاريخ البشري لينفذ خطة خلاصية، ونبوة رسله -رسل المسيح-[37] التي تتلخص في كونهم القادة الروحيين في المجتمعات النصرانية الأولى، وقد وهبهم المسيح كل المواهب بما فيها النبوة،[38] كما كانوا يقومون بخدمة التعليم والوعظ، وإنشاء الكنيسة، وكانت أقوالهم من الروح القدس مباشرة.[39]

ويمكن القول أن اللاهوت النصراني أغلق باب النبوة بمفهومها العام، ووضع إطارا لاهوتيا خاصا لمفهوم النبوة، يجعل من المسيح الإله الابن هو محور النبوة.

٢/٢ موقف النورسي من مسألة النبوة في فكر اللاهوتيين.

لم يُفصّل النورسي في النبوة لدى اللاهوتيين كما فعل مع الفلاسفة والمتصوفة، لكن في محاولة لاستقراء موقفه من العقائد النصرانية[40] يمكننا بناء تصور عام، انطلاقا من كون النبوة في اللاهوت النصراني عبارة عن خطاب الله الناس عن طريق ابنه الوحيد والأقنوم الثاني من الأقانيم المقدسة.

ويبدو من خلال تفسير النورسي لبعض آيات القرآن الحكيم التي ترسخ وحدانية الله، نفيه ألوهية المسيح، وبنوته، ففي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص:٣-٤ هناك نفي للولد والوالدية، ونفي المحال لا فائدة منه في الظاهر، ''لذا فلا بد أن يكون المراد من نفي الولد والوالدية اللذين لهما خصائص الجسمانية، هو نفي الألوهية عن كل من له ولد ووالد وكفو، وبيان عدم لياقتهم للألوهية.''[41] ويضيف النورسي توضيحا آخر للآية الكريمة بقوله: ''فالله منزه عن كل رابطة تتعلق بالموجودات تُشم منها رائحة التوليد والتولد، وهو مقدس عن كل شريك ومعين ومجانس، وإنما علاقته بالموجودات هي الخلاقية، فهو يخلق الموجودات بأمر ﴿كُنْ فَيَكُون﴾ بإرادته الأزلية وباختياره. وهو منزه عن كل رابطة تنافي الكمال، كالإيجاب والاضطرار والصدور بغير اختيار... فالله أزلي، أبدي، أول وآخر، لا نظير له ولا كفو ولا شبيه، ولا مثيل ولا مثال في أية جهة كانت، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وإنما هناك ''المَثَل'' ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ الذي يفيد التشبيه في أفعاله وشؤونه فحسب.''[42]

من الملاحظ أن النورسي يستعمل مصطلح الولدية للدلالة على المصطلح اللاهوتي البنوة،[43] وفي هذا تأكيد على أن معنى البنوة يقتضي الولدية لا محالة. وبانتفاء الولدية أو البنوة ينهار صرح النبوة المسيحية، فالمسيح ليس ابن الله ولا الأقنوم الثاني من الأقانيم النصرانية، وبالتالي لم يعد للمفهوم اللاهوتي للنبوة أي دلالة بانتفاء ألوهية وبنوة المسيح.

يركز النورسي على مسألة الوسائط، إدراكا منه بأنّ أي وسيلة تتوسط بين الله وعبده هي في الحقيقة حجاب يحول دون التوحيد الخالص، وقد شدّد النورسي على ضرورة التمييز بين الأسس التي يقوم عليها الإسلام والأسس التي تقوم عليها النصرانية الحاضرة، ويقول أن الإسلام دين توحيد " يسقط الوسائط والأسباب، ويكسر الأنانية ويؤسس العبودية الخالصة"[44] فأساس "الإسلام هو التوحيد الخالص " فلا يسند التأثير الحقيقي إلى الأسباب أوالوسائط، ولا قيمة لها فالإسلام من حيث الإيجاد والخلق. وأما النصرانية، فإن فكرةالبنوة التي ارتضوها، تعطي أهمية للوسائط وقيمة للأسباب، فلا تكسر الغرور والتكبّر بل يسند قسطا من الربوبية الالهية إلى الأحبار حتى صدق عليهم قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.التوبة:٣١ ومن هذا فإن عظماء النصارى يكونون متعصبين لدينهم، مع أنهم يحافظون على غرورهم وأنانيتهم رغم ما يتسلمون من مهام دنيوية كبيرة".[45] وفي الحقيقة النورسي أبدع في قوله: "وأما النصرانية فإنها قبلت فكرة الولديّة. فلذلك تعطي الوسائط والأسباب قيمة " فالابن أو الولد حلّ بين البشر ليفتدي نفسه عن الخطيئة الأولى، وهذا يعني أن النصارى قد قبلوا فكرة الخلاص بالواسطة، فالواسطة الفدائية تقدح في التوحيد الخالص، فمن تمام الألوهية المغفرة دون حاجة لوسائط، وهنا أيضا نلمح نفيا لوساطة وألوهية المسيح، وبالتالي نفيا لنبوته حسب المفهوم اللاهوتي.

ويمكن القول أن النورسي لم يكن في ردّه على ألوهية وبنوة المسيح، متوجها لنقد منهج اللاهوتيين في رؤيتهم للنبوة، لكن أدلته المستعملة في الرّد على ألوهية وبنوة المسيح، تصلح لبناء رد معرفي قوي.

ثالثا: منهج المتصوفة في بحث مسألة النبوة وموقف النورسي منه من خلال رسائل النور.

١/٣ منهج المتصوفة في بحث النبوة.

١ - متصوفة السنة: بحث المتصوفة موضوع النبوة والولاية،[46] انطلاقا من تعريفهم للولاية، فقد تقاربت معانيها عندهم، وتصب جميعها في معنى الحفظ والعناية مع تحصيل الكرامات، ويعرفها الخطيب البغدادي بقوله: " الولاية أن يتولى الله الواصل على حضر قدسه، بكثير مما تولى به النبي من حفظ وتمكين واستخلاف وتصريف."[47] أما الخزّار فيعرف الولاية بقوله: "إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عبيده فتح باب ذكره، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو وحينئذ صار العبد زمنيا فانيا، فوقع في حفظه"؛[48] والفرق بين النبوة والولاية "أن النبوة كلام ينفصل من الله وحيا، ومعه روح من الله فيقضى الوحي ويختم بالروح.. والولاية لمن ولى الله حديثه على طريق أخرى، فأوصله إليه فله الحديث، وينفصل ذلك الحديث من الله ﷻ، على لسان الحق معه سكينة، تتلقاه السكينة في قلب المحدّث، فيقبله يسكن إليه".[49]

وقد ساوى بعض الصوفية بن النبوة والولاية، قال ابن عجيبة: "وكل ما قيل في جانب النبوة يقال مثله في جانب الولاية"[50] "وما وقع من التفرق والاختلاف في جانب النبوة يقع في جانب الولاية سنة ماضية"[51] "ما قيل في منكري خصوصية النبوة يقال في منكري خصوصية الولاية إذا اشتغل بأذاهم"[52] ويقول أيضا: "ما قيل للرسول ﷺ من تعديد النعم عليه، واستقراره بها، يقال لخليفته العارف الداعي إلى الله، حرفا بحرف، فيقال له: ألم نوسع صدرك لمعرفتي، ووضعنا عنك أوزارك حين توجت إلينا، أو وضعنا عنك أثقال السير، فحملناك إلينا، فكنت محمولا لا حاملا، ورفعنا لك ذكرك حين هيأناك للدعوة، بعد أن أخملنا ذكرك حين كنت في السير لئلا يشغلك الناس عنا، فإن مع عسر المجاهدة يسر المشاهدة، فإن فرغت من الدعوة والتذكر، فاتعب نفسك في العكوف في الحضرة، فإذا فرغت من كمالك فانصب في تكميل غيرك، وارغب في هداية الخلق"[53] ويقول لسان الدين الخطيب: "الولاية أن يتولى الله الواصل على حضر قدسه، بكثير مما تولى به النبي ﷺ من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف

وتصريف، فالولي يساوي النبي في أمور منها: العلم من غير طريق العلم الكسبي، والفعل بمجرد الهمة، فيما لم تجر به العادة أن يفعل إلا بالجوارح والجسوم، مما لا قدرة عليه لعالم الجسوم... والولي يأخذ المواهب بواسطة روحانية نبيه، ومن مقامه يشهد، إلا ما كان من الأولياء المحمديين، فإنه لما كان نبيهم جامعا لمقامات الأنبياء، وأوصل إليهم أنوارهم من نور نبيهم الوارث، وبواسطته فإنه هو الذي أعطي جميع الأنبياء والرسل مقامهم في عالم الأرواح، ثم شاركت الأولياء والأنبياء في الأخذ عنه''.[54]

وأما ابن عربي فيعرف الولاية بأنها ''الفلك المحيط العام، ولهذا لم تنقطع؛ وأما نبوةالتشريع والرسالة فمنقطعة. وفي محمد ﷺ قد انقطعت، فلا نبي بعده: يعني مشرعا أو مشرّعا له، ولا رسول وهو المشرع.''[55] ويرى ابن عربي أنّ ''الله لطف بعباده فأبقى لهم النبوة العامة التي لا تشريع فيها، وأبقى لهم التشريع في الاجتهاد في ثبوت الأحكام، وأبقى لهم الوراثة في التشريع فقال ''العلماء ورثة الأنبياء'' وما ثم ميراث في ذلك إلا فيما اجتهدوا فيه من الأحكام فشرعوه. فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي وعارف، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع. فإذا سمعت أحدا من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال الولاية أعلى من النبوة، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه. وهو أن الرسول عليه السلام -من حيث هو ولي- أتم من حيث هو نبي''[56] فتبدو الولاية هنا جامعة للنبوة والرسالة، وأن النبوة والرسالة نابعتان من الولاية أو راجعتان إليها، ولذا تفضل الولاية كلا من النبوة والرسالة في ذات الشخص الواحد الموصوف بهذه الأوصاف الثلاثة مجتمعة.[57]

ويتكلم ابن عربي عن فكرة الوراثة التي تتضمن انتقال شيء ما من مواريث الأنبياء الخاصة بهم إلى الأولياء؛ وهذه الفكرة تعني أن الولاية تابعة للنبوة وتمثل صورة من صور التبعية لها؛ يقول ابن عربي ''وإن كنت وليا فإنك وارث نبيا، فما يجيء إلى تركيبك إلا بحظك من الورث ونصيبك'' ويضيف ''فإنه لا يرث أحد نبيا على الكمال، إذ لو ورثه على الكمال لكان هو رسولا مثله و نبي شريعة تخصه''.[58] ويقول أيضا: ''واعلم أن النبوة والولاية تشتركان في أشياء، الواحد في العلم من غير تعلّم كسبي، والثاني في الفعل بالهمة فيما جرت العادة ألا يفعل إلا بالجسم أو لا قدرة للجسم عليه، والثالث في رؤية عالم الخيال في الحس، ويتفرقان بمجرد الخطاب، فإن مخاطبةالولي غير مخاطبة النبي، ولا يتوهم أن معارج الأولياء على معارج الأنبياء،

ليس الأمر كذلك... لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلي، ومعارج الأولياء بما يفيض من النور الأصلي".[59]

ويبدو مما تقدم أن بعض متصوفة السنة ساووا بين الولاية والنبوة، وأما ابن عربي فيرى أن الولاية تفضل النبوة والرسالة في شخص النبي نفسه.

٢- متصوفة الشيعة: أما النبوة عند متصوفة الشيعة فهي "قبول النفس القدسي حقائق المعلومات والمعقولات عن الله تعالى بواسطة جوهر العقل الأول المسمى جبريل تارة وبروح القدس أخرى، والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والتابعين"[60] والولاية هي: "الولاية عبارة عن قيام العبد بالله، وتبديل أخلاقه بأخلاقه، وتحقيق أوصافه بأوصافه... بحيث يكون علمه علمه، وقدرته قدرته، وفعله فعله."[61] "والولاية هي التصرف في الخلق بالحق على ما هم مأمورون به، من حيث الباطن والالهام دون الوحي، لأنهم -أي الأولياء- متصرفون فيهم به لا بأنفسهم، وذلك لأنهم فنوا عن أنفسهم وبقوا به -بالحق- وبوجوده، وصاروا هو هو من حيث الحقيقة والذات، وغيره من حيث التعين والتشخص، وهذا الفناء عبارة عن الفناء في العرفان، لا الفناء في الأعيان."[62] ويقول حيدر الآملي:[63] "وفي الحقيقة، الولاية هي باطن النبوة، التي ظاهرها التصرف في الخلق بإجراء الأحكام الشرعية عليهم، وبإظهار الأنباء والارشاد لهم بأخبار الحقائق الإلهية والمعارف الربانية كشفا وشهودا. والفرق بين النبي والرسول والوليّ أن النبي والرسول لهما التصرف في الخلق بحسب الظاهر والشريعة، والولي له التصرف فيهم بحسب الباطن والحقيقة. ومن هذا قالوا: النبوة تنقطع، والولاية لا تنقطع أبدا"،[64] وفي موضع آخر يقول: "النبوة هي الاطلاع على الحقائق الالهية علما وبيانا؛ والرسالة هي الاطلاع عليها كشفا وعيانا وذوقا ووجدانا؛ والولاية هي الاطلاع على معرفة الذات والصفات والأسماء بالذات، أي الاطلاع الذاتي الحقيقي، دون العقلي والعلمي والكشفي، المخصوص بالرسل والأنبياء، ذلك لأن طور النبوة والرسالة له -أي للرسول والنبي- خلاف طور الولاية، لأن طور الولاية بنفسه فوقهما."[65] ويضيف: "اعلم أن كلّ رسول يكون نبيا، ولا يكون كل نبي رسولا كما أن كل نبي يكون وليّا، ولا يكون كلّ وليّ نبيا. وأيضا لا يكون نبيا إلا وتكون ولايته أقدم على نبوته، كما لا يكون رسولا إلا ونبوته أقدم على رسالته، والنبوة باطن الرسالة وكل واحدة منهما أشرف وأعظم من الأخرى ولا شك أن بواطن الأشياء أعظم من ظواهرها، لأنها محتاجة إليها، وهي مستغنية عنها وكلّ غني عن شيء أعظم

من الآخر المحتاج إلى ذلك.''[66] ويحاول الآملي أن يبرهن على كون الولاية أعظم من النبوة بهذا الدليل: ''فكل ما يكون أقرب إلى البواطن يكون أعظم وأقلّه من الجهتين المعتبرتين: الأولى من جهة استغنائه، والثانية من جهة قربه إلى الحق، لأن قرب الأشياء إلى الحق بالبواطن لا بالظواهر...بل لا يمكن إلا بها، فحينئذ كل مرتبة من المراتب المذكورة يكون أعظم من الأخرى، أعني مرتبة الولاية تكون أعظم من مرتبة النبوة، ومرتبة النبوة تكون أعظم من مرتبة الرسالة''؛[67] وبعد أن برهن حيدر الآملي على كون الولاية أعظم من النبوة والرسالة، أضاف قائلا:'' وها هنا دقيقة شريفة لا بدّ من ذكرها. وهي أنّ الولاية وإن كانت في الحقيقة أعظم من النبوة، والنبوة أعظم من الرسالة، لكن ليس الوليّ أعظم من النبي، ولا النبيّ أعظم من الرسول، لأن النبي له مرتبة الولاية وفوقها مرتبة النبوة وكذلك الرسول له مرتبتان بعد الولاية.. فالدقة في هذا هي أن تعرف أن المراد بأن الولاية في الشخص المعيّن يكون أعظم من طرف نبوته''[68]

ويضيف حيدر الآملي بأن الشيعة تتفق على أن أمير المؤمنين وأولاده أعظم من جميع الأنبياء والأولياء بعد النبي ﷺ، ويقول: ''وهو عند التحقيق ليس إلا هذا المعنى، يعني مرتبته ومرتبة هؤلاء الأئمة من حيث الولاية أعظم من مرتبة هؤلاء الأنبياءوالرسل من حيث الولاية.''[69] ويقول في موضع آخر فيما يخص ولاية علي كرّم الله وجهه:'' إن باطن هذا النبي، الذي هو مقام ولايته، يأخذ من الله تعالى بلا واسطة غيره، ويفيض على ظاهره الذي هو مقام النبوة. ولكن مقام ولايته، في عالم الظاهر، مخصوص بخاتم الولاية، الذي هو مخلوق من نوره الخاص، الذي هو روحه وحقيقته، لقوله أنا وعلي من نور واحد''.[70]

ويرد الآملي على الاسماعيلية والنصيرية الذين قالوا بأن مرتبة علي كرّم الله وجهه أعظم من مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام بقوله:'' لأن النصيرية لمّا شاهدوا أن الباطن أعظم من الظاهر، وتحققوا أن الباطن له مرتبة الولاية، والظاهر له مرتبة النبوة، وعرفوا احتياج الظاهر للباطن من جميع الوجوه ذهبوا إلى أن الأولياء أعظم من الأنبياء وأن عليّا -عليه السلام- أعظم من نبينا ﷺ حتّى وقعوا فيما وقعوا ووصلوا إلى ما وصلوا نعوذ بالله منهم ومن تابعيهم. وكذلك النصيرية لمّا شاهدوا منه أمرا ما يمكن يصدر من نبيّ ولا بشر مطلقا، قالوا بألوهيته وكفروا به.''[71]

ويظهر مما تقدم أن بعض المتصوفة سواء السنة منهم أم الشيعة ساووا بين الولاية والنبوة، والبعض الآخر قال بأفضلية الولاية على النبوة في شخص النبي نفسه، وليس على الإطلاق، وهذا ما قاله ابن عربي من متصوفة السنة وحيدر الآملي من متصوفة الشيعة، لكن يبدو أن لبعض الباحثين قراءة مختلفة لما استنتجناه، يقول إحسان إلهي ظهير ''ولا أدري كيف يدافع من يدافع عن ابن عربي بأنه لا يفضل الولي على النبي، بعد هذه التصريحات كلها؟ حيث يجعل خاتم الأولياء منبع العلوم، ومصدر الفيض لجميع الأنبياء والرسل، وأنهم لا يستمدون إلا منه، ولا يستقون إلا من المنهل والمورد ولا يستضيئون إلا من مشكاته.. ولذلك ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية في رسائله بشدّة عليه، وعلى من نهجه وسلك مسلكه، في رسائله وكتبه، ونسب كلامه إلى الكفر الذي تكاد السماوات يتفطرن منه''؛[72] ويضيف مبينا أن موقف المتصوفة هو نفسه موقف الشيعة بخصوص تفضيل الولاية على النبوة فيقول: ''فهذه هي عقيدة المتصوفة في الأولياء، والولاية، عين تلك العقيدة الشيعية الشنيعة التي ذكرناها من قبل، وهي تتضمن تفضيل الأولياء على أنبياء الله ورسوله والبعض الآخر كتموها عملا بالتقية التي لم يأخذوها أيضا إلا من الشيعة''.[73] وعلى العموم سواء قال المتصوفة بأفضلية الولاية على النبوة بصفة خاصة أم عامة، فقد كان للنورسي موقف واضح ودقيق من منهجه.

٢/٣ موقف النورسي من مسألة النبوة عند المتصوفة.

يفرق النورسي بين الصوفية كنهج روحاني، وبين الفكر الصوفي المائل عن الخصيصة الآنفة الذكر، ويرى أنه لا يمكن الحكم على الصوفية بسيئات مذاهب ومشارب أطلقت على أنفسها ظلما اسم الطريقة، وربما اتخذت لها صورة خارج دائرة التقوى بل خارج نطاق الإسلام.[74] ويرى أن الطريقة لها نتائج سامية سواء منها الدينية أو الأخروية أو الروحية، فهي من الوسائل الإيمانية التي توسع من دائرة الأخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي.[75]

ويقف النورسي وقفة المفكر الموضوعي، الذي لا يقبل الانحرافات الفكرية أو العقدية، ويرى أن الاعتقاد بأرجحية الولاية على النبوة من المزالق الخطيرة في الفكر الصوفي، وقد شدّد النكير على من يرى اقتراب مقام الولاية من مقام النبوة فضلا عن أن يكون أعلى منها، قال في هذا الخصوص: ''إن الورطة التي يسقط فيها سالكون من الطرق الصوفية -ممن لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح- هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة'' ويقول النورسي: ''ولقد أثبتنا مدى سمو النبوة على

الولاية وخفوت ضوء الأخيرة أمام نور النبوة الساطع في الكلمة الرابعة والعشرين والكلمة الحادية والثلاثين من كتاب الكلمات"،[76] وبأسلوب غاية في الفرادة يقارن النورسي بين ضوء الولاية ونور النبوة، وهذا في معرض كلامه عن المعراج النبوي، فيقول النورسي: "المعراج النبوي مظهر رفيع سام للولاية الأحمدية، ظهر بكليةٍ تفوق جميع الولايات وبرفعةٍ وعلو يسمو عليها جميعا، إذ إنه تشرف بمكالمة الله سبحانه وتعالى ومناجاته باسم رب العالمين وبعنوان خالق الموجودات".[77]

يشبه النورسي ضوء الولاية برجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط حسب سعتها نورا وضياء، فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليس بمقدار عِظم الشمس. أما نور النبوة فيشبهه برجل يجابهه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها، ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب، ويقابلها بالذات دون حجاب.[78]

فالصورة الأولى: تبين درجات الغالبية العظمى للولايات السائرة في ظلال الأسماء الحسنى والصفات الجليلة ومراتبها نابعة من هذا القسم، والصورة الثانية: تبيّن سر المعراج الأحمدي، فولايته مبدأ لرسالته، وباطن المعراج ولاية، إذ عرج من الخلق إلى الحق تعالى، وظاهر المعراج رسالة إذ يأتي من الحق سبحانه وتعالى إلى الخلق أجمعين.[79]

وبعد أن ردّ النورسي على من رأى أن الولاية أفضل من النبوة، رد على من قال بأن الأولياء أفضل من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وبيّن أن للصحابة الكرام خواص متميزة من الصحبة النبوية، بحيث لا يمكن للأولياء أن يبلغوا مرتبتهم فضلا عن أن يتفوقوا عليهم.[80] "فالصحبة النبوية إكسير عظيم لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالون من أنوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنين من عمره في السير والسلوك".[81]

أشار النورسي إلى المغالين من أهل التصوف الذين يظنون خطأ أن الإلهام بمرتبة الوحي، واعتبارهم الإلهام نوعا من أنواع الوحي، وقال بأن هذا المسلك خطير جدا، فالوحي سام عال وساطع وضاء وكلي شامل، بينما الإلهام جزئي وخافت.[82]

ويمكن القول أن ما قدّمه النورسي في بيان شفوف مرتبة النبوة على مرتبة الولاية

هو في حقيقته مجمل ما قرره علماء العقيدة من أهل السنة والجماعة في الموضوع، وقد كان منهجه التمثيلي مساعدا في توضيح الفوارق الكامنة بين النبوة والولاية.

خاتمة:

اعتبر بديع الزمان النورسي أن شمس النبوة حقيقة ثابتة لا يمكن أن يستغني عنها العالم المعنوي، كما لا يمكن أن يستغني العالم المادي عن الشمس المادية الملموسة، لهذا لا نجده يهتم في رسائل النور بالتعاريف اللغوية أو الاصطلاحية للنبوة، بل ركّز على وظائفها الحقيقية ومعانيها الجوهرية المتصلة بمهمة الأنبياء والرسل، وحاول تتبع كل الصور والمفاهيم الخاطئة عن النبوة.

يلاحظ قارئ رسائل النور أن الإمام النورسي انتقد المنهج الفلسفي المادي والعقلي في بحثه عن النبوة، وركّز كثيرا على الدور السلبي للفلسفة التي تبعد عن سبيل عبودية الله تعالى، وردّ على الفلاسفة بخصوص تلقي المعرفة والإدراك عن طريق العقل الفعّال، وبيّن بكل براعة أن الإنسان لن يكون في حاجة لله ما دام عقله قادر على توفير ما يحتاجه. كما أكّد على أنّ الاعتماد الزائد عن حده على العقل يوجِد هوية إنسانية لا تملك قيماً ومعاني أعلى منها.

أما منهج اللاهوتيين الذين رفضوا نبوة محمد ﷺ، قناعة منهم بكون أن المسيح الإله نزل ليخلص البشرية من الخطيئة بموته على الصليب، فلا ضرورة تقتضي إرسال الأنبياء بعد خلاص المسيح الكفاري، وقد ركز النورسي وقفة العارف المفكر الناقد إزاء هذا المنهج اللاهوتي.

وأما منهج المتصوفة في البحث عن النبوة، فقد أفضى بهم للقول بأفضلية الولي عن النبي، ولأن هذه الدعوى ذات صلة وثيقة بالعقيدة، حرص النورسي على ردها وفق منهج علمي يستند على الحجج والأدلة.

إن المتتبع لمنهج النورسي في دراسته للنبوة والرّد على التفسيرات المختلفة من قبل الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة، يجد أن معرفته عميقة لمفهوم النبوة وما يتبعها من قيم ومبادئ ونظم ومعطيات. وهو يعمد للتحليل المنقب عن التفاصيل، يفكك القضايا المختلفة ثم يبحث أسرارها ومقاصدها وثمارها بالتركيز على حاجة البشرية جمعاء للنبوة عبر العصور وفي شتى المجالات.

* * *

الهوامش:

[1] أستاذ محاضر في مقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة_ الجزائر.

[2] A.J. Heschel: The prophets, (New York, 1971), vol 2, p 236

[3] ديموقريطس الأبديري، فيلسوف يونانى، (ت نحو سنة ٣٧٠ ق.م)، أسس مدرسة أبديرسنة ٤٢٠ ق.م، من مصنفاته: ''فيثاغورس أو: تصرف الحكيم'' و ''فى الفضيلة'' و''فى جهنم''، وقد فقدت سائر مصنفاته حوالى القرن الثالث بعد الميلاد. (محمد أحمد منصور: موسوعة أعلام الفلسفة، ط١، (الأردن، عمّان: دار أسامة، ٢٠٠١م)، ص ٤٥٥ – ٤٥٦).

[4] Points de vue philosophiques au sujet de la prophétie (nubuwwat), Encyclopédie philosophique Routledge, traduction persane de Mahmûd Zâr'î Balashtî, pp. 123-127, Date de publication:05/11/2011 (www.tahoor.fr/Home/ViewArticle/168)

[5] لأرسطو رسالتان صغيرتان تتعرض لموضوع النبوة وهما ''رسالة الأحلام'' ''Traité des Rêves'' و ''رسالة التنبؤ'' la divination par le sommeil وهما تحتويان على ملاحظات دقيقة في علم النفس، كما أنهما الدعامة الأولى التي قامت عليها نظرية الأحلام والنبوة الفلسفية. (إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ط٣، (القاهرة: دار المعارف، ١١٩٧٦م)، ج١، ص ٩٤-٩٦).

[6] Points de vue philosophiques au sujet de la prophétie, Ibid, op cit.

[7] إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ج١، ٧٣ – ٧٤

[8] يرى الفارابي أن عقل الإنسان يكوّنه عقل مفارق يطلق عليه العقل الفعال، فليس لهذا العقل الأخير تأثير مباشر على الجسم، إنما يتحقق تأثيره لما هو على شاكلته من العقل الإنساني. فكما يقرر الفارابي أن العقل الفعال مختص بكمالات الإنسان العقلية، ذلك انه يمنح الإنسان قوة ومبدءاً يمكّنه من أن يسعى من تلقاء نفسه إلى سائر ما يبقى له من الكمالات (الفارابي: السياسة المدنية، (طبعة انتشارات الزهراء)، ص ٧١-٧٣).

[9] أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦م)، ص ٥٧-٥٨.

[10] المصدر نفسه، ص ٤٦.

[11] قال الفارابى: ''الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن، و قد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم و ما فيه، و تقبل معلومات من الروح و الملائكة بلا تعليم من الناس.'' (الفارابي: الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية، تحقيق: عماد نبيل، (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١١م)، ص ٧٥.

[12] إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ج١، ص ٧٧.

[13] الفارابي: المدينة الفاضلة، ص ٥١-٥٢ يتفق أغلب الفلاسفة المسلمين مع الفارابي فهم يرون أن حقيقة النبوة عبارة عن نفس جامعة لعوالم كمالية ثلاثة، هي قوى الإحساس والتخيل والتعقل، وقد قُدّر أن يكون للنبي عقل مستفاد يتصل بالعقل الفعال، واقتضى هذا التقدير أن يتساوى النبي والفيلسوف في الاتصال وكسب المعرفة. حيث كلاهما يتصل بالعقل الفعال المتمثل من الناحية الدينية بجبريل، وهو الذي له الأفضلية باعتباره يمثل مصدر المعلومات النبوية وغير النبوية. فالتفضيل وفقاً لهذه الرؤية إنما يكون بحسب ما عليه الكائن من الرتبة الوجودية وليس باعتبار ما له علاقة بالقيم المعيارية والأخلاقية كالذي يراه النظام المعياري (أبو الحسن عبد الله بن سينا: المبدأ والمعاد، (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافي، ١٩٨٤م)، ص١١٦-١٢٠؛ ومحمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي: الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، (مطبوعات جامعة مشهد)، ص٣٤٠-٣٤٤؛ وأبو حامد الغزالي: مقاصد الفلاسفة، تحقيق: محمود بيجو، ط١، (مطبعة الصباح، ٢٠٠٠م)، ص٣٨٠-٣٨١.)

[14] فما دام الإنسان مرتبط بألوهة العقل الفعال فإن حركته الكمالية تكون من حيث الاتصال وحتى الاتحاد بهذا

العقل الكلي. فالإدراك إنما يكون لما هو شبيه له كما يقول الفلاسفة من أمثال ابن سينا، ومن ثم فان علاقة الاتصال تكون بين المتشابهين، أو أنها تفضي إلى حالة الاتحاد التي هي أعظم وأشد من حالة الشبه؛ كالذي عليه صدر المتألهين وعليه فان الاتصال أو الاتحاد بالعقل الفعال هو ميزة كل من الفيلسوف والنبي. (غلام حسين إبراهيمي ديناني: القواعد الفلسفية العامة في الفلسفة الإسلامية، (لبنان: دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع،٢٠٠٧م)، ج٢، ص ٣٣٠-٣٣٢).

[15] إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ص ١٠٠ - ١٠١.

[16] يقول الفارابي: النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر، كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر، فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات، ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ من الكتاب الذي لا يبطل، وذوات الملائكة التي هي الرس، فستبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق'' (الفارابي: الثمرة المرضية، ص ٧٢).

[17] إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ص ١٠١.

[18] صيقل الإسلام: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط١، (إسطنبول: دار سوزلر، ١٩٩٥م)، ص ٥٤٦.

[19] ينكر النورسي كثيرا على الفلاسفة غلوهم في تمجيد العقل قائلا: ''اعلم أيها المتفلسف المرجح للعقل على النقل، فتؤوّل النقل بل تحرّف، إذ لم يسعه عقلك المتفسخ بالغرور والتغلغل في الفلسفات... ''و يقول في موضع آخر: ''قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي. فالأمراض المعنوية توصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولّد أمراضا قلبية'' (بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي؛ ط١، (القاهرة: شركة سوزلر، ١٩٩٥م، ص ١٥٨، ص١٩٠.)

[20] أوليفرليمان: مكانة النورسي في موكب التجديد، ورقة مقدمة في المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي ''نحو فهم عصري للقرآن الكريم: رسائل النور أنموذجا'' أيام:٢٠-٢٢ أيلول ١٩٩٨؛ ص٦، عن الرابط التالي: file:///C:/Users/QSUS/Downloads/1420-3488-1-SM.pdf

[21] بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور- الكلمات -، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٣،(القاهرة: سوزلر للنشر، ٢٠٠٠م)، ج١،ص ٦٤٢

[22] بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور-الملاحق في فقه دعوة النُّور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: شركة سوزلر، ١٩٩٩م)، ص٢٨٦-٢٨٧؛ وانظر؛ بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور- اللُّمعات-، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: شركة سوزلر، ٢٠٠٢م)، ص ١٧٦.

[23] الكلمات، ص٦٤٠.

[24] الكلمات، ص ٦٤٤.

[25] ''أنا'' عند النورسي مفتاح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، فهو بحد ذاته طلسم عجيب، وبمعرفة ماهيته ينحل ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعمى الغريب ''أنا'' ويتفتح بدوره لغز الكون وكنوز عالم الوجوب. وينكشف ''أنا'' من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾،الأحزاب:٧٢ فمن الخزينة العظمى لهذه الآية الجليلة، يشير النورسي لجوهرة واحدة من جواهرها، وهي أن الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، لها معان عدّة، ولها وجوه كثيرة، فمعنى من تلك المعاني، ووجه من تلك الوجوه، هو ''أنا''. فأنا بذرة نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان أغصانهما وتنشران فروعهما في أرجاء عالم الإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى وقتنا الحاضر (بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٣٦-٦٣٧). والواضح من تفسير النورسي للأنا، هو الأنا الإنساني العام، الذي تحمّل الأمانة، لكن هناك أنا سلك مسلكا نورانيا وآخر اتبع سبل الضلال. ويسترسل النورسي في تفسير ''أنا'' فيقول: ''إن الله ﷻ وضع أمانة هي 'أنا' الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها

المقدسة. أي يكون 'أنا' وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية، والوحدة القياسية لا يلزم أن يكون لها وجود حقيقي، فهو لا يحمل معنى في ذاته، بل يدل على معنى في غيره، كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف، وأما المعنى الحرفي فهو شعرة حساسة من حبل وجود الإنسان الجسيم، وخيط رفيع من نسيج ثوب ماهية البشر، وهو حرف ألف في كتاب شخصية بني آدم''، [بديع الزمان سعيد النورسي: أنا -ذات الإنسان وحركات الذرات بين الفلسفة والدين- من كليات رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط١، (القاهرة، ٢٠٠٤م)، ص ١٨-٢١].

[26] خديجة النبراوي: النبوة وضرورتها للإنسانية -بحث مستقى من رسائل النور للنورسي-، (سوزلر للنشر، ٢٠٠٠م)، ص ٧٢

[27] المرجع نفسه، ص٧٢.

[28] النورسي: الكلمات، ص ٦٣٩.

[29] الكلمات، ص ٦٤١-٦٤٢

[30] صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيّة الأب: جان كوربون، ط٢، (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٨م)، ص٥٠٣.

[31] راجع: إنجيل متى: ١١/٣؛ مرقس: ٧/١؛ لوقا: ١٦/٣؛ يوحنا: ١٥،٢٧٣٠/١؛ أعمال الرسل: ٣٥/١٣.

[32] Sous la direction de A. D'Alés: Le dictionnaire Apologétique de la foi Catholique, 4éme édition; (Paris: Gabriel Beauchésne éditeur, 1911), tome4, p386.

[33] يوحنا: ١٨/١.

[34] رسالة إلى العبرانيين: ١/١-٣.

[35] مجلس التحرير: القس منيس عبد النور، القس فايز فارس، القس أندري زكي، والقس أنور زكي: دائرة المعارف الكتابية، ط٣، (القاهرة: دار الثقافة، ٢٠١٢م)، ص١٩.

[36] دائرة المعارف الكتابية، ص ١٩-٢٠.

[37] كلمة الرسل تستعمل للدلالة على تلاميذ المسيح الاثني عشر، الذين اختارهم المسيح (متى: ٢/١٠)، ليكونوا رفاقه المقربين (مرقس: ١٤/٣)، وشهوده على العالم (أعمال الرسل: ٨/١)، ولا سيما شهود قيامته (أعمال الرسل: ٢٢/١)، ومعلني بشارته (متى: ١٩/٢٨)، وأركان الكنيسة (رؤيا يوحنا: ١٤/٢١)، وبعد ارتداد يهوذا الاسخريوطي، ضُمّ متّيا إلى مجموعة الرسل (أعمال الرسل: ٢٦/١)، ولم يضم الرسول بولس إلى الرسل لكنه أعلن نفسه رسول المسيح بحكم رسالة تسلّمها مباشرة من المسيح القائم من الموت (رسالة إلى أهل غلاطية: ١٦/١) أرسله بها إلى الوثنيين (أعمال الرسل ١٨/٢٦)، وفي الشرق أطلقوا كلمة رسول على تلاميذ المسيح من الجيل الأول، وتعني كلمة رسول بوجه عام وعصريّ كلّ مسيحي يعمل بغيرة على نشر الإيمان وتقدّم إخوته الروحي. (صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، ص ٢٣٤).

[38] رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: ١/ ٣، ٤، ١٩، ٣١).

[39] دائرة المعارف الكتابية، ٢٠-٢١.

[40] الشيء الملاحظ أن النورسي يستعمل مصطلحين أحدهما النصرانية وثانيهما العيسوية، وحسب تتبعنا لمنهجه، لاحظنا أنه يقصد بالنصرانية الديانة النصرانية أو المسيحية، أما العيسوية، فيقصد بها شخص المسيح المعنوي، يقول النورسي: ''يظهر الدين العيسويّ الحقيقي الذي هو عبارة عن الشخصية المعنوية لعيسى عليه السلام، أي ينزل من سماء الرحمة الإلهية. فيتصفى دين النصرانية الحاضرة، أمام تلك الحقيقة ويتجرّد عن الخرافات والمحرّفات ويتحد بحقائق الإسلام'' (المكتوبات، ص ٩٧).

[41] الكلمات، ص ٤٧٨.

[42] المصدر نفسه، ص ٤٧٩.

[43] يعتقد النصارى أن الله إله واحد لا يتجزأ، جوهر واحد، في ثلاثة أقانيم، الله الأب، الله الابن، الله روح القدس.

(صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، ص ١٦٣).

[44] المكتوبات، ص٥٧٣.

[45] المكتوبات، ص ٤١٩

[46] الولاية في اللغة الإمرة، والولاية بمنزلة الإمارة، وتأتي بمعنى القرب والدنو وهي ضد العداوة وتتضمن النصرة، المحبة، المتابعة، التقرب والصداقة. [أبو بكر محمد بن دريد: جمهرة اللغة، ط٢، (بيروت: دار الصادر، ١٣٤٥هـ)، ج١، ص١٨٨؛ محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م) ج١٥، ص٤٤٨-٤٤٩؛ القاموس المحيط، ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م)، ص١٧٣٢]، والولاية في اصطلاح أهل السنة تدور حول القرب من الله تعالى ومحبته ونصرة دينه ومتابعة طاعته في أمره ونهيه، والإخلاص في ذلك كله، والولي هو الذي يتولى ربه وخالقه بالطاعة، ويتولاه ربه بالحفظ والتأييد والنصرة والمعية الخاصة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾،يونس:٦٢-٦٣ فالولي هو كل من كان مؤمنا تقيا، وأفضل الأولياء هم الأنبياء والرسل يتفاضل الخلق بعدهم بحسب إيمانهم وتقواهم، والصحابة أفضل الأمة (ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الله وأولياء الرحمن، ص ١٠٢). ويعرفها الجرجاني بقوله: ''الولي هو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، وهو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، والمواظب على الطاعات المجتنب المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات'' (علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص ٣٢٩.

[47] لسان الدين الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (الدمام، المملكة العربية السعودية: دار الفكر العربي)، ص٥١٩

[48] أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ص١١٨

[49] إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، (لاهور، باكستان: إدارة ترجمان السنة، ١٩٨٦)، ص ١٩٢.

[50] أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الإدريسي الشاذلي: البحر المديد، ط٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م)، ج٧، ص ٣٣٤

[51] ابن عجيبة: البحر المديد، ج٦، ص٥٤٦

[52] المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٨٩

[53] المصدر نفسه، ج٨، ص٤٩٢

[54] لسان الدين الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص ٥١٩-٥٢٠

[55] محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، علّق عليه: أبو العلا عفيفي، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص ١٣٤-١٣٥.

[56] المصدر نفسه،ص ١٣٥.

[57] علي شودكيفيتش: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي،ترجمة أحمد الطيب، (مراكش: دار القبة الزرقاء، ١٩٩٨)، ص ٥٧.

[58] المرجع نفسه،ص ٥٧-٥٨

[59] المرجع نفسه،ص ٥٨.

[60] حيدر الآملي: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ط١، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٥م)، ص٤٥٠-٤٥١. ٤٥١.

[61] حيدر الآملي: المقدمات من كتاب نص النصوص في شرح فصوص الحكم لمحي الدين ابن العربي، تصحيح وفهرسة: هنري كوربان وعثمان إسماعيل يحيى، (طهران:قسمت إيرانشناسى، ١٩٧٢، ص ١٦٧.

[62] المصدر نفسه، ص ١٦٨.

[63] ولد سنة ٧١٩ هجري في مدينة آمل الإيراني، وهو من كبار المتصوفين الشيعة، عرّف عن نفسه بأنه من ذرية النبي ﷺ، ''أن ركن الدين حيدر بن السيد تاج الدين علي بن بادشاه... ابن حسين الأصغر بن الإمام علي بن

الحسين زين العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام"؛ من أهم مؤلفاته: جامع الأسرار ومنبع الأنوار؛ وكتاب نص النصوص في شرح فصوص الحكم لمحي الدين ابن العربي. (محمد جواد كوهرى: تصوف الشيعة نظرة إلى حياة السيد حيدر الآملي وعقائده،ط١، (طهران: ١٩٩١م)، ص١٨-٢٢).

[64] حيدر الآملي: المقدمات من كتاب نص النصوص في شرح فصوص الحكم لمحي الدين ابن العربي ص ١٦٨.

[65] المصدر نفسه، ص ١٧٠.

[66] حيدر الآملي، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص٣٨٥.

[67] المصدر نفسه،ص ٣٨٥-٣٨٦.

[68] المصدر نفسه، ص ٣٨٦.

[69] المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

[70] المصدر نفسه، ص٤١٧.

[71] المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

[72] إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، ص ١٩٠-١٩١.

[73] إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، ص ١٩٦.

[74] المكتوبات، ص ٥٧٣.

[75] المصدر نفسه، ص ٥٧٣.

[76] المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

[77] الكلمات، الكلمة الحادية والثلاثون، ص ٦٦٩.

[78] المصدر نفسه، ص ٢٦٩-٢٧٠.

[79] المصدر نفسه، ص ٩٧٠-٩٧١.

[80] المكتوبات، ص ٥٨٨.

[81] الكلمات، ص ٥٧٣.

[82] المكتوبات، ص ٥٨٩.

العدالة بين حكمة القرآن وفلسفة الإنسان
قراءة في التجربة الذوقية للحكيم النورسي

–ABSTRACT–

Justice in the Light of either Qur'anic Wisdom or Philosophy of Human Inspiration: A Study of Experiential Knowledge in the Thought of the Sage Said Nursi

Dr. Idris Maqbul

Nursi has always drawn on the fountain of the Quran's wisdom as the only source capable of providing believers with a comprehensive and genuine vision - free of any impurities possibly imposed by the human mind or soul. Therefore, the wisdom of the Qur'an became a distinctive component and a defining standard which all his renewal plans would aim to conform with. Nursi maintained distance from positivist philosophies and warned those who subscribe to such philosophies of their considerable limitations. He stated that those who make these philosophies a frame to their beliefs and interpretations - no matter how close such philosophy might come to the truth of the Quran; it is not free of assumptions and illusions due to its confinement to wording and the lack of the balance maintained by the belief in the one and only Allah. From Nursi's perspective, the pillars and principles upon which positive philosophy rests, are the core of humanity's blunders. Blunders such as the absence of justice and the spread of injustice as well as the lack of contentment in life. Nursi states that these principles rely on power, similar to that of predatory animals, while dismissing religious doctrines and morals. Thus, according to such philosophy, power and will constitutes the highest virtue and is based on the concept of benefit, whereas the mechanism of development lies in conflict and growth through feeding on the other, and expanding at the expense of other elements.

– ملخص البحث –

د. إدريس مقبول[1]

لطالما أخذ النورسي من الحكمة القرآنية وارتشف من معينها لأنها الوحيدة الكفيلة

بإعطاء المؤمن زاوية الرؤية الشمولية والصادقة والصافية من شوائب النفس والعقل المجردين، ولذلك فإنها صارت ديدنه وميزانه في كل خططه في التجديد عامة .في المقابل نجد الأستاذ النورسي يبتعد ويحذر من خطا نحو الفلسفة الوضعية لتفسير رؤيتهم وجعلهاإطارا لمعتقداتهم وتفسيراتهم .لأن الفلسفة مهما قربت من الحقيقة القرآنية إلا أنها لا تكاد تكون منزهة عن الظنون والأوهام، لانحصارها في الأقوال وافتقادها شرط التوازن الذي يحفظه الإيمان بالله الواحد الأحد.

إن المرتكزات التي تنبني عليها الفلسفة الوضعية والمبادئ التي ترتكز عليها عند الأستاذ النورسي هي أساس ما تتخبط فيه البشرية من غياب العدالة وتفشي المظالم وافتقاد السعادة ..من حيث أنها تركز على القوة مثل الحيوان المفترس، وكونها تنبذ العقائد الدينية والأخلاق، فالقوة عندها هي الفضيلة السامية، كما أنها تتأسس على مبدأ المنفعة وأن آلية التغير عندها هي الصراع، وأنها تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى.

١ - مساران لا يلتقيان:

يتأسس الخطاب التجديدي عند الحكيم النورسي على مسلمة رئيسية لا غنى عنها لمن أراد فهم النسق الفكري لهذا العَلَم الشامخ من أعلام الإصلاح والتربية في تاريخ فكرنا الإسلامي المعاصر. هذه المسلمة هي أن إحياء الفكر الإسلامي للخروج من أفق الواقع الميت والمستقبل المسدود يستلزم بالضرورة توجيه الفكر للنهل والاستمداد مما يسميه الحكيم النورسي بالحكمة القرآنية، هذه الحكمة هي السبيل الوحيد لِمُزَايَلَةِ سائر الأفكار والفلسفات الوضعية التي قَصُرَت أنظارها عن درك الحقائق لتعلقها التفسيري بجانب من جوانب الحقيقة المادية في غفلة وقصور عن الإحاطة والحفوف بها جملة وتفصيلا.

والحكمة القرآنية من هذا المنطلق هي وحدها الكفيلة بإعطاء المؤمن زاوية الرؤية الشمولية والصادقة والصافية من شوائب النفس والعقل المجردين، ولهذا حلت عند الحكيم النورسي في نظره للعدالة محلها المركزي من خطته في التجديد عامة. وإذا أنعمنا النظر ألفينا الحكيم النورسي لا يني يرتشف من رحيق هذه الحكمة القرآنية

السامية على سائر الأقوال منبها في المقابل لضحالة ما عليه مسار من اختاروا فلسفات الإنسان الوضعية الطبيعية والعقلانية والتجريبية وغيرها سندا لرؤاهم وإطارا لمعتقداتهم وتفسيراتهم. كما لا يني ينبه إلى أن تحرر الإنسان يقتضي بالاستلزام الضروري والدائم لا المؤقت التحرر من الصياغات التي تفرضها الفلسفات السائدة البائدة على العقول، تخلصا يتعين بترك التبعية إلا لله من داخل شرط العبدية والانقياد لواجب الوجود جل في علاه. ذلك أنه مهما تناهى الادعاء بدرك الحقائق في فلسفات الإنسان وبأي المناهج استعانت، لم تجئ بأكثر من الظنون والأوهام.

وحقيقة تفوق حكمة القرآن على فلسفات الإنسان راجعة بعد التأمل إلى أمور نجملها في ثلاثة أركان:

أولا: القدرة التفسيرية الهائلة للقرآن دون سائر المناهج والفلسفات حيث "القرآن الكريم 'المقروء' هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم 'منظور' ". فتجتمع الشمولية والانسجام في الكتابين المسطور والمنظور -وكلاهما مكتوب بخط العدالة- لاتحادهما وتكاملهما بضمان مصدرهما الواحد والوحيد، هذا المصدر الذي تنكره الفلسفات الجاحدة فتحرم نفسها إمكانات في المعرفة والعلم.

ثانيا: انحصار حقيقة فلسفات الإنسان في الجهد الزخرفي للأقوال والسطحي للظواهر والأفعال، مما جعلها مقطوعة غير واصلة ولا موصولة، متنكبة عن الحقيقة غير مهتدية، متخبطة متخرصة ناقضة لنسقها غير آبهة بنسفها الذاتي لافتقادها شرط التوازن الذي يحفظه الإيمان بالله الواحد الأحد.

ثالثا: صدور فلسفات الإنسان عن الروح الفرعونية القارونية التي ترسخ الأنانيات الفردية وتكرس الظلم والعدوان وحب الهيمنة والتطلع إليها، فيما تصدر الحكمة القرآنية عن العناية الربانية والعدالة الإلهية التي تنشئ على عينها تلاميذ القرآن القائمين بالحق، العلماء الأصفياء والأولياء الصالحين والمنوّرين من حكماء الاشراقيين الذين تساموا في التربية القرآنية الخارقة فتنبسط لطائفُهم وتسطع بفيوضات إرشادات القرآن، حتى إنهم يستصغرون أضخم موجودات الدنيا من أن يكون مسبحةً لأورادهم".[2] فما بالك بزهدهم عما في أيدي الناس من أرزاق.

٢ - مجتمعان متناقضان:

متى سلمنا بافتراق حكمة القرآن عن فلسفات الإنسان في الجملة، أدركنا مع الحكيم النورسي أن صنائعهما من المجتمعات على وفق قوانين كل واحدة منهما متباينة متغايرة، كما أدركنا بالنتيجة أن أفضلية الإنسان في نموذج القرآن ليست اعتباطية أو تحكمية، وإنما هي من جنس المقدمات الضرورية التي صدرت عنها فهي ''عدلية'' بامتياز، أي لها تعلق شديد بالتوحيد، كما كانت دونية الإنسان وأسفليته في نموذج فلسفات الإنسان نتيجة ضرورية لما تقدمه من تصورات ''ظلمية'' أي لها تعلق مباشر بالإشراك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾،لقمان:١٣ هذا لأن ''الذي يعبد النفس ويعبد الطبيعة إذا في منتهى الحماقة ومنتهى الظلم''.[3]

يميز الحكيم النورسي بين الصورتين في استيعاب دقيق لحكمة القرآن من جهة ولأهم مفاصل الفكر الفلسفي الإنساني من جهة ثانية، فيكشف التعارض الصريح بين النموذجين العادل والظالم، ولنبدأ بالظالم، إذ ينص الحكيم النورسي على ''أن حكمة الفلسفة ترى 'القوة' نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية.وتهدف إلى 'المنفعة' في كل شيء. وتتخذ 'الصراع' دستوراً للحياة. وتلتزم 'بالعنصرية والقومية السلبية' رابطة للجماعات.أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى''.[4] وهو بذلك يُجْمِلُ أهم الفلسفات الطبيعية والعقلانية التي أثرت في الفكر الغربي وجعلته مرتهنا لها إلى يومنا هذا في نظرته للعالم والإنسان، إنها النيتشوية والداروينية، فلسفتا القوة والصراع والعنصرية بامتياز، واللتان عنهما فاضت فلسفة المنفعة البراجماتية التي أجهزت على ما تبقى من ظلال القيم والأخلاق في عالمنا المعاصر.

ويترتب على كل واحدة من مرتكزات ومبادئ فلسفات الإنسان عند الحكيم النورسي نتائج عملية هي جوهر ما تتخبط فيه البشرية من غياب العدالة وتفشي المظالم، فللنظر في كل مبدأ ذكره الحكيم النورسي على التفصيل:

أولا: مبدأ القوة: تسبغ الفلسفة النيتشوية نوعاً من الروحية والقداسة على الفعل والحركة، المنفصلين عن القيمة. وقد دعا نيتشه الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة، ويكون كالحيوان المفترس الأشقر، وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء. فالقوة بالنسبة له هي ''الفضيلة السامية، والضعف هو النقيض في الشر. الخير هو الذي

يستطيع أن يحيا ويظفر، أما الشر فهو ما يخور ويهوي"[5] ولهذا كان شأن "القوة" كما يقول الحكيم النورسي هو "الاعتداء"[6] الذي نجد تجسده في الحروب الإمبريالية على العالم المستضعف. ولا سبيل إلى العدالة إلا بتقرير مبدأ الحق بدل القوة. وهو خط فيصل ما بين حق القوة الذي يرتفع شعارا لفلسفة الإنسان المتنطعة[7] وقوة الحق التي ترتفع شعارا لحكمة القرآن. إذ الحق من "شأنه العدالة والتوازن".[8]

ثانيا: مبدأ المنفعة: لما ارتبط العقل ارتباطا أبديا بالمادة في تحيزه الأول لم ينته إلى إنتاج حقيقة خارج هذا العالم المتناهي الضيق أبعد من حرصه على تحقيق المنفعة العاجلة المنحصرة والمتناهية فَحُرِم بذلك تذوق مستويات من المعارف وإدراك مستويات من الإحساس الراقي المستمدة من عوالم أخرى كائنة وممكنة غير تلك التي انحصر العقل المعاشي في شرنقتها فانحصر إبداعه فيما هو مادي متناه. ومن الآفات الناجمة عن هذا الاستغراق المادي شعور الإنسان وسط المجتمع بالضياع لانقطاعه عن مفهوم الرسالية التي تعطي للإنسان حقيقة ووجودا وقيمة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، المؤمنون:١١٥ وبالفردانية المتمثلة في "تقديم المنافع الخاصة على المنافع العامة، وتقديم الاستمتاع بالحقوق الفردية على الوفاء بحاجات المجتمع".[9] وشأن "المنفعة" كما يقرر الحكيم النورسي هو "التزاحم" إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم.[10] وطريق درء هذه المفسدة هو جعل رضى الله ونيل الفضائل غاية الإنسان.

ثالثا: مبدأ الصراع: جوهر المنظومة الداروينية أن العالم في حالة تغير مستمر وتطور إلى الأرقى، وأن آلية التغير هي الصراع، وهو صراع يحسمه القَويُّ لصالحه من خلال العنف بطبيعة الحال، ولذا فإن البقاء ليس دائماً للأصلح أخلاقياً أو لصاحب الحق، وإنما للأقوى مادياً وصاحب السلاح الأكثر فتكاً، وهكذا تنظر فلسفة الإنسان الداروينية إلى العالم باعتباره غابة دموية قائمة على مبدأ الصراع الدائم. وشأن الوجود القائم على مفهوم "الصراع" كما يقرر الحكيم النورسي هو الغرق في "النزاع والجدال".[11] ويصبح الوجود نفيا للآخر وإلغاء له بل وإلغاء للعالم برمته. إن موطن الداء في فلسفات الغرب السياسية القومية والمادية، تلك التي فصلت بين الروح والجسد (وهو جوهر فلسفة ديكارت)، ثم تجاهلت الروح ووأدتها، وحاربت الله وجاهدت جهادا كبيرا لإحلال الإنسان محله، فلم يبق في الكون والإنسان غير المادة والحركة واللذة والسيطرة والصراع وشرعة القوي،[12] ولا تصحح الصورة إلا بالعودة إلى المبدأ الذي تقرره حكمة القرآن وهو مبدأ التعاون بدل مبدأ التنازع والصراع. لأن "التعاون من شأنه التساند والاتحاد".[13]

رابعا: مبدأ العنصرية: حين نتحدث عن عنصرية فلسفات الإنسان في المدنية الغربية المؤسسة نظريا على المعطى العرقي نستحضر مونتيسكيو في ''روح الشرائع'' وغوبينو في ''مقالة في التفاوت بين الأعراق البشرية'' وصولا إلى هيغل في ''محاضرات في فلسفة التاريخ'' وآخرين.وشأن ''العنصرية '' كما يقول الحكيم النورسي هو ''الاعتداء'' إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى''.[14] وهو المُشَاهَد ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك[15] ولا سبيل إلى الخلاص من هذه الآفة إلا بتقرير مبدأ الأخوة والتكاتف الإنسانيين، وقد حرص النورسي رحمه الله أن ينبه إليها في كل لحظة وحين ''ألا إن العنصرية ودعوى القومية خطر عظيم''.[16] وذلك لما علمه من تهديدها للاستقرار والعدالة على حد سواء. وقد اجتهد رحمه الله في إنقاذ الشباب المسلم من براثنها بسيرته قبل كلامه، وأفنى عمره في ترسيخ تربية التسامح والتعاطف والتآخي.[17] أخوة تضم إليها التائبين في أمان وخدمة متبادلة ورحمة وعفو وستر. وتحيط بهذه الأخوة الحانية وتكلأها محبة للناس على الدوام وحرص على تأليفهم تأليفا قلبيا عميق الجذور كالشجرة الطيبة تثمر للمسلمين التائبين وللناس أجمعين ثمار العدل والبر والإحسان والعطاء والأمن والعفو والستر وتفريج الكرب وقضاء الحاجات. مصداقا لقول الله تعالى في حق الأنصار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.الحشر:٩ مرتبة الإيثار فوق مرتبة العدل، ولهذا قال الحكيم: لابد من جعل شيمة ''الإيثار'' التي تحلى بها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ونالوا بها ثناء القرآن الكريم نصب العين، واتخاذها دليلا ومرشداً''.[18]

أمكن للحكيم النورسي أن يستوعب على نحو فريد جوهر فلسفات الإنسان وفهم حدودها واختزالها على تنوعها الظاهر، و لهذا لم تأخذه ببريقها وزخرفها بل استعلى عليها بعامل الإيمان الذي يستمد طاقته من خلال حكمة القرآن، هذه الحكمة التي جعلته من خلال اتصاله المباشر بالقرآن يستمد أنواره من غير واسطة، فتحقق بأن الفكرة التي لا تربط بالله ولا تدل عليه زائفة مبتدأ وخبرا، بل وكل فلسفة ليست ترتقي في بحثها السببي إلى الموجد الأول وتقر به ربا فليست بشيء، كما أنه كل فلسفة لا تعتني في نسقها بالربط بين الوظيفة المخلوقية وأصلها من الوظيفة الخالقية ظلم وهراء وعبث. ومن هذا المنطلق كان يرى أن ''فلسفة البشر وحكمته تنظر إلى الدنيا على أنها:

ثابتة دائمة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكراً مفصلاً مسهباً، بينما لو ذكرتْ وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فإنها تذكرها ذكراً مجملاً مقتضباً. أي إنها تفصّل في ذكر نقوش كتاب الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماماً كبيراً."[19]

هذا النظر من قبل فلسفات البشر للدنيا على أنها ثابتة دائمة يورث الظلم بين بني البشر ويحجبهم عن إقامة ميزان العدالة فيما بينهم، إذ ينسون لقاء الله والحياة الآخرة فينزو بعضهم على بعض ويلتهم الكبراء الضعفاء وتغيب العدالة، كما ينسيهم اشتغالُهم بالرسوم الحدية الماهوية للحقائق النظرَ في الوظائف والمآلات فتكون عاقبتهم الخسران المبين.

٣- العدالة ومجتمع العمران الأخوي:

لم يحارب الحكيم النورسي شيئا كما حارب العصبيات والقوميات الضيقة والعنصرية التي تنشئ مجتمعات الكراهية، والظلم، فكان النورسي دائم التنبيه من نار عُبَيَّةِ الجاهلية[20] كما سماها رسول الله ﷺ التي لا تبقي ولا تذر من شأن العدالة بين الناس شيئا "لأنها مشحونة بالأغراض الظالمة المظلمة"،[21] إذ تقيم بينهم ميزانا وضعيا مقيتا في المفاضلة لا على أساس أعمالهم وإخلاصهم فيها، وإنما على أساس من تميز الأعراق والأشباح وكلها إلى أصل واحد ترجع لو فقه المتقاتلون. يقول رحمه الله" اعلم أن العصبية العنصرية الجاهلية، ما هي إلا الغفلة المتساندة المتصالبة، وإلا الضلالة والرياء والظلم المتجاوبة المتعاونة.. فيصير الخلقُ وملّتهُ كمعبودِه العياذ بالله.. وأما الحمية الإسلامية فهي النور المهتز المنعكس من ضياء الإيمان..."[22]

وهكذا يتميز الجواب النوري عن سؤال القوميات المتنامي في الوقت الحاضر هنا وهناك بأنه جواب إيماني أخلاقي يقدم العمل التعاوني المبني على الأساس التعارفي، إذ حقيقة التعارف هو أنه التعاون على المعروف وترك التعاون على المنكر، تربية للنفوس على أن نفي المفاضلة والتعصب وإقامة صرح العدالة بين بني البشر فيه من إمكانات التقارب الشيء الكثير. كما أنه السبيل للاستقرار والأمن الروحي والمادي على ما ذهب إليه ابن خلدون حين قرر أنه"لا سبيل للعمارة إلا بالعدل".[23]

في مجتمع العمران الأخوي مجتمع القرآن يعلمنا الحكيم النورسي على أن العدل في معاملة الناس داخل هذا المجتمع ينبغي أن نستفيده من معاملة المعبود لنا بما

يوسع جانب تسامحنا مع أخطاء الناس والإغضاء عنها رعاية لما نجده من حسناتهم، فكما يغفر الحق سبحانه وتعالى بميزانه الأكبر وبعدالته المطلقة سيئات كثيرة بحسنة واحدة، فالحكمة تقتضي أن من غلبت حسناته سيئاته فهو من أهل الفضل،'' حيث أن ارتكاب السيئات والآثام سهل ويسير ووسائلها كثيرة. فينبغي إذا التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فان كانت حسناتُ شخصٍ أكثر من سيئاته كميةً أو نوعيةً فإنه يستحق المحبة والاحترام. وربما يُنظر إلى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنة واحدة ذات نوعية خاصة''،[24] ووقوع هذا الأمر لحكمة تربوية لطيفة وسر إلهي عجيب لا يفقهه إلا أهل المعرفة بالله.

في مجتمع القرآن يتساند الناس بناء على مبدأ التعاون بإقرار الواجب الإحساني بينهم، وهو نوعان: واجب بالشرع وهو الزكاة، وواجب بالمروءة وهو مطلق الصدقات التي هي أبناء عمومة الزكاة التي تنبض بعرقها وتعين في الخدمات كما جاء في رسائل النور.[25] وعند الحكيم النورسي لا تتحقق العدالة الاجتماعية إلا بتطبيق هذا الواجب بنوعيه، فيعتبر أن الزكاة'' باب عظيم تفيض منه البَركة والغنى على كل فرد، وتدفع عنه البلايا والمصائب. فالذين لا يؤدون زكاة أموالهم لا محالة يفقدون أموالاً بقدرها ويبددونها إما في أمور تافهة لا طائل وراءها، أو تلمُّ بهم مصائب تنتزعها منهم انتزاعا''.[26]

وليس من شيء أضر على أمة الإسلام بحسب الحكمة القرآنية من تعاطي الربا وترك الزكاة، إذ تنتعش الاضطرابات بموت الزكاة وحياة الربا،[27] وهذه الحقيقة عند الحكيم لما كانت بابا من أبواب تحقيق العدالة لم يجعلها حكرا على المسلمين، بل وجه نداءه للعالمين قائلا: ''إن كانت البشرية تريد صلاحاً وحياة كريمة فعليها أن تفرض الزكاة وترفع الربا''.[28] لأن سوس الربا مؤذن بخراب العمران قياسا على أن الظلم مؤذن بخراب العمران عند ابن خلدون،[29] وما من شك في أن حقيقة الربا ظلم عظيم يجاهر فيها الخلق بحرب الواحد الأحد، ولأجل ذلك تقف ''الآيات القرآنية على باب العالم قائلة للربا: الدخول ممنوع. وتأمر البشرية: أوصدوا أبواب الربا لتنسد أمامكم أبواب الحروب. وتحذّر تلاميذ القرآن المؤمنين من الدخول فيها.''[30]

ولئن كان الحكيم النورسي يحذر من الربا ويطالب بإغلاق أبوابها فهو يفتح بابا عظيما من أبواب تحقيق العدالة بتأسيس نمط متفوق من التكافل عن طريق الزكاة،

وهو منهج شمولي في الإصلاح ينسجم مع منطق التخلية قبل التحلية في إصلاح الشأن الخاص والعام. وتبدو الزكاة في رسائل النور ذات وظيفة تهذيبية للعلاقة التي تسود بين الخاصة والعامة أو بين الأغنياء والفقراء الحاكمين والمحكومين، فتنتقل بها من صورة السيطرة والتعالي إلى صورة ليس فيها عنف على الإطلاق، هي صورة الخدمة والتعاون، يقول الحكيم النورسي متحدثا عن الإسلام بأنه ''لا يجعل الخواص مستبدين على العوام بل يجعلهم خادمين لهم ـ من جهة ـ وذلك بوجوب الزكاة وتحريم الربا''،[31] صورة الخدمة هذه ''تؤمّن الرحمة والإحسان من الخواص تجاه العوام وتضمن الاحترام والطاعة من العوام تجاه الخواص''.[32] وتمنع في نفس الوقت والحين انبعاث المشاعر السلبية من ''الحقد والعصيان اللذين يضطرمان في أفئدة العوام تجاه الأغنياء الموسرين. وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراع معنوي مستديم، وتخوضان غمار معمعة الاختلافات المتناقضة، حتى يؤول الأمر تدريجياً إلى الشروع في الاشتباك الفعلي والمجابهة حول العمل ورأس المال كما حدث في روسيا''.[33]

ولما كانت الزكاة على ما ذكرناه وصورناه، فإنها تأخذ منحى اجتهاديا وتجديديا عند الحكيم النورسي، يجاوز الحدود الفقهية المتعارف عليها عند طائفة العلماء بالدين من تحديد الأنصبة لكل ما بلغ حقه وحال عليه الحول، ذلك أن تنمية الأمة وتقدمها تحتاجان إلى أن يزكي كل فرد من أفرادها بما جعله الله تبارك وتعالى منحة له فاضت آثارها عليه، فتصير الزكاة غير متعينة في أصناف بعينها محدودة معلومة بل تصير في الفكر النوري حقا على كل النعم ظاهرها وباطنها، فيجتهد الحكيم النورسي في صناعة مصطلح لطيف عميق لم يُسْبَق إليه هو ''زكاة الذكاء''، فيتوسع معنى الزكاة عند الحكيم ليشرك كل واحد في بناء الخير وعمارة الأرض، يقول النورسي ''لو أعطى الأذكياء زكاة ذكائهم، وصرف الأغنياء ولو زكاة زكاتهم لمنفعة الأمة، لتسابقت أمتنا مع الأمم الأخرى''.[34]

ولعمري إن ''زكاة الذكاء'' هذه التي تفتق عنها الفكر النوراني للحكيم لتحتاج إلى أن ينجز فيها أعمال علمية وفقهية تجديدية في جامعاتنا ومؤسساتنا البحثية تفتح للأمة آفاقا من التقدم والتطور لا قبل لها بها، وتقفز بنا سنوات ضوئية إلى الأمام خاصة مع ما تعرفه حياتنا اليوم من تغير مستمر لمفاهيم الثروة والقيمة، نرجو الله تعالى أن يوفقنا لأن نكون من بُنَاتِها في القريب إن شاء الله تعالى.

٤ - العدالة والنظر المُلْكِي:

يمكننا النظر للعدالة عند الحكيم النورسي من زاويتين: الأولى نسميها النظر الملكي والثانية النظر الملكوتي، أما النظر الملكي فهو المختص بدرك الأشياء بوصفها ظواهر يُبْحَثُ في أسبابها على الظاهر، والأسباب هنا'' إنما وُضعَت لتبقى عزةُ القدرة مصونةً من جهة نظر العقل الظاهري''،[35] وأما النظر الملكوتي فهو الذي يعقل الحقائق من حيث قيمها وآياتها الخفية والشفافة،والصافية، والنزيهة،'' فلا تختلط معها ألوان ومزخرفات التشخصات... هذه الجهة متوجهة إلى بارئها دون وساطة، فليس فيها ترتب الأسباب والمسبّبات ولا تسلسل العلل، ولا تدخل فيها العليّة والمعلولية ولا تتداخل الموانع''.[36] وإذا كان الأول يوصل إلى العلم فإن النظر الملكوتي يبلغ الإيمان.

في النظر الملكي يتوزع مفهوم العدالة عند الحكيم النورسي اعتبارات متعددة لكل منها خصوصية معينة، غير أنه يجمعها نظر فاحص فيما كان (أي التاريخ) وفيما هو كائن (الحاضر أو سطوة المدنية الحديثة) وفيما ينبغي أن يكون ''المستقبل أو نموذج التفقد السليماني'' ولنبدأ بالاعتبار الأول المتوجه للتاريخ وهو ما سميناه:

الاعتبار التقويمي لتاريخ الإسلام السياسي: في رسائل النور نجد العدالة تنقسم إلى قسمين: محضة وإضافية، أما المحضة فهي ''ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة''.[37] وأما الإضافية أو النسبية فهي ''أن الجزء يضحى لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون''.[38] ولا يصار إلى العدالة الإضافية عند الحكيم النورسي إلا إذا تعذر بلوغ العدالة المحضة، وبهذا الميزان فهم النورسي عددا من الأزمات التي دارت على الخلاف بين الصحابة زمن الفتنة حيث سمح له هذا المنهج أن يحفظ التوقير اللازم والأدب المطلوب مع من سبقنا بعلم وإيمان فتوقى بذلك تجريح الأفاضل من الصحابة وحمل ما جرى بينهم على الخلاف بين عدالتين: ''فالإمام علي ﷺ قال :إن العدالة المحضة قابلة للتطبيق، كما كان عليه في عهد الشيخين. لذا حاول بناء الخلافة الإسلامية على تلك القاعدة من العدالة المحضة. بينما معارضوه كانوا يقولون إن هذه العدالة المحضة غير قابلة للتطبيق، حيث هناك، عوائق ومشكلات كثيرة تظهر أثناء تطبيقها، فصار اجتهادهم إلى العدالة الإضافية.[39] ومثل هذا الفهم يكتب بماء الذهب لأنه يمنع من سقطات كثيرة، ويحفظ على الأمة جمعها ويضمن اتصال المحبة والإجلال لسلفها.

ثانيا الاعتبار التدافعي في المدنية الحديثة: في النظر الملكي نجد الحكيم النورسي يجتهد في بيان مدى الاضطراب الذي بلغته المدنية الغربية في النظرية والواقع، ويبين مدى ''الإجحاف في الحقوق المدنية للحضارة الحديثة والتي تخالف أحكام القرآن''.[40] وكيف أن البشرية سُلبت الراحة والأمن بسبب غياب العدالة وتفشي الحسد والحقد بين الأفراد والجماعات والكراهية، حيث ''انقطعت صلة الرحم بين طبقة الخواص والعوام. فانطلقت من العوام أصداء الاضطرابات وصرخات الانتقام، ونفثات الحسد والحقد. ونزلت من الخواص على العوام نار الظلم والإهانة وثقل التكبر ودواعي التحكم''.[41] فتحولت هذه المدنية في غياب العدالة الحقيقية بين أفرادها إلى ''دنية'' بدون ميم.[42]

في عالم الملك يتصارع الناس في المدنية الحديثة لأتفه الأسباب وأخسها، ويقدم الضعفاء الفاتورة مضاعفة من غياب العدالة واستشراء الظلم، ولقد ''قاست البشرية من ويلات الحروب العالمية ''أي مقاساة، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الأرض كافة''.[43] والإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق''.[44]

ثالثا الاعتبار الشرطي لقيام السلطة وتحقيق الأمن: يشترط الحكيم النورسي في العدالة في النظر الملكي أن تقوم على ركيزتين: الحرية والمساواة.

أما الحرية: فيعرفها بأن ''يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة مصوناً من التعرض له، محفوظ الحقوق ولا يتحكم بعضٌ في بعض، ليتجلى فيه نهي الآية الكريمة ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾آل عمران: ٦٤ ولا يتأمّر عليه غير قانون العدالة والتأدب، لئلا يُفسِد حرية إخوانه.[45]

وأما المساواة: ويقصد بها المساواة أمام القانون في سائر الحقوق، إذ إن ''المساواة ليست في الفضيلة والشرف، بل هي في الحقوق. فالسلطان الملك والفقير المسكين كلاهما سيّان في الحقوق.. فيا للعجب إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نملة وأمرت ألا تداس عمداً، أ تهمل حقوق بني آدم؟ كلا!''[46]

وإذا تمكن الناس من نيل حقوقهم على شرط الحرية في الوجود والمساواة في

الحقوق، يلزم القائمين على الشأن العام من حكام أن يعتنوا بأحوال من تحتهم بدوام ترقب احتياجاتهم والإشفاق عليهم وهو شرط يمكن أن نعبر عنه بشرط التواصل بين العامة والخاصة أو الحاكمين والمحكومين، إذ كلما كانت القنوات التواصلية بين القيادة والشعب على قدر من الشفافية والصدق والوضوح والعمق كانت الحياة العامة أقرب إلى السلم الاجتماعي والرفاهية، وكلما انسدت هذه القنوات وانحجبت تعاظمت المشاكل وتزايد الغضب، ولهذا ينصح الحكيم النورسي الحكام بتوخي المنهج السليماني في التفقد، فيقول لهم ناصحا'' أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان -عليه السلام- واسعَوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها. فالحاكم العادل الذي يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطان الذي يرعى شؤون أبناء مملكته، ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاة إلا إذا استطاع الاطلاع'' اطلاعا مسئولا يراقب فيه الله تبارك وتعالى الذي استرعاه فيسأله يوم القيامة عن رعيته.

وإذا تحصل هذا على الإجمال واستبان انتقلنا لبيان العدالة في النظر الملكوتي.

٥- العدالة والنظر الملكوتي:

من إشراقات بديع الزمان النورسي الإشارية[47] ذهابه إلى أن ''المعارف الدينية والتعبدية لا يمكن للمرء أن يستكمل جميع ما يتقطر منها من حلاوة ولذة إلا باستخدام جميع أحاسيس كيانه الروحية منها والمادية''.[48] ولذلك كان مَنْ عَرِيَ عن التربية الروحية الصوفية لم يتم له تحصيل معرفة دقيقة بما صار إليه القوم في أذواقهم وأحوالهم مع الباري ﷻ في فهمهم عنه حكمته وعدالته.

وعليه يكون النظر الملكوتي مختصا بالبحث عن المعاني وعن الحكمة المتوارية خلف سجف الظواهر الملكية، وهذه المعاني هي عبارة عن ''قيمة ينبغي لمن يدركها العمل بمقتضاها''،[49] وَجِهَةُ الملكوت''هي محل تعلق القدرة في كل شيء''.[50] والحق أنها درجات إلى غير غاية لا يتراءى منها لعلماء الظاهر إلا أقربها أما تلك البعيدة النائية في مضمار الحكمة الإلهية فهي مخصوصة بأهل المعرفة بالله ذوي الجناحي[51] الواصلين الموصولين الذين ينظرون بأنوار قلوبهم أمثال سيدي عبد القادر الجيلاني وحجة الإسلام الغزالي والشيخ الأكبر محي الدين والشاذلي و الرفاعي وجلال الدين الرومي وغيرهم من رجال الله الكبراء ممن ذكرهم وأثنى عليهم وعلى معرفتهم الحكيم النورسي وهو من غير شك غصن من أغصان شجرتهم المباركة.[52]

أول ما يسترعي الانتباه في فهم ''العدالة'' من هذا المنظار الملكوتي هو أن العدالة تجل لاسم من أسماء الله الحسنى (العدل) ولهذه الأسماء أسرار صمدانية لا تنفتح إلا بمفاتيح الأجهزة المودعة في الفطرة[53] بالتعرف على الفعل وفاعله، ذلك أن '' الأسامي المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال وكل ما في الوجود من أفعال الله تعالى''.[54] ومن لم يحط علما بتفاصيلها ولا بجملتها فلا يكون معه منها إلا محض التفسير واللغة ولا مطمع في العلم بتفصيلها فإنه لا نهاية له، فيكون اسم الله ''العدل'' حقيقة تنعكس صورتها على مرآة الخلائق والموجودات[55] بحسب استعداداتهم الإيمانية في التخلق بهذا الاسم من أسماء الله تعالى. وكلما ابتعد الإنسان عن حقائق الإيمان ضعف شعاع الأسماء وبهت تجليه حتى يصير إلى التزييف مع الكفر.[56]

وكما تتبدى العدالة منحصرة في النظر الملكي نظاما وتساويا وترتيبا وحقوقا على الأقدار وميزانا ودقة، تتراءى لأهل المعرفة بالله في النظر الملكوتي مرائي لا حدود لها ذلك أن لاسم الله ''العدل'' حُجُبا مختلفة، وتجليات متنوعة، ودوائر ظهور متباينة، ولا يخرج فيها فعل من أفعال الله عن قانون العدل وأبدعية الإيجاد والإمداد، ففي الضر عدالة لا تقل عما في النفع، وفي النقص عدالة لا تنزل عن الزيادة وفي المرض عدالة ليست دون الصحة وهكذا، وهو مقام الرضا ''اعلم! إنك إذا عرفتَ أن الكلَّ منه تعالى، وأذعنت به، لابد أن ترضى بما سرّ أو ضر. وإن لم ترض، اضطررت إلى الغفلة''.[57] ومقام الرضا أو التسليم والتصديق لا يناله إلا خاصة الخاصة من أمثال الحكيم النورسي ومن سار على نهجه من أهل الذوق والمباشرة، إذ شتان بين من ينطق عن درسه ونفسه وبين من ينطق عن ربه، هؤلاء الذين يميزون بين نوعين من الأسباب: السبب الظاهر الذي يتجلى فيه ظلم الظالمين، والسبب الخفي أو الحقيقي والذي تجلى في عدل رب العالمين، يقول الحكيم معلما ومربيا في عز جهاده ومحنته: '' وقد أصبح أهل الدنيا سبباً ظاهراً وأتوا بي إلى ههنا. أما القدر الإلهي فهو السبب الحقيقي، فحكم عليّ بهذه العزلة. والسبب الظاهر ظَلَمَ، أما السبب الحقيقي فقد عدل''.[58] إنه فهم لا ينفي ظلم الظالمين أو يستره كما هو شأن الجبرية ولكنه يُعَيِّنُه بفقه حدوده المُلكية التي تقتضي إنكاره على أهله المستكبرين مع استجماع شرائطه لأن هذا أمر الشريعة، كما تقتضي الحقيقة ربطه بالتدبير الملكوتي محل الأسرار الذي قد يكون فيه تأديب وتعليم وتنبيه وتطهير واختبار. يقول النورسي ''إذا فهناك حاجة في الوقت

الحاضر بحيث يسلط القدر الإلهي أولئك علينا، فهم يقترفون الظلم بإسناد جمعية موهومة. والقدر الإلهي يقول لنا :لِمَ لم تكوّنوا بإخلاص تام وبتساند تام حزب الله الحقيقيين؟ فصفعنا صفعة تأديب بأيديهم. وقد عدل."[59] هذا الفهم العالي تجد فيه دورانا مع رحى القدر تتبعا لحركتها وحرصا على تطابق الأمر التكليفي مع الأمر التكويني ليحصل في قلب المؤمن اليقين التام بأنه ما تم إلا الله لا شريك له، وقد صدق قائلهم:

سَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيْثُ سَارَتْ وَاتْبَعْ رِيَاحَ القَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ

يقول حجة الإسلام الغزالي في نفس المعنى"بل شاهدوا جميع ذلك عدلا محضا لا جور فيه، وحقا صرفا لا نقص فيه، واستقامة تامة لا قصور فيها، ولا تفاوت، بل كل ما يرونه نقصا، فيرتبط به كمال آخر أعظم منه، وما ظنوه ضررا فتحته نفع أعظم منه لا يتوصل إلى ذلك النفع إلا به، وعلموا قطعا أن الله تعالى حكيم جواد رحيم لم يبخل على الخلق أصلا، ولم يذخر في إصلاحهم أمرا". [60]

إن الله ﷻ يبتلي عباده بالقبض والبسط، وكل شيء عنده بمقدار، وما من حدث جَلَّ أو قَلَّ إلا وله مغزى ومعنى كوني وجودي دنيوي أخروي علمه من علمه وجهله من جهله. والإيمان الصوفي السوي هو الذي يعطي للقدر الإلهي أدبه بالرضا لأنه من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته رضيت بقضائه، ولسعي العباد ومسؤولياتهم حقهما، في توازن وتعادل وحكمة.

ولما كان بديع الزمان معلما مربيا دالا على الله فقد اقتضت قواعد الدلالة التدرج بالمتعلمين من أدنى المراتب في النظر الملكي شيئا فشيئا درجة درجة حتى إذا استقر لهم فهم منطق الأسباب التوحيدي ارتقى بهم إلى منطق تلاشي الأسباب التجريدي حيث يمكن أن تتعطل الأسباب وتتحقق المسببات أو العكس، فيبطل بذلك التلازم المنطقي بين السبب والمسبب، أي إبطال الترابط بينهما في الاتجاهين:الطردي (أو الكافي) والعكسي (أو الضروري)[61] وهو فهم عميق لا ينعقد لصاحبه إلا بعد تحصيل القدر الكافي من التوحيد، فيفهم أن الله مُوجِدُ الأسباب لكنها لا تفعل بذاتها بل به سبحانه "اعلم !أن عفوه تعالى فضل، وعذابه عدل؛ إذ كما أن من أكل سمًّا، فهو مستحق للمرض بحكم عادة الله المستمرة. فإن لم يمرض، فهو فضل وكرامة من الله بخرق العادة."[62]

ولقد ظل رحمه الله على نفس الطريقة من التعلق القلبي بفيض مولاه مسلما في كل محنه بالعدالة يراها وقد شملت كل أسلاك من سبقه من أهل الامتحان من النبيين والصديقين فكان يردد و يقول حينذاك: ''إن القدر الإلهي قد عدل في حقي من خلال ظلم أولئك الظالمين''،[63] ولم يكن ظلم الظالمين ليولد في نفسيته الحقد تجاههم، وإنما ظلت وظيفته تجاههم ''هي التمني لهم بالهداية''،[64] وهي الطريقة النبوية فيما عرفناه من سيرته ﷺ، طريقة العفو والرحمة وإظهار الشفقة خاصة حين أوذي في الطائف فقال: ''بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا''.[65]

ومن حسن ظن الحكيم النورسي بالله وعدالته ثباته على هذه العقيدة الصحيحة يبشر بها إلى آخر نَفَس في حياته العطرة، كان يقول النورسي ''إن للقدر الإلهي -الذي هو عدل محض- حصةً عظيمةً جداً فيما يسلطه عليك هؤلاء البشر من الظلم البيّن، وان رزقك في السجن هو الذي دعاك إلى السجن، فينبغي إذا أن تقابل هذه الحصة بالرضى والتسليم''.[66]

في النظر الملكوتي يكون مفهوم العدالة أشمل وأجمع لكل ما قصرت أنظار الخلائق عن تبصره وتدانت عن تفهمه مما افترضه النظر الملكي القائم على تعقب الظواهر السببية، واتساع الثقة هو الذي يورث هذا الضرب من الإيمان العميق، وعند الحكيم النورسي رحمه الله ثقة عالية بالله وإيمان عميق بموعوده، ولهذا كان يرى الناس بعين مؤمنين وكافرين ظالمين وعادلين، وبعين أخرى يراهم جميعا خلقا لإله واحد، فيحكم الحكم الصائب في النظرتين، لا تزاحم إحداهما الأخرى ولا تشوش عليها.

إنه إذا أردنا أن نقرأ العدالة بحروف كبيرة كما يقول أفلاطون في جمهوريته فينبغي أن نقرأها لا كما اعتقد في الدولة بمعناها الرسمي الحائل بل نقرأها كما يعلمنا الحكيم النورسي في تجليها الرباني الأزلي في اليوم الآخر. وقد تكون أعظم الدلالات على أهمية العدل تركيز الحكمة القرآنية على ''الدار الآخرة'' وإقامة محورها في الحساب والعقاب على ''ما كنتم تعملون'' وشمول هذه الدار أو إن شئت المحكمة على الثواب جنباً إلى جنب العقاب. وهو ما تنفرد به لأن محاكم الحياة الدنيا عادة ما تقتصر على العقاب دون الثواب. فبينما لا يلقى ''الإنسان ما يستحقه من الثواب أو العقاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلك الحكمة وتلك العدالة إلا نادراً، بل يؤخر، إذ يرحل

اغلب أهل الضلالة دون أن يلقوا عقابهم، ويذهب أكثر أهل الهداية دون أن ينالوا ثوابهم.. فلابد أن تناط القضية بمحكمة عادلة، وبلقاءٍ آيل إلى سعادة عظمى''.[67]

إن عند أهل الاختصاص بالله يقينا أن ''هناك إذن ديار غير هذه الديار، فيها محكمة كبرى، ودار عدالة عليا، ومقرَّ كرم عظيم، لتظهر فيها هذه الرحمة وهذه الحكمة وهذه العناية وهذه العدالة بوضوح وجلاء''.[68]

في النظر الملكوتي ترتقي القيم الحقة التي من أجلها توزن الأشياء والأعمال لا على ظواهرها من الضخامة والطول والكبر مما تستعظمه العيون في الرؤوس، ولكن العدالة والميزان يقامان على أساس من المعنويات والمهمات والماهيات، ''حيث تقتضي العدالة الحقة أن يلاقي هذا الإنسان الصغير ثوابَه وعقابه لا على أساس صغره، بل على أساس ضخامة جنايته، وعلى أساس أهمية ماهيته، وعلى أساس عظمة مهمته...''[69]

* * *

الهوامش:

[1] أستاذ الفكر الإسلامي والفلسفة.

[2] النورسي: اللمعات،١٨٢.

[3] النورسي: الكلمات، ٢٤٩.

[4] النورسي: الكلمات، ١٤٥.

[5] F. Nietzsche, Contribution a la Généalogie de la Morale, traduction et notes, Angel Kremar Marietti, U.G.D., coll., 10/18,1974

[6] النورسي: الكلمات، ١٤٥. وجدير بالذكر أن ابن خلدون ربط في مقدمته بين الاعتداء والخراب الذي يصيب العمران، يقول: ''اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها (..) وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب''. يراجع، المقدمة، دار القلم لبنان،ط٧، ١٩٨٧. ٢٨٦.

[7] نذكر في هذا المقام بفلسفة ميكيافللي في كتابه الأمير وهو تجسيد لفلسفات الإنسان المبنية على حق القوة في تدبير الشأن العام حيث لا يرى مهمة ووظيفة للأمير إلا الاشتغال بالحرب والإعداد لها وتنظيم طرقها وأن لا يفكر في شيء سواها إذ لا فن يحتاجه القائد إلا فن الحرب. يراجع، نيقولا ميكيافيللي: الأمير، ترجمة خيري حماد، تعقيب فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩، ١٣١.

[8] النورسي: صيقل الإسلام، ٣٥٩.

[9] طه عبد الرحمن: روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط١،٢٠٠٦،ص ٢٥٢.

[10] النورسي: الكلمات، ١٤٥.

[11] النورسي: الكلمات، ١٤٥.

[12] راشد الغنوشي: الحريات العامة في الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣،٨٦-٨٧.

[13] النورسي: سيرة ذاتية، ١٤١.

[14] النورسي: الكلمات،١٤٥.
[15] النورسي: الكلمات، اللوامع، ٨٥٥.
[16] النورسي: سيرة ذاتية،٥٠١.
[17] يراجع قصته رحمه الله مع أحد الطلاب في هذا الشأن، ملحق أميرداغ، ٤١٨/٢.
[18] النورسي: اللمعات، ٢٧٧.
[19] النورسي: الكلمات،٥٠٨.
[20] جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان: رجل تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. حجرات:١٣ يراجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٩٢/١٦. ومسند الإمام أحمد،٣٦١/٢ رقم الحديث ٨٧٢١.
[21] النورسي: المكتوبات،٧٩.
[22] النورسي: المثنوي العربي، ٢١٣. ويراجع أيضا ما جاء من تشنيع على التعصب للقوميات في: المكتوبات،٦٨.
[23] المقدمة:٢٨٧.
[24] النورسي: اللمعات، ١٣٤.
[25] النورسي: صيقل الإسلام، ٤١٦.
[26] النورسي: المكتوبات،
[27] النورسي: الكلمات، اللوامع، ٨٥١.
[28] النورسي: الكلمات، اللوامع، ٨٥١.
[29] ابن خلدون: المقدمة، ٢٨٦.
[30] النورسي: الكلمات، ٤٧٤.
[31] النورسي: المكتوبات.
[32] النورسي: نفسه.
[33] النورسي: نفسه.
[34] النورسي: صيقل الإسلام، المناظرات، ٤١٦.
[35] النورسي: الكلمات، ٣٢٧.
[36] النورسي: الكلمات،٦٢٤.
[37] النورسي: الكلمات، اللوامع، ٨٦٢.
[38] النورسي: المكتوبات،٦٧.
[39] النورسي: المكتوبات، ٦٧
[40] النورسي: المكتوبات،٤٨.
[41] النورسي: الكلمات، اللوامع،٨٥١.
[42] النورسي: المكتوبات،٤٩.
[43] النورسي: الكلمات، ١٧٢.
[44] النورسي: ملحق قسطموني، ٢٠٣.
[45] النورسي: صيقل الإسلام، ٣٩٤.
[46] النورسي: صيقل الإسلام، ٣٩٨.
[47] في مبادئ الإشارية الصوفية يراجع عملنا: اللسانيات الإشراقية عند ابن عربي، الفعل الإنشائي نموذجا، ضمن المنطلق الجديد، لبنان، ع٦، ٢٠٠٦، صص١٤٦-١٤٧.

[48] النورسي: المثنوي العربي النوري، ١٩.
[49] طه عبد الرحمن: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥، ١٩.
[50] النورسي: المكتوبات، ٦٥٧.
[51] عند الحكيم النورسي أن العلماء ورثوا علم الرسول ﷺ والمتصوفة ورثوا عمله، لذا يطلق على من يرث علم الرسول وعمله معاً ذي الجناحين. يراجع: النورسي: سيرة ذاتية، ٣١.
[52] في ثنائه على هؤلاء الرجال يراجع: الكلمات، ٢٨٥، ٤٦٩، ٨٣٢ والمكتوبات: ١٠١ واللمعات:٥٢-٥٣.
[53] النورسي: الكلمات،١٣٨.
[54] الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، ط١، ١٩٨٧،٩٩.
[55] النورسي: الكلمات، ٢٦٢.
[56] النورسي: الكلمات، ٥٤٤.
[57] النورسي: المثنوي العربي النوري، ٤٠٢.
[58] النورسي: المكتوبات،٥٨.
[59] النورسي: الشعاعات،٥٧٩.
[60] الغزالي: الأربعين في أصول الدين، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٧٩، ١٨٣ -١٨٤.
[61] يراجع: الغزالي:معيار العلم،تحقيق حسين شرارة، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٤، ١٩٠-١٩١.
[62] النورسي: المثنوي العربي، ٤٠٥.
[63] النورسي: اللمعات، ٢٦٤.
[64] النورسي: ملحق أميرداغ، ٣٧١.
[65] البخاري: الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير اليمامة بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ١١٨٠/٣.باب ذكر الملائكة حديث رقم٣٠٥٩، وفي مسلم: صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحت رقم٣٣٥٢ في الجهاد والسير باب ما لقي النبي من أذى المشركين.
[66] النورسي: اللمعات،٣٩٨.
[67] النورسي، الكلمات، ٦٨.
[68] النورسي، الكلمات، ٥٧.
[69] النورسي: الكلمات، ٦٩.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ عبد الحكيم بن محمد الأنيس

س ١- نودُّ أن يتعرّف على سيادتكم قراءُ مجلة النور للدراسات الفكرية والحضارية؛ فمَنْ هو عبد الحكيم الأنيس؟

ج- أنا عبد الحكيم بن محمد الأنيس.

عملي الآنَ كبير باحثين أول في إدارة البحوث بدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، وعضو هيئة كبار العلماء فيها.

وُلدتُ في مدينة حلب في سورية عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، ودرستُ فيها المرحلة الابتدائية، والمتوسطة.

ثم رحلتُ إلى العراق، ودرستُ الإعدادية في إعدادية الدراسات الإسلامية في مدينة الفلوجة بمحافظة الأنبار.

ثم حصلتُ على البكالوريوس من كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد سنة ١٩٨٨م، وكذلك درجة الماجستير سنة ١٩٩٣م، والدكتوراه سنة ١٩٩٥م، في العلوم الإسلامية عامة، والتفسير وعلوم القرآن خاصة.

س ٢- حدّثنا عن بداياتكم التعليمية.

ج- درَّستُ وأنا أحضر للدكتوراه بصفةِ محاضرٍ في جامعة صدام للعلوم الإسلامية.

وبعد الدكتوراه درَّستُ في كلية التربية بجامعة صنعاء، ثم في كُليتي كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، وجامعة صدام للعلوم الإسلامية ثانية.

ثم حين أقمتُ في دبي درَّستُ في كلية الدراسات الإسلامية والعربية.

س ٣- حدّثنا عن بداياتكم البحثية.

ج- أظنَّ أنَّ الميول البحثية لديَّ مُبكرة، تعودُ إلى أول عهدي بطلب العلم، ونمَتْ شيئاً فشيئاً، ونشرتُ أول مقال لي وأنا في التاسعة عشرة من العمر، وكان في مجلة التربية الإسلامية في بغداد، وتابعتُ البحث والكتابة إلى الآن... وقدَّر اللهُ أن يكون عملي في مجال البحث العلمي، وتحقيق التراث، وذلك في دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي، ثم في إدارة البحوث بدائرة الشؤون الإسلامية.

س ٤ - ما الذي بقيَ من ذكريات العراق؟

ج- أقمتُ في العراق مِنْ عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٨ وهذا وقتٌ طويلٌ -وإنْ تخللته أسفارٌ إلى الحرمين الشريفين، والأردن، واليمن-.

لقد دخلتُ العراق وأنا في الخامسة عشرة وغادرتُه وأنا في الثالثة والثلاثين، وهذه أهمُّ سنوات الشباب وأقواها وأحلاها، وفيها حصلتُ على البكالوريوس، والماجستير، والدكتوراه، ودَرَسْت ودرَّستُ، وتزوجتُ، وتحت كل عنوانٍ من عناوين هذه المراحل مشاهداتٌ وذكرياتٌ لا يقوى الجزرُ على إيقافِ مدّها، ولعلّي أفرغُ لإظهارِ هذه المشاهدات والذكريات... العراق لا يُنسى.

س ٥ - أهمّ الشخصيات الأكاديمية التي استوقفتكم في مساركم العلمي؟ ومَنْ منها كان لها كبير أثر على شخصكم الكريم؟

ج- أخذتُ عن كثيرٍ من العلماء، وكان تحصيلي الخاص يُوازي التحصيلَ الرسمي، وذلك في الجامع والجامعة، وفي بيوتِ العلماء...

ومِنْ أبرز شيوخي في حلب: الشيخ محمد السلقيني، والشيخ أحمد القلاش، والشيخ محمد زهير الناصر، والشيخ محمد عوامة.

ومِنْ أبرز شيوخي في الدراسة الجامعية -بمراحلها الثلاث- في العراق: الدكتور محسن عبد الحميد، والدكتور هاشم جميل، والدكتور حارث الضاري، والدكتور محيي هلال السرحان، والدكتور عبد الله الجبوري، والدكتور محمد عبيد الكبيسي، والدكتور محمد رمضان عبد الله، والدكتور مصطفى الزَّلَمِي.

ومِنْ أبرزهم في الدراسة الحُرّة: الأستاذ الشيخ عبد الكريم الدَّبَان التكريتي، والأستاذ الشيخ عبد الكريم المُدرِّس، والشيخ جلال الحنفي البغدادي...

ومِنْ أبرز شيوخي المُجيزين: الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد العزيز الغُماري، والشيخ أبو الحسن النَدْوي، والشيخ محمد عبد الرشيد النُّعماني.

س ٦ - متى كانت أوائل الصلة برسائل النور؟ وكيف تمَّ ذلك، ومتى؟

ج- أول ما عرفتُ الأستاذ النُّورْسي ورسائل النور من كتاب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه ''من الفكر والقلب''.

ثم بدأتُ أتابعُ ما يُعرّبُهُ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي وينشرُهُ في مجلة التربية الإسلامية، وفي رسائل خاصة، وكان لما يُعرّبُهُ وينشرُهُ أثر كبير في نفوس القراء، والمُتلقين، والمُتابعين، ولاسيما في مجال حقائق الإيمان إثباتاً وتثبيتاً.

وأثّر فيَّ كثيراً كتاب ''ذكريات عن سعيد النورسي'' الذي أخرجه أُسيد قاسم الصالحي، وجعلني أقرأ الرسائل بصورةٍ أفضل.

س ٧ - ما الذي استوقفكم في رسائل النور؟

ج- أول ما استوقفني اسمُها الذي يدلُّ على حقيقتها، ثم مضمونُها فهي رسائلُ نور، تغذّي النفس، وتمتع العقل، وتشرح الصدر، وهي تزيدُ المؤمنَ إيماناً، وتعصمُه من الشبهات، وتقويه على تجاوز الشهوات...

وممّا استوقفني فيها أثرُها المعنوي في قراءها، ومُتابعيها، وظهورُ تجلياتها في سلوكهم، وتعاملهم.

وشدّني كثيراً ما رأيتُه فيها مِنْ تمازجِ العقل والنقل، والتحليلِ العميقِ للنصِّ والواقع.

س ٨ - الرؤية المنهجية في رسائل النور جلية، فيمَ تتمثّل معالمُها؟

ج- أبرز معالم الرؤية المنهجية تتمثلُ في تطبيق ما كان يراه الأستاذُ من منهج البحث العلمي في كتابه المهم ''محاكمات عقلية''، وهذه لمحةٌ يطولُ شرحها.

س ٩ - مسلك عرض مضامين الدين في رسائل النور مميزٌ، فما عناصر هذا التميّز؟

ج- نعم، لقد كان مسلكُ عرضِ مضامين الدِّين في رسائل النور مميزاً، ومِنْ عناصر

هذا التميُّز المعاصرةُ المتوهجةُ التي تُلاحِظُ تمامَ الملاحظة ما يدورُ في أذهانِ الناس، ومجتمعاتِهم، وما يُثارُ في حياتهم، وما يُقال عن دينهم، وثقافتِهم وتاريخِهم، وما يهمُّهم في حاضرِهم، وما ينتظرُهم في مستقبلهم.

وكذلك ملاحظةُ طبقاتِ المُتلقين، وتخصيصُهم بما يُوافِقُ مستواهم العقلي والفكري، كما نرى مثلًا في "عصا موسى"، و "ذو الفقار"، و "الطلاسم"، و "سراج النور"، و "الموازنات"...

وقد كانت هذه المعاصرةُ المتوهجةُ بعد حرثٍ دقيقٍ للتراث العلمي لدى المسلمين المنقولِ في: حلقاتِ العلم، وكتبِ الجادّة، والكتبِ المصادر... وبهذا جاءتْ معجزةً معنويةً للقرآن الكريم وفقَ أفهام أبناء هذا العصر كما قال الأستاذ.

س ١٠- أوصى النُّورْسي في آخر درسٍ له بالعمل الإيجابي، ما أهمية هذا في حماية المكاسب المعنوية ومن ثمّ المادية؟ وفيمَ تتمثّل أهمية هذا التوجيه التربوي؟

ج- دَرْسُ الأستاذ النُّورْسي الأخير ثمرةٌ طيبةٌ ناضجة مِنْ ثمار رسائل النور الكثيرة، بل هو مِنْ أهم الثمار...

إنَّ هذا الدرس أقام سياجاً مِنْ فولاذ دون تورُّط الناس في الفتن الداخلية، واقتتالِ المسلمين فيما بينهم، وحصَرَ الجهاد في دفع العدو الخارجي، وبذلك أمّن خطوات الدعوة الداخلية، وحفِظَ منجزاتها، وضاعَفَ مكتسباتها، وبيَّنَ بكل شجاعةٍ ووضوحٍ لجميع الناس -حكاماً ومحكومين- أنَّ هذه الدعوة لا تمثلُ أيَّ خطر على الأمن والسلم الاجتماعيين... فهي دعوةٌ تبني ولا تهدم، وتجمعُ ولا تفرّق، وتعفو ولا تنتقم، وتنظرُ إلى الأمام وتتقدَّم، ولا تنشغل بالماضي فتحجم، رائدُها الإخلاص، ومهمتُها إنقاذُ الإيمان، ووسيلتُها الكلمةُ العالِمةُ، والنصيحةُ الهاديةُ، والشفقةُ الغامرةُ.

حقاً إنَّ هذا الدرسَ الذي يمثل فكرَ الأستاذ خلاصةٌ رائعةٌ لتجربةٍ رائدةٍ، كان مِنْ آثارها وحدةُ الصف الداخلي، وتغليبُ المصلحة الوطنية، ونبذُ العنف، وسيادةُ لغة المحبة، والتآخي، والتسامح.

لقد ظهر النورسي في هذا الدرس مِنْ كبار العقلاء والحكماء...

وإني هنا أدعو إلى قراءةِ هذا الدرس قراءةً واعيةً مدركةً، وإلى تحليلٍ ذكيٍّ له، وإشاعةِ محتواه... فالعالم الإسلامي خسرَ كثيراً لبُعده عن مثل هذه المعاني.

س ١١ - حضرتم كثيراً من نشاطات الأكاديميين الشباب المهتمين برسائل النور، ما تعليقكم على سمعتموه من الطلبة؟ وما نصيحتُكم لهم؟

ج- حضوري لعددٍ من مؤتمرات الأكاديميين الشباب المهتمين برسائل النور كان فرصةً طيبةً لمعرفة هؤلاء الشباب من العالم العربي والإسلامي والغربي، ورأيتُ أشواقَهم للدراسة والبحث في أعماق رسائل النور، وآفاقها... ورغبتَهم في الغوص في بحرها المعرفي، والاستفادةِ من زخمها العلمي...

وكلمتي لهم أنْ يحرصوا حرصاً تاماً على قراءةِ هذه الرسائل قراءةً دارسةً فاحصةً متعمقةً تامةً، كما تستحق، وأن يفهموها كما هي، لا كما هم، وكذلك أن يحرصوا على قراءةِ تراث الأستاذ كله، ما سَبَقَ الرسائلَ وما دَخلَ فيها مِنْ ذلك السابق، وما وازاها والتحقَ بها من الملاحق والمُرافعات... ويُعينُ على هذا معرفةُ حياة الأستاذ كما جاء في ''السيرة الذاتية'' المُوسعة، والمُختصرة...

وكلمتي الأخرى لهم أن تكون موضوعاتُهم مقتصرةً على فكرةٍ واحدةٍ يُشبعونها بحثاً، وتتبُّعاً، وفحصاً، وتأملاً، وهذا هو السبيلُ الأمثلُ لدراسةٍ ذات شأن وجدوى.

وأن يجعلوها مُنطلَقاً للأمة في البناء والتعمير: المادي والمعنوي.

ومن المهم أنْ يطلعوا على المكتبة التي أقيمتْ على الرسائل، وعلى حصادِ المؤتمرات العلمية العالمية التي عُقدت عنها، ففيها جولاتٌ مهمةٌ للدارسين والباحثين.

إنَّ من الضروري ألا يظلموا الرسائل، ولا يظلموا أنفسَهم.

س ١٢ - هل يمكن الاستغناء عن التميّز الأكاديمي في الكتابة عن النُّورْسي؟ وهل يمكن تصوّر تأثير معرفي إذا فقدنا الحرص على الأكاديمية؟

ج- لا يمكن أبداً الاستغناءُ عن التميُّز الأكاديمي في الكتابة عن النُّورْسي، وهذا في الدراسات الجامعية مِنْ حيث المنهج، واللغة والأسلوب.

أما في الدراسات التي تُراعي فئاتٍ من المجتمع بقصد التحبيب والتيسير فإنَّ لها شأناً آخر، فهي مُطالبَةٌ بصرامة المنهج، ومُسامَحةٌ مِنْ حيثُ اللغة والأسلوب.

والخلاصة أنَّ الفئات المستهدفة مِنْ أي جهدٍ دراسيٍ بحثيٍ هي التي تحدِّدُ الطريقة المناسبة لها.

س ١٣ - لكم جملة من الإسهامات عن رسائل النور، بودّنا ذكر تعريف مجمل عنها، تحبيبا لقراءتها ومن ثمّ قراءة رسائل النور.

ج- إسهاماتي في رسائل النور متعددة، منها ما شاركتُ به في ندوات الأكاديميين الشباب:

فقد قدمتُ في الندوة الثانية: كلمات في البحث العلمي لا سيما عند النُّورْسي.

وفي الندوة الثالثة: خمسون قاعدة في دراسة رسائل النور.

وفي الندوة الرابعة: النُّورْسي في عيون الشهود.

وفي الندوة الخامسة: ثلاثون رسالة إلى الباحثين الشباب.

ولي كلماتٌ في مؤتمرات، وندوات نورسية، في تركيا والهند، ك "النورسي رجل السلام"، و "النورسي تذكار السلف"، وغير ذلك.

س ١٤ - يذكر بعضُ الباحثين أنّ الأستاذ النُّورْسي أميلُ عن المقارنات بين الرسائل وغيرها من المُصنفات، وبالرغم من ذلك يميل المحبون لها إلى مقارناتها بغيرها من المصنفات. فما تعليقكم على هذا التقرير؟

ج- قد يكون موقفُ الأستاذ النُّورْسي في عدم المقارنات بين الرسائل وغيرها مِنَ المُصنَّفات مُنطلِقاً مِنْ تواضعٍ ذاتيٍ يَخشى مِنْ أنْ تقودَ المقارناتُ إلى تفضيلٍ لا يَنْسجمُ مع الإخلاص الذي كانَ يَحرصُ عليه أشدَّ الحرص.

وأمّا المُحبون للرسائل والدارسون لها والباحثون فيها فهُمْ في منجاةٍ من هذا الخوف، وقد يرون في المقارناتِ فائدةً علميةً في توضيح رأيٍ أو فكرةٍ أو اجتهادٍ، وفائدةً عمليةً في تحبيب الناسِ بها، ودعوتِهم الى قراءتها والاستفادةِ منها.

* * *

الإصدارات

قراءة في كتاب

الكتاب: رحلتي مع رسائل النور.

المؤلف: إحسان قاسم الصالحي.

مطبعة ايماك، إسطنبول.

الطبعة: الأولى، شباط ٢٠١٦.

يستسهل بعض المصنفين تلخيص مصنّف يعرّف بـ "رحلة"، ولعمري هو أصعب من تلخيص مصنف فلسفي، أو وضع كتاب مستقل، ذلك أنّ الرحلة في عالم القلب والعقل تمتزج فيها جملة من الأحوال والأوضاع يصعب الأمر فيها المصنف نفسه، فكيف بمن يلخّص؟ لهذا فالملخص لا يغني عن تلمّس الاستزادة ومعرفة الملابسات من المصنف نفسه.

"رحلتي مع رسائل النور"، مصنّف ليس كسائر المصنفات، فهو ليس سردًا لوقائع ولا تسجيلًا لمذكرات أو ذكريات، كتبه صاحبُه استجابة لرغبة ملحّة (حاول دفعها في كثير من الأحيان) وإصرار شديد من بعض الفضلاء على تسجيل ما شاهد وواكب المصنف في مسيرة حياته، وخاصة المرحلة المتعلّقة بترجمة رسائل النور وما زامنها وأعقبها من جهود عايش ميلادها ونموّها في المؤتمرات العلمية واللقاءات الأكاديمية والأهلية. استجمع الأستاذ إحسان لذلك كلّ قواه مسجّلا مبوّبا مرتّبا من غير إطناب أو تفصيل لا طائل منه، ويؤكّد في المستهل أنّ الكتاب أشبه برسالة من أخ يعزّك، يطلب قراءتها على مكث وبإمعان وإنعام نظر، ناصحًا بقوله: "خذ ما صفا ودع ما كدر".

١ - بواكير التربية الإيمانية:

استهل الأستاذ إحسان مصنفه بتعريف القارئ بالجو العائلي المفعم بروحانية عالية

وجو علمي متذوّق لعلوم العربية، فالكتاب غني بالمعالم الكبرى للتربية الأسرية الراقية، سرد فيه مصنفه مراحل ما قبل الجامعة وما بعدها، ولع في وقت مبكّر بالخط العربي، حتى إنّه يتألم نفسيًا عندما يشاهد خطًا على غير القواعد المثبتة للخط.

عرف التوجه إلى العمل التربوي المرافق بجهود مرشدين من مختلف المشارب وخاصة جماعة الإخوان المسلمين في مرحلة التعليم الجامعي، استقر في أرواح جيله أنّ المحبة الخالصة والأخوة الصادقة؛ وأنّ الالتزام بالإسلام الوصل الدائم بين القول والعمل، استلهم تلك المعاني من قول الإمام حسن البنا: ''أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبًا سياسيًا ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد. ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داو يعلو مردّدًا دعوة الرسول ﷺ. ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلّى عنه الناس''. وثبّتت تلك المعاني بما تعلّمناه من الأخ ''سليمان محمد أمين القابلي'' عمليًا، كما تعلّمنا منه تعظيم حرمات الله وتعظيم الرسول ﷺ وتعظيم كل ما يمت إلى الإسلام بصلة. عشنا معه الأخوة الإسلامية المستولية على القلوب والعقول... وهو من شجعني كثيرًا على ترجمة رسائل النور؛ وكان يعتقد جازمًا أنها ذات أهمية قصوى في هذا العصر، وأنها أهم من الكتب الإسلامية التي كانت متداولة في عصره، لهذا عقدت في بيته دروس نورية، وكان يبدي خلالها حرصًا على تدقيق الترجمة. قال الأستاذ إحسان: ''وما أسمع الآن من أساتذة كبار في العربية والأدب العربي من مدح وثناء على الترجمة يعود فضله إلى الله سبحانه ثم إلى الأخ سليمان الذي كان عنده حاسة غريبة في معرفة العجمة، وقد نبهني إليها كثيرًا وقمت بالتعديل والتصحيح.''

- كانت الخمسينات من القرن الماضي بدايات التعرّف على رسائل النور، كان ذلك بواسطة طالب النور التركي ''أحمد رمضان''، معرفة لم تكن مشفوعة بقراءتها وتفحّص معانيها ومراميها، وكان بعضنا يرى فيها الردّ على الأمراض المعرفية للعصر (نظرية التطور)، جاءنا الأخ ''رمزي محمد جميل'' -زميل مراحل التحصيل الأولى- الطالب في كلية الطب بجامعة إسطنبول، فذكر أنّ بديع الزمان سعيد النورسي قد دحض هذه النظرية من أساسها. فكانت أولى محاولات القراءة الفاحصة لكتاب Lem'alar الذي أفادنا به الأخ أحمد رمضان، ولم ننتبه في تلك الفترة لما حوته ''اللمعة الثالثة والعشرين'' (رسالة الطبيعة) من مقوّضات فكرة التطور وإبادة تيار الكفر

النابع من مفهوم ''الطبيعة'' إبادة تامة، وتُفتّت حجر زاوية الكفر وتحطّم ركيزته الأساس.

- نقلنا الأستاذ إحسان إلى تفاصيل مهمّة في تاريخ رسائل النور وانتشارها ورؤية صاحبها للدعوة والإرشاد، فهي حوار له مع أحمد رمضان، ذكر أنّه عمل مديرًا للنشر في مجلة ''بيوك دوغو'' (الشرق الكبير) بقصد نشر بعض أجزاء من رسائل النور فيها. وفعلاً نشر بعض الأجزاء، وترك ذلك بتوجيه من الأستاذ النورسي، حيث طلب منه ترك وظيفته والعمل على نشر رسائل النور في الخارج، وحمّله رسالة إلى الإخوان المسلمين في مصر... وبتوجيه منه أيضا مكث في بغداد بدءًا من سنة ١٩٥١م، وكانت الفرصة مواتية لمصاحبة كثير من علماء العراق وانتهاز الفرصة للتعريف بالرسائل (مطبوعة بالرونيو باللغتين التركية والعربية) ونقل رسائل النور إلى أوسع شريحة من المجتمع، فسجّل في تلك الفترة إعجاب العلامة عبدالكريم زيدان بـ ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز'' ونشر عنها نواب صفوي (رئيس جماعة فدائيان إسلام بإيران) في مجلته ''القدس''، وشارك في مؤتمر القدس سنة ١٩٥٣م مع كثير من العلماء العاملين.

كانت للمصنف رحلته مع جمعية الأماني التي أسس فرعها سنة ١٩٦٣ بكركوك، وانتخب في اجتماعها الأول رئيسا للفرع، وأبلت بلاءً في التعليم المسائي والتعليم المصاحب إلى أن أُلغيت إجازتها أواخر عام ١٩٧٥م.قال الأستاذ إحسان: ''وما ذكرتُ هذه الفقرة إلاّ ليغنم أولئك الإخوة البررة الدعاء من القراء الكرام، فمنهم من رحل عنا إلى دار البقاء ومنهم من ينتظر.''

- نقل للقارئ صورة عن زيارة القدس في سنة ١٩٦٦م برفقة أخويه. قال الأستاذ إحسان: ''ولما دخلنا المسجد الأقصى لصلاة الظهر أجهش أخي الأكبر بالبكاء ولم يزل يبكي إلى أن أكملنا زيارة كثير من الأماكن في داخل السور الكبير. ومنذئذ لازم القرآن والإيمان إلى أن تغمده الله برحمته.''

- يذكر المصنف عند الزيارة ما ذكر له الأستاذ سليمان القابلي من فراسة الشيخ أمجد الزهاوي، أنه عندما شرعوا في جمع التبرعات لتذهيب قبة الصخرة، قال لهم: اشتروا بهذا المال مدافع، فذلك أفيد للقدس.

٢ - التعرّف على طلاّب رسائل النور:

- تم بفضل الله لقاء طلاب النور عام ١٩٧٥م وخلال زيارة سياحية عائلية خاصة إلى تركيا اقتنيت كتابين لنجم الدين شاهينر عن حياة سعيد أولهما عنوانه: ''بديع الزمان وجوانب مجهولة من حياته'' والآخر ''طريق نورس''. تكررت الزيارة عام ١٩٧٧م، وقعت خلالها موافقات عجيبة، كانت من نتائجها زيارة مدرسة نورية لأول مرّة، والاستماع إلى درس من دروس النور وقرأ أحدهم (وهو الدكتور محمد جوشقون سيل) قطعة رائعة لوصف يد الرسول ﷺ، لم أسمع مثلها من قبل.

عشت معهم بضعة أيام جميلة. كان معاون مدير محطة السكك هناك (حسين أوستون داغ) يلح كثيرًا على ضيافتنا في بيته وكنت أرفض. ولكن لشدة إصراره قبلت. وأخذَنا إلى بيته، نحن مع الأولاد في الحديقة والعائلة مع النساء في الداخل. قدّم لنا طعامًا، ولفت انتباهي بساطة الطعام وعدم التكلف له، حتى لكأننا بعض أسرته، وقال: يا أخي أنتم لمّا وافقتم واستجبتم للدعوة اتصلت بأهلي وقلت: إن عندنا ضيوفًا. فقالت لي: وهل هم منا أم غرباء عنا؟ قلت: إنهم منا. هذا الطعام الذي تراه هو طعامنا نحن، وأنتم منا. هذا الكلام الفطري الصادق النابع من القلب نزل بردًا وسلامًا على قلبي! وإلى الآن أشعر بلذته في قلبي. ومن خلالهم تعرفنا على المدارس النورية في المدن التي مررنا بها إلى إسطنبول، شاهدنا فيها إسلاما حيًا. كانت هذه سنة التعرف على الأخ الكبير محمد فرنجي في المدرسة النورية في قيصري.

حين طلبت ترجمة رسائل النور في مصر أو سوريا سمعت في صيف ١٩٧٨م قول الأخ الكبير محمد فرنجي، مقولة تلخّص علاقة طلاب النور بالرسائل وشروط النجاح في ترجمتها، فقال: ''وجودُه في عدمها، عدمُه في وجودها''، ويقصد بذلك أنّ المترجم لا يحصل له المراد إلّا إذا عدّ المترجم والمتعلّم نفسه عدمًا أي أنه طالب والنورسي أستاذه فعندئذ تكون ترجمته ترجمة خالصة للرسائل لا حظّ لنفسه فيها.

- بدأ الإخوة الأعزاء من مختلف الأعراق (التركماني، الكردي، العربي) بالتوافد إلى بيتي لأجل قراءة الرسائل والاستماع إليها. فكنت أفتح أي رسالة كانت وأقرأها على الضيف الكريم فأجده يقول: والله كان هذا سؤالاً في ذهني والآن وجدت الجواب. حدث هذا عشرات المرات، وكان الانصراف إلى الاشتغال بتفهّم رسائل النور وارتشاف الحقائق القرآنية منها بركة عميمة على أوقاتنا جميعًا، فشغلت بترجمتها

لأجل البلاغ بسبب انتشارها، وكيف أترجم مع عدم الاختصاص؟ قال المصنف: ''ولكن الله سبحانه الذي يخلق من بذرة صغيرة شجرة باسقة مثمرة. إذا أراد شيئا أوجد أسبابه. فوعدني الإخوة خيرًا بالتعاون التام. فلما باشرت بالترجمة كتابة كان الأخ عابدين رشيد أول ناصح وقارئ للترجمة''.

٣- بداية الترجمة الفعلية:

''أرسلت أوائل ما ترجمت إلى الأخ أورخان محمد علي رحمه الله (الحاذق بالترجمة)؛ فعادت إليّ الترجمة والصفحة مليئة بالخطوط الحمراء. ذلك لأني ترجمتها ترجمة حرفية، وأغلب الجمل تبدأ بجمل اسمية كما هي في اللغة التركية. بينما في اللغة العربية أغلب الجمل تبدأ بالفعل. وهكذا عرفت خطئي، ومرّت الترجمات الأخرى بسلام.''

- كان لكثير من الأسماء اللامعة آثار محمودة على الترجمة وتخريج الأحاديث، وتنظيم الفهارس، والسعي إليها في كلّ ما يخدمها، منهم: الأستاذ سليمان محمد أمين القابلي (شيخ دعاة كركوك كان ضليعا باللغتين التركية والعربية)، والأستاذ أديب إبراهيم الدباغ، والأخ عابدين رشيد، والأستاذ غانم حمودات، والأخ حازم ناظم فاضل، والأخ فلاح عبد الرحمن عبد الله، والدكتور عماد الدين خليل والدكتور محسن عبد الحميد والدكتور حازم عبد الله خضر والدكتور إدريس الحاج داوود والشيخ عمر فتاح يعقوب الريشاوي والأستاذ فاروق رسول يحيى والأخ عماد صالح محي الدين، فساهم الكبار أصحاب الفضل وشاركهم فيها الصغار منهم ابننا سعد، وبنتنا الفاضلة المخلصة أم زينب بخطها الواضح الجميل، فكانت تبيّض المترجمات بعد التهجد ليلاً والأطفال نائمون. وفي اليوم التالي يأتيني بالمبيضة زوجها (يلمان عثمان) المهندس في شركة النفط، ثم بيّضها أخي الكبير صباح في مجلدين كبيرين لما وهبه الله من خط جميل، وما زالا محفوظين لدينا. ومما شدّ إعجابي به -وهو لم يبيّض بعدُ إلاّ رسالة أو رسالتين- أنه عرف كنه الرسائل حينما قال لي: ''إحسان سيكون لهذه الرسائل شأن عظيم يومًا ما''. ومن الذين ساهموا في ذلك الأخ عصام معتصم نامق.

- عايشت كثيرًا من مكابدات الترجمة ونشر مقتطفات منها في مجلة التربية الإسلامية في العراق (١٩٧٩م)، وكانت واسطة للتعرّف عليها من قبل علماء العراق منهم الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان (رحمه الله تعالى)، الذي يطلب الاستمرار في

الترجمة، وفي المقر نفسه التقيت الأستاذ إبراهيم منير المدرس رحمه الله، والذي كان يرى أن ما كتبه الأستاذ النورسي في الوسوسة زبدة جميع تلك الكتب التي فيها هذا الموضوع.

٤ - أوائل مراحل نشر رسائل النور:

تم لنا بفضل الله عام ١٩٨٣م طبع رسالة الحشر المترجمة بعد التصحيحات المرجوة، وحال دون طبعها في المستهل أمران، أولهما عدم امتلاك تكاليف الطبع، والآخر خشية رفضها من قبل دائرة رقابة المطبوعات، وقيَّض الله أمرها فاستدنتُ مدّخرات أبنائي وأضفت إليها من راتبي، وبدأنا رحلة البحث عن مطبعة تتكفل بالطبع بأقل قيمة ممكنة، أما أمر دائرة الرقابة فليس أمامنا إلاّ الالتجاء إلى الرب الرحيم. وأخيرًا -بعد بضعة شهور- صدرت الموافقة بحمد الله وفضله وتسلمنا الرسالة وعلى كل صفحة من صفحاتها ختم الرقابة: (يسمح).

- طبعنا في أوّل الأمر بمطبعة بدائية، ثم أخرى مقبولة (مطبعة العاني). وسددت ديون الأولاد. ويسّر الله كلما زاد المبيع صار لدينا من المال ما يمكننا من الطبع في مطبعة أرقى. ولم نستدن من أحد قط. وبلغ مجموع الرسائل التي طبعت في العراق ٤٢ رسالة وبعضها طبعت طبعتين. والفضل لله والبركة منه تعالى.

أم سعد الزوجة الكريمة صاحبة التقوى والورع بفضل الله، أصيبت (١٩٨٤/٥/٢م) بجلطة دماغية شلّت النصف الأيمن منها؛ اللسان والأيمن من اليد والرجل، وعلى الرغم مما أصابها من تعطل اليمين إلاّ أنها كانت تهيّئ باليسار ما تقدمه للضيوف الذين يترددون إلينا للاستماع إلى رسائل النور. فحقًا أنها كما وفّت حق خدماتها أيام صحتها لم تقصر عنها في أيام مرضها قط.

- لما انتهت ترجمة رسالة ''الثمرة'' بفضل الله تعالى وإعدادها للطبع، ساورني خوف عدم موافقة رقابة المطبوعات (لما تضمنته من حديث عن أحوال السجن)، وبفضل الله سمحت دائرة الرقابة طباعتها وطبعت في مطبعة الزهراء الحديثة بالموصل.

- ترجم ابني البار ''أسيد'' إلى العربية -في هذه الأثناء- مجموعة منتخبة من كتاب ''الشهود الأواخر'' التركية، تحت اسم ''ذكريات عن سعيد النورسي'' وصمم غلافه الأخ (معتصم نامق) جزاه الله خيرًا. وطبع بعد العراق في مصر وفي المغرب.

- حققتُ كتاب المثنوي العربي النوري، بدافع حاجتي الماسة إلى مرشد. يعدّ مشتل رسائل النور وغراسها حيث فيه خلاصة أفكار النورسي، وطبع بفضل الله بالرغم من أزمة الورق.

٥- دروس من رسائل النور:

- ما تعلّمناه في تلك الفترة البهية ''أنّ أسعد إنسان هو مَن: لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا، ولا يضحي بآخرته للدنيا، ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية، ولا يهدر عمره بما لا يعنيه، ينقاد للأوامر انقياد الضيف للمضيّف؛ ليفتح باب القبر بأمان، ويدخل دار السعادة بسلام''.[1] وبهذا الصدد وقعت للأستاذ إحسان محاورات وديّة من قبسات رسائل النور، فكان يبحث عن الاهتمام بالآخرة فيما يبلغه من مصنفات، منها كتاب أستاذه الأستاذ عابد توفيق الهاشمي الموسوم بـ ''التصور الإسلامي وخصائصه''، والدكتور محسن عبدالحميد من خلال كتابه المعنون ''منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام''، فكان لهذه المحاورات آثار ظاهر على استعادة العناية بالآخرة في مصنفات ومحاضرات هذين العلمين.

- درسُ النور في المسجد الأقصى نقل لما ما ذكره له الدكتور مصطفى أبو صوَيّ: أخي إحسان! في كل يوم أربعاء ألقي درسًا في المسجد الأقصى، ولكون اختصاصي بالفلسفة فإن أسلوب كلامي يأخذ لونها، فالحاضرون ينظرون إليَّ ولكن يأخذهم غفوة من النوم، وقررت يومًا قراءة ''الكلمة الثامنة'' فألقى الحضور السمع مع دهشة في تيقظ. الله.. الله.. إنّها رسائل النور.

- المال مالُه والملكُ له تلك كلمات من تشرّب رسائل النور، قالها السيد (حسام الدين جانان) صاحب المنزل الذي أقمت فيه منذ ١٩٩٣م، وتلك هي خلال الأخ الكبير عبد القادر بادللي، والأخ الكبير مصطفى صنغور -الذي تحمّس لطبع رسائل النور المترجمة- إلى اجتماع لكبار طلاب النور، فعرضت عليهم موضوع طبعها أمامهم جميعًا، طبع المجلد الأول ''الكلمات'' بفضل الله وكرمه بالرغم من العقبات، وتولت دار سوزلر للنشر بإسطنبول الطبع والتوزيع. وبعدها اعتنيت بالسيرة الذاتية مع الاستماع إلى طلبة الأستاذ.

- سجّل المصنف استفادته من بيان الأستاذ النورسي لأسس قويمة في معاملة المعترضين ودفع اعتراضاتهم التي توجهت أو ستوجّه في المستقبل على الرسائل،

مفادها أن لا يواجه المعارضون بالحدّة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل. بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم فحسب، مع إظهار روح المصالحة، والإجابة بوضوح عن نقاط الاعتراض، حيث إن الأنانية في عصرنا هذا قد تطاولت واشرأبت بعنقها حتى أصبح كل شخص لا يريد أن يذيب أنانيته -التي هي كقطعة ثلج بطول قامته- ولا يرغب في تغييرها، بل يسوّغ لنفسه ويراها معذورة دائمًا. وها هنا ينشأ النزاع والخصومة ويكون موضع استفادة أهل الباطل والضلال على حساب أصحاب الحق وأهله.

لاحظت تكرار رغبة بعض الأساتذة في اختصار رسائل النور، فكان المجلد الواحد مغنيا بحسب تقدير بعضهم، وأمر في غاية التعقيد، ولعل أفضل ما يقرب من هذا المعنى ما قام به الدكتور مأمون جرار من اختيار ''اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان'' من كل مجلد، وفق منهج رضيه الأستاذ النورسي حين أمر ابن أخيه عبد الرحمن أن ينتخب ما يروق له مما سنح لقلب الأستاذ، وكانت ثمرة ذلك ''نوى الحقائق'' أو الحكم البديعية في نهاية المكتوبات، أو ما قام به الأستاذ الدكتور نجيب علي عبد الله السودي في كتابه ''هكذا علمتني رسائل النور'' إذ أخذ ما في مجلد الفهارس (قطوف من موازين النور) وحوّله كتابًا.

٦- انتشار رسائل النور في العالم:

كان للعراق الحظ الأوفر في التعرّف على رسائل النور، ثم انتشرت في المغرب، والجزائر، ومصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، والسودان ثم طارت بها العقول والقلوب في الآفاق الغربية وإفريقيا وأوروبا، من ذلك جهود الأستاذ محسن عبد الحميد، عندما كان أستاذًا معارًا في المغرب (١٩٨٣-١٩٨٥م)، كما انتشرت في مدينة أربيل على يد الأخَوين بشتيوان وكامران، وكان بيتهم أشبه بمخزن للرسائل، وكان الدكتور عماد الدين خليل الأديب المؤرّخ المفكر العراقي من أوائل الحاثين على الاستمرار في الترجمة وطبعها، فكثيرًا ما يقول: متى نرى مجلدات رسائل النور المترجمة. وهو ما كنت استبعده، فنشر عام ١٩٨٥م في مجلة الأمة القطرية[2] تحت عنوان ''عن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي دعوة إلى كسر الحواجز''، فكانت مقالته فاتحة حثّ على التواصل العميق بالعالم العربي، فكثرت الاتصالات من السودان والجزائر.

ذكريات مع رسائل النور:

يذكر الأخ الحبيب حازم ناظم فاضل في ذكرياته أنّه في أواسط سنة ١٩٧٧م كنا نزور الأستاذ إحسان الصالحي يوميًا، وكان يقرأ لنا من كليات رسائل النور المؤلفة باللغة التركية، وكانت هذه الدروس سلسبيلًا لقلوبنا العطشى وجوابًا للأسئلة التي تدور في خلدنا. وأقسم بالله، ما من سؤال كان يدور في ذهني إلّا وكان الجواب حاضرًا في دروس النور.

- عناية القرّاء بالترجمة العربية إذ ما من مؤتمر أقيم في دول العالم حول رسائل النور وفكر بديع الزمان سعيد النورسي، إلّا كانت الرسائل العربية المترجمة من قبل الأستاذ الصالحي، هي المصدر الأساس للباحثين فيها، وقد استفاد منها وأثنى عليها كثير من الأعلام من مصر أ. د عبد المنعم أحمد يونس، والدكتور عماد الدين خليل من العراق، وأ د. حسن الأمراني والأستاذ عبد القادر الإدريسي من المغرب، وعابدين رشيد، من العراق، ومن الجزائر أد. عمار جيدل، وأد. عشراتي سليمان، وشيخ الطريقة القادرية في كركوك الشيخ علي الطالباني (ت ١٩٩٠م)، والدكتور إبراهيم أبو محمد الأزهري. الدكتور الشفيع الماحي أحمد السوداني.

٨- رسائل النور في المؤتمرات:

- **مؤتمرات داخل تركيا**: سجلت الرحلة بداية تفكير طلاب النور في مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم[3] سنة ١٩٩١م في إقامة أول مؤتمر عام في إسطنبول في فندق فخم. ثم أقامت مؤتمرات في كل ثلاث سنوات شارك فيها أعلام الغرب والشرق. وقد منّ الله على الاستاذ إحسان أن شارك في مؤتمرات في الأردن ومصر والمغرب والجزائر وتشاد والنيجر والسودان والإمارات العربية المتحدة (الشارقة) وسورية ولبنان واليمن وإيران والهند وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والفليبين وأستراليا والبرازيل، وداومت المؤسسة على عقد المؤتمرات إلى اليوم.

- **رسائل النور في مؤتمرات الشباب الأكاديمي**: لم يقتصر التعريف برسائل النور على الكبار بل توجّهنا إلى الأكاديميين الشباب وبهذا الصدد فقد ساهمت وثلة من الأساتذة في تأطير أشغالها، وقد شاركنا فيها مع شباب من مصر، سوريا، السودان، الجزائر، المغرب، تونس، العراق...

- رسائل النور في الورشات والدورات:

ورشة أعمال الندوات العالمية لمترجمي رسائل النور(إسطنبول ٢٧-٣١/٨/ ٢٠١٢م)، ورشة عامة (٢٦-٢٨/٧/٢٠٠٥م)، ورشة ''البعد الأخروي في رسائل النور'' (٥-٦/٨/٢٠٠٦م)، ثالثة ''المنهجية في رسائل النور'' (٣٠-٣١/٧/٢٠٠٨م)، شارك في تأطيرها أساتذة أفاضل من مختلف البلاد الإسلامية.

- عقدت أولى الدورات النورية خلال الفترة الممتدة ما بين (٢٨/٥-٨/٦/٢٠٠٦م)، وكان من نتائجها تأليف الدكتور عمر عبد العزيز ''كشتيكى نورانى'' (رحلة نورانية) باللغة الكردية وطبع في مؤسسة آرا للإعلام، ٢٠٠٨م، السليمانية، العراق.

ثم بدأت تترى فكرة الدورات؛ فعقدت دورتان لأساتذة من الأردن، ودورتان من المغرب، وثلاث دورات لأساتذة من إندونيسيا. فضلا عن دورات لا تعد لأساتذة من العراق.

تلك هي مجمل محطات رحلة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، محطتها الختامية رسائل النور التي كتبت بأسلوب ذي خاصية معينة، ففيه ما يخاطب الخاصة والصفوة من المفكرين، وفيه ما يخاطب العامة ويناغي الفطرة والعاطفة، وفيه ما يخاطب الصغار بوصفهم اللبنات الأولى في بناء الحياة، ولم تُكتب لتدرس في مرحلة واحدة أو تدرس على شكل كتب معينة تبدأ بالأول لتنتهي بالأخير، وذلك لأنها رسائل لتقويم الحياة وتربية النفس وبناء العاطفة والعقل، وأثبتت جدارتها في التربية الحقيقية للنفوس وفي تغيير نمط الحياة للكثيرين ممن نسغوا أو ارتشفوا من منهلها، فهي إذًا ليست في مقام التقويم بل في مقام البرمجة والتحليل، ولا تختص بعلم دون علم، بل هي ترسي الأساس للانتهال من المعرفة الحقيقية ومن مصادرها المتكافئة دون مظاهرها المتقاطعة، تلك هي رسائل النور بأفقها الإيماني وقاربها إنساني، ووقودها المستمد من الافتقار إلى الله والاستغناء عمّن سواه في الحلّ والترحال، في السعة والضيق، في الأفراح والأتراح، وفي كلّ محطات رحلات الأرواح إلى عالم الأفراح، عالم الجنة مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

* * *

الهوامش:

[1] المكتوبات، المكتوب السادس عشر ص٨٩.
[2] العدد ٦٠ السنة الخامسة آب.
[3] أنشئت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم عام ١٩٧٩م.

المؤتمرات والحلقات الدراسية

١. مؤتمرات وندوات ضمن الموسم الخامس لرسائل النور في الهند ٢٠١٦

أولا: مؤتمر في جامعة كيرالا: التعليم والأخلاق في ضوء رسائل النور

عقد قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة كيرالا بالتعاون مع مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم مؤتمرا عالميا موضوعه: التعليم والأخلاق في ضوء رسائل النور.

وقد جاء هذا المؤتمر الخامس ضمن الندوات السنوية التي تعقدها المؤسسة مع عدد من الجامعات الهندية.

وقد جرت أعمال المؤتمر في يومي الثامن والتاسع من شهر شباط/فبراير/٢٠١٦

وتمحورت البحوث حول القضايا الآتية:

الثمرات الأخلاقية للإيمان

أزمة الإيمان والمعتقدات الدينية في العصر الحديث

الإنسان والأزمات العالمية المعاصرة

مشروع النورسي المسمى بمدرسة الزهراء

تعايش الإنسان مع حقائق الإيمان

رؤية النورسي حول التربية والتعليم

أهمية إحياء العلوم الدينية في العصر الحديث

الموقف من الآخر في مجتمع متعدد الهوية

أثر رسائل النور في إحياء الإيمان والأخلاق

الإنسان بين المسؤولية الذاتية والمسألة الاجتماعية

وشارك عدد كبير من الباحثين في هذا المؤتمر من عدد من الجامعات الهندية، كما شارك عدد من الباحثين القادمين من خارج الهند، من تركيا والأردن والسعودية

وبنغلاديش وماليزيا والعراق والمغرب والجزائر. وقد قدمت البحوث بلغات ثلاث هي: التاميل نادو والعربية والإنجليزية.

نذكر هنا الأساتذة الذين شاركوا المؤتمر ببحوثهم العربية:

د. أبو بكر توفيق فتاح (ماليزيا): الإنسان والأزمات العالمية المعاصرة -أزمة بحث الإنسان عن السعادة- أُنموذجاً في رُؤية النُورسيِ.

د. يوسي الهواري (الجزائر): التصوف في فكر الشيخ بديع الزمان النورسي.

أ.م. محمد عالمغير (البنغال الغربي): أهمية نشر القيم الإنسانية في ضوء رسائل النور.

دة. مريم عمار عطية (السعودية): التجديد الإيماني عند بديع الزمان النورسي التيارات الفكرية المعاصرة بين الجمود والتطرف.

د. علي محمد مصطفى ديهوم (ليبيا): الإنسان وقضايا المواطنة رؤية إسلامية.

خلاف الغالبي (المغرب): العلم بين الحكمة القرآنية وبين الفلسفة البشرية عند الإمام النورسي.

دة. أم كلثوم بن يحي (السعودية): منهج النورسي في الثبات زمن المحن دراسة مقارنة.

عبد العزيز التزكيني(المغرب): البعد التربوي في رسائل النور للنورسي.

د. مامون جرار (الاردن): رسائل النور وأثرها في إحياء الإيمان وضبط الأخلا.

د. محمد مسيح الرحمان (كولكاتا): رؤية النورسي حول التربية والتعليم.

ذ. عماد شانلي (تركيا): مفهوم الأخلاق في رسائل النور.

د. الجمعي شبايكي (الجزائر): قيمة الوحدة والاختلاف في فكر بديع الزمان النورسي.

د. الشريف حبيلة (الجزائر): تجلي القيم الإيمانية في لغة رسالة سمو القرآن للنورسي.

د. عارف الزغول و د. عبد الكريم علي جرادات (الاردن): الرومي والنورسي ومنهجهما في الدعوة للسلم مع الآخر دراسة مقارنة.

محمد وسكسو (المغرب): الإعجاز النظمي وتجلياته عند النورسي قراءة في "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز".

د .سعيدي مزيان (الجزائر): مشروع إصلاح التربية و التعليم عند النورسي وسعيه لتأسيس مدرسة الزهراء.

نسيم بوعافية (الجزائر): التعليم والأخلاق في ضوء رسائل النور لسعيد النورسي.

ثانيا: ندوة في جامعة مومباي: العيش بسلام وتوافق في مجتمع متعدد الثقافات

أقامها قسم اللغة العربية بالتعاون مع مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

وذلك من ٩-١١ من شهر شباط فبراير.

وقد شارك في الندوة باحثون من مختلف جامعات الهند، وباحثون من تركيا وعدد من البلاد العربية. وسارت جلسات الندوة في ثلاث لغات: العربية والإنجليزية والأوردية، ومما يذكر أن هذه الندوة الموسعة كانت امتدادا لنشاط محدود كان في عام ٢٠١٥ وكان له أثر طيب في الأساتذة وطلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في جامعة مومباي.

ثالثاً: زيارة ندوة العلماء وجامعة أحمد بن عرفان الشهيد في لكناو

قام الأستاذ إحسان قاسم الصالحي يرافقه الأستاذ سعيد أوزادالي والأستاذ نبيل الباز، عقب انتهاء مؤتمر كيرالا أعماله، بزيارة لكل من ندوة العلماء بلكناو وجامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وعقدوا دورة في رسائل النور. استهلت بقراءة عن سيرة الأستاذ النورسي وأسلوب دعوة النور. ودرس في أن الكون قرآن منظور وكيف نقرأه وكيف نفهم أن الموجودات كلها تلهج باسم الله بلسان أحوالها. ثم تعريف مفصل للقرآن الكريم، وكذا درس خصص لمعرفة الشخصية المعنوية للرسول الكريم ﷺ. ودرس في مناجاة سيدنا يونس عليه السلام وكيف نفهمها في واقع حياتنا اليومية.

حضر هذه الدروس الأستاذ مجيب الرحمن رئيس معهد أبي الحسن الندوي الملحق بالجامعة وأساتذة من الجامعة وطلاب الدراسات العليا. وكان لها أثر طيب بفضل الله في نفوس المشاركين حيث قرّبت لهم رسائل النور وعاشوا في أنوار قرآنية من خلالها.

وكانت الدروس تبدأ من الساعة التاسعة صباحا وتنتهي ظهرًا مع استراحة بين

الدروس. وبعد العصر تعقد جلسة ودية مفتوحة مع الطلاب إلى المغرب، ثم جلسة بعد صلاة العشاء مع الأساتذة إلى ساعات متأخرة من الليل. فكانت تطرح في هذه الجلسات الودية اسئلة متنوعة وتناقش أمورا تهم كل مسلم.

٢. مؤتمرات وندوات في المغرب:

الندوة الدولية في موضوع: "المغاربة ومدرسة بديع الزمان النورسي"

٢١-٢٣ مارس/آذار ٢٠١٦

نظمت هذه الندوة شعبة التاريخ في كلية الآداب في جامعة ابن زهر/أكادير بالتعاون مع مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم والمركز المغربي للثقافة والتنمية والتعاون، وقد جاء تنظير هذه الندوة إثر زيارة كريمة من مجموعة من أساتذة شعبة التاريخ لمؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

وقد سعت الندوة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- ما هي المعالم المميزة في الكتابة والتأليف عند الأستاذ النورسي؟

- كيف عالج النورسي مسألة التعدد الفكري والتنوع الثقافي، والخلاف الفكري والمذهبي؟

- ما موقع قيم التعايش الإنساني والتواصل عند النورسي؟

- كيف ينظر النورسي إلى التاريخ؟

- كيف حصل دخول رسائل النور إلى المغرب؟

- ما هي الجوانب من مدرسة النورسي التي استأثرت باهتمام الباحثين المغاربة؟

- ما هي القيمة المضافة في البحوث والدراسات المغربية حول النورسي؟

وللجواب على هذه الأسئلة وغيرها حددت اللجنة المشرفة على الندوة المحاور الآتية:

أ- مدرسة بديع الزمان النورسي: الفكر والمنهج.

- منهج التأليف والكتابة عند النورسي.

- التعدد الفكري والتنوع الثقافي.

- تدبير الخلاف الفكري والمذهبي.

- الانتماء القومي والإسلامي والإنساني.

- القيم الإنسانية عند النورسي.

- منهج التعايش والتواصل الإنساني عند النورسي.

- فلسفة المحنة وأدب السجون والمنافي عند النورسي.

- قواعد التنمية الشاملة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) عند النورسي.

ب- التاريخ عند بديع الزمان النورسي.

- فلسفة التاريخ عند النورسي.

- التحقيب التاريخي.

- السنن التاريخية عند النورسي. (المعايير الثابتة في الهزيمة والانتصار - صراع الإيمان والكفر...)

- النسبي والمطلق في حركة التاريخ.

- التاريخ والقدر. (الحدث التاريخي بين الإنسان والقدر)

- الواجب والفعل التاريخي.

- التاريخ والأبدية.

- أسباب انحسار الحضارة الإسلامية أمام الحضارة الغربية.

- تحليل النورسي لأهم أحداث التاريخ الإسلامي والتاريخ المعاصر خاصة.

- تشخيص حالة الغرب الإسلامي في ضوء الخطبة الشامية (الأندلس/المغارب).

- محطات بارزة من التاريخ المعاصر وأثرها في حياة النورسي ومدرسته الفكرية.

ج- إسهام المغاربة في التعريف بمدرسة بديع الزمان النورسي.

- اتصال المغاربة بمدرسة النورسي: البداية والنشأة.

- الإنتاج المغربي حول النورسي: الأعمال المنجزة بالجامعة المغربية، سواء على

مستوى الماستر أو الدكتوراه/رصد مختلف الندوات والملتقيات العلمية المخصصة للتعريف بالمشروع الفكري للنورسي.

- اهتمامات مراكز البحث الجامعية ومنتديات الحوار.

- منهج المغاربة في التعريف بمدرسة النورسي: بتصنيف المنجز من الأعمال وطبيعته ومجالات الاشتغال.

- المضمون العلمي والفكري لإسهام المغاربة في مدرسة النورسي.

- أثر الإسهام المغربي في مدرسة النورسي.

- الإسهام المغربي في مدرسة النورسي: تقديم نماذج مختارة مع الدراسة.

- نحوتصور أولي لتأسيس نواة لمركز علمي يضم باحثين من مختلف التخصصات، يكون من أهدافه الأولى مقاربة فكر النورسي في ضوء التحولات التي يعرفها العالم الإسلامي.

- مشروع مجلة للتعريف بالنورسي بعيون مغربية.

- أثر مدرسة النورسي في ترسيخ التواصل الفكري والعلمي بين المغرب وتركيا، وبينه وبين سائر البلاد العربية والإسلامية.

شارك العديد من الأكاديميين من بلدان مختلفة مثل المغرب وتركيا والسعودية والجزائر والأردن وكندا...

ألقيت حوالي ثلاثين محاضرة وخصوصا من بعض باحثي الدكتوراه والماستر، وذلك خلال يومي المؤتمر.

كان موضوع الجلسة النهائية مجلة النور، ونوقش الإصدار الثالث عشر ووزع على جميع الطلبة والباحثين..

وانتهت الندوة إلى توصيات تهم الحث على مزيد من العناية برسائل النور لاستنطاق مضامينها في العلوم والمعارف المختلفة خاصة العلوم الإنسانية مثل التاريخ والاجتماع، وترسيخ التعاون العلمي والثقافي بين مركز اسطنبول للثقافة والعلوم وبين المؤسسات الجامعية المغربية.

٣. مؤتمرات وندوات في باكستان:

رسائل النور حديث الساعة في جامعات باكستان

نظمت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم مؤتمرات دولية في أهم الجامعات والمراكز بباكستان أيام ١٠ إلى ١٥ نيسان (أبريل) ٢٠١٦، لقيت اهتماما كبيرًا من قبل الجميع. وقد حضر من تركيا أ.د. إسحاق أوزكيل والأستاذ المساعد أحمد يلديز ومصطفى جالشقان وحاقان كوليرجه وعبد الكريم بايبرا شاركوا بمداخلاتهم العلمية التي كانت لها الفائدة الكبرى في التقاء ممثلي رسائل النور مع باقي الأكاديميين الذين حضروا من دول مختلفة. وقد نظمت ستة برامج في أربع مدن مختلفة من باكستان أظهرت مدى الاهتمام الواسع الذي توليه باكستان لرسائل النور.

برنامج جامعة فيصل آباد الحكومية بتاريخ: ٢٠١٦/٠٤/١٠

تم تنظيم أول مؤتمر في جامعة فيصل آباد وهي أقدم الجامعات هناك، بمشاركة شعبة الدراسات الإسلامية وكان المؤتمر تحت عنوان: "القيم الإسلامية في تركيا ورسائل النور"، وقد شارك في المؤتمر كل أعضاء هيئة التدريس المنتسبين للشعبة المذكورة فضلا عن طلاب الدكتوراه والماجستير. وقد تحدّث كل من أ.د. محمد علي رئيس الجامعة ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية أ.د. همايون عباس في هذا المؤتمر عن أهمية رسائل النور لباكستان، كما عبّرا عن سعادتهما بهذا المؤتمر، وأشارا إلى طبع كتاب يتحدث عن فكر بديع الزمان سعيد النورسي والذي هو عبارة عن أطروحة دكتوراه لطالب درس بنفس الشعبة بالجامعة، كما عبر عن وجوب تكثيف العمل والتعاون مع مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

وفي مداخلته العلمية في المؤتمر أجاب أ.د. إسحاق أوزكيل عن سؤال ماهي القيم حسب رسائل النور، وبعده أخذ الكلمة الأستاذ المساعد أحمد يلديز وقد تحدث عن الفكر السياسي لبديع الزمان النورسي، وأيضا عن موضوع المشروطية المشروعة والجهاد. أما حاقان كولرجه فقد تحدث عن أنشطة المؤسسة وعرض المصادر والمراجع المهمة لمن يريد البحث في رسائل النور لطلاب الماجستير والدكتوراه وعامة الباحثين، وفي الختام بعد مدة استمرت ساعتين اتّخذ القرار في التعاون والعمل المشترك بين المؤسسة والجامعة.

برنامج مدرسة سمارت بكوجرا بتاريخ: ٢٠١٦/٠٤/١٠

وبعد ذلك تم الانتقال لمدينة ''كوجرا'' التي تبعد عن فيصل آباد بحوالي مائة كيلومتر حيث أقيم في مدرسة سمارت بحضور عدد هائل من الأساتذة والطلاب وأولياء الأمور إضافة إلى علماء ومثقفي المدينة، وقد لاقت المحاضرة إعجابا كبيرا من قبل الجميع. وقد كان من بين الحضور أيضا طلاب الدكتوراه الذين ينجزون بحوثهم حول رسائل النور والنورسي وقد سنحت لهم الفرصة للسفر إلى تركيا وزيارة مدارس النور وأتيحت لهم أيضا لقراءة رسائل النور في المدراس النورية. كما ألقى رئيس الجامعة أخضر ضياء كلمة في المحاضرة وتحدث في مداخلته عن تجربته وهو الذي سبق له أن زار مدينة بارلا وأورفة وأثناء عودته من الزيارة أنشأ مكتبة أطلق عليها اسم ''مكتبة بديع الزمان'' فترك فرصة افتتاح هذه المكتبة إلى يوم المحاضرة، وقد كان لذلك طعم رائع وسُرّ الجميع بذلك، ولما تم افتتاح المكتبة بحضور وفد مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم قام الوفد بإهداء مجموعة كليات رسائل النور وغيرها من الكتب التي ألّفت حولها.

برنامج في المركز الإسلامي للشيخ زايد في جامعة بنجاب بلاهور ٢٠١٦/٠٤/١١

نظمت في هذا اليوم بجامعة بنجاب بالمركز الإسلامي للشيخ زايد ندوة تحت عنوان: ''مدخل إلى سعيد النورسي ورسائل النور'' حضرها كل من طلاب الماجستير والدكتوراه فضلا عن أعضاء هيئة التدريس، وقد افتتح الندوة د. عبد الله صالح الذي كان قد حضر لإحدى الندوات الدولية التي تنظمها مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، وكان يأمل دائما في تنظيم ندوة أو أنشطة علمية بالجامعة التي يعمل بها، فكانت هذه فرصة لا تعوّض، فعبّر في مداخلته هذه عن مدى امتنانه وسروره لتنظيم هذه الندوة وشكر الوفد على حضوره، فكانت هذه الندوة بمثابة تحقيق لحلمه الذي طالما حلم به كما ذكر.

وبعده أخذ الكلمة د. اشتياق أحمد كوندال فعبّر خلال مداخلته على أن هذه الندوة فرصة ثمينة للتعريف برسائل النور، وأيضا للتعرّف عليها من قبل طلاب الجامعة وخصوصا منهم طلاب الماجستير والدكتوراه لأنها كنز كبير لا يعرف اسراره إلا من سبر أغواره، وقال بأن هذه الندوة هي مجرد بداية لافتتاح رسائل النور في هذه الجامعة ونتمنى أن تكون البداية وليست النهاية وأن تعقبها ندوات أخرى إن شاء الله. ثم أخذت الكلمة أ.د. جميلة سواوكات التي كان لها الفضل الكبير في استقبال الوفد التركي

والسهر على القيام بكل حاجياتهم. وفي آخر الندوة تم إمضاء بروتوكول التعاون بين جامعة بنجاب والمؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

برنامج شعبة اللغة العربية، جامعة بنجاب بلاهور، ٢٠١٦/٠٤/١٢

نظمت شعبة اللغة العربية ندوة تحت عنوان: ''الدراسات الإسلامية في تركيا وباكستان'' وقد عرفت حضورا مكثّفا من طرف الطلبة والباحثين فضلا عن الأكاديميين، وقد تم التعريف برسائل النور في هذه الندوة وقد تم الحديث عن الفعاليات التي تقوم بها المؤسسة للتعريف بالرسائل وذلك من خلال الندوات الدولية والمؤتمرات العالمية التي تنظمها إضافة إلى مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية التي تصدرها نفس المؤسسة وغيرها من الخدمات داخل البلاد وخارجها. وقد تم افتتاح هذه الندوة من طرف رئيس الشعبة أ.د. حميد أشرف حمداني الذي ركّز على ضرورة المزيد من التعريف برسائل النور حيث أنها تلزم لكل مكان وأن الجامعة محتاجة لها في كل وقت وحين، لذلك فإن هذه الندوة الوحيدة لا تكفي، وأشاد بحضور الوفد التركي وشكره على تلبية الدعوة إلا أن تنظيم ندوة واحدة لا يزال غير كاف.

ثم أخذ الكلمة عميد كلية اللغات الشرقية أ.د. محمد فخر الحق نوري شكر الحضور وخاصة الوفد القادم من مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، وبعده أخذ الكلمة أ.د. إسحق أوزكال والأستاذ المشارك أحمد يلديز وحاقان كولرجه.

برنامج الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد بتاريخ: ٢٠١٦/٠٤/١٣

نظمت مجموعة من البرامج في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وهي جامعة كبيرة تضم عددا هائلا من الطلاب الأجانب، فقد زار الوفد القادم من تركيا رئاسة الجامعة وكذا رئاسة شعبة التفسير وكلية اللغات.

وقد تم في هذه الزيارات إهداء مجموعة من نسخ مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، كما تم تنظيم مؤتمرين في قاعتين مستقلتين بحضور مئات الطلاب، وفي المساء تم تنظيم اجتماعات في نادي الطلاب.

برنامج الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد بتاريخ: ٢٠١٦/٠٤/١٤

تم تنظيم ندوة تحت عنوان: ''فن العيش المشترك في فكر سعيد النورسي ومحمد إقبال'' في نفس الجامعة وقد حضر نخبة من الأكاديميين والباحثين، وقدّم عدد من

الأكاديميين مداخلاتهم وكذا طلاب الماجستير والدكتوراه حول محمد إقبال وكان عددهم تسعة حيث رأس الجلسة رئيس الجامعة أ.د. أحمد يوسف الدراويش. بعد ذلك قام أ.د. محمد ضياء الحق المدير العام لمعهد الدراسات الإسلامية بتقديم المعلومات الضرورية عن المعهد.

برنامج الجامعة الوطنية للغات المعاصرة بإسلام آباد بتاريخ: ٢٠١٦/٠٤/١٥

كان برنامج الجامعة الوطنية خاتمة البرامج، حيث يدرس بهذه الجامعة حوالي خمسة عشر ألف طالب، وقد نظمت هذه الندوة بالمشاركة بين مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم مع شعبة اللغة العربية وشعبة الدراسات الإسلامية، وفي هذه الندوة قدّم رئيس الشعبة د. السيد عبد الغفار البخاري بحثا رائعا تحدث فيه عن مدى حاجة الناس لفكر بديع الزمان سعيد النورسي وأن أفكاره العالية ضرورية للمجتمع، بعد ذلك أخذ الكلمة رئيس شعبة اللغة العربية د. كفاية الله الحمداني ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية د. أشرف ضياء قدم بحثا قيّما عرّفا من خلاله برسائل النور، كما تدخّل المتحدث باسم مجلس إدارة مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم مصطفى جالشقان وذكر بأن هذه الزيارة للجامعة بل لباكستان كانت متأخرة حيث كان ينبغي المجيء قبل سنوات، فالجامعات الباكستانية في حاجة للتعرف على فكر النورسي ورسائل النور، ووعد الجميع في آخر مداخلته أن هذه الزيارة لن تكون الأخيرة بل ستليها مؤتمرات أخرى وزيارات المحبة في أقرب وقت. وبعده أخذ الكلمة الأستاذ المشارك الدكتور أحمد يلديز و أ.د. إسحاق أوزكيل قدما بحثا متميزا عن رسائل النور. وختم حاقان كولرجه عضو في مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بالحديث عن الأنشطة التي تقوم بها المؤسسة وقام بدعوة طلبة الدكتوراه لزيارة المؤسسة في إسطنبول.

٤. مؤتمر رسائل النور في جامعة اوكرانيا

عقد احد البرامج اليومية في واحدة من أقدم الجامعات في اوكرانيا، جامعة ولاية اوستروه. في ٢٨ مايس ٢٠١٦.

نظمت مؤسسة إسطنبول للعلوم والثقافة وجامعة ولاية اوستروه إلى اجتماع يهدف إلى مناقشة مستقبل التعاون المشترك والشراكة بينهما. حضرها كل من الدكتور ميخايلو ياكوبوفيش، الأستاذ الدكتور ايهور باسيشنك، الأستاذ الدكتور بترو كراليوك، البرفسور

فارس قايا و خاقان كلرجه. بعد الاجتماع، شارك طلاب الجامعة من قسم العلوم الاجتماعية والأكاديميين المشاركين في لوحة بعنوان "مقدمة لرسائل النور". بالإضافة إلى مناقشة حياة وأفكار سعيد النورسي، وكان هناك أيضا نقاش حول الحالة الراهنة لدراسات رسائل النورسي في جميع أنحاء العالم. انتباه الطلاب إلى ما قيل فضلا عن الأسئلة التي طرحها كل من الأكاديميين والطلاب أشارت بوضوح أنهم استفادوا كثيرًا من النقاش. وأخيرًا، تم تسليم نسخة مجانية مختصرة من الكلمات والآية الكبرى باللغة الأوكرانية لجميع الطلاب الذين كانوا حاضرين.

* * *

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضاءين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الإشتراك السنوي (عددان)

الإشتراك في تركيا: ..... ٢٠ ليرة تركية

الإشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: ..... ١٥ دولار أمريكي

الإشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: ..... ٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بايبارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق –الحي السابع
مدينة نصر–القاهرة –جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: Introductory Note 3

Miscellaneous Studies

- Prof. Dr. Ziyad Khalil al-Daghamin: The Prophets' Reading of the Cosmic Book In the Light of the Risale-i Nur..... 9
- Dr. Ahmad 'Ali Sulayman: Bediuzzaman Nursi's Principles of Educational Reform..... 27

Dossier:

- Prof. Dr. 'Aziz Muhammad 'Idman: Action According to Positive Principles and Obstacles to Study in the Risale-i Nur..... 67
- Hamid Samir: Bediuzzaman's Views on an Alternative Modernity..... 87
- Dr. Habiba Abu Zayd: The Culture of Environment in Islamic Thought Through the School of Bediuzzaman Said Nursi..... 107
- Dr. Asya Shakirab: The position of Risale-i Nur collection on the approach of philosophers, theologians and mystics regarding the research on the prophethood issue..... 123
- Dr. Idris Maqbul: Justice in the Light of either Qur'anic Wisdom or Philosophy of Human Inspiration: A Study of Experiential Knowledge in the Thought of the Sage Said Nursi..... 145

Interviews, Publications and Conferences

- Interview with Prof. 'Abd al-Hakim b. Muhammad al-Anis..... 165
- **Publications:**
  A reading of the book: *My Journey With the Risale-i Nur*..... 171
- **Conferences and Study Circles:**
  1. The 2016 Season of Risale-i Nur Symposia and Conferences in India..... 181
  2. Symposia and Conferences in Morocco..... 184
  3. Symposia and Conferences in Pakistan..... 187
  4. Symposium on the Risale-i Nur in the University of the Ukraine..... 190
- **Information on Publishing Papers in al-Nur** 192

Contents / Annual Subscriptions 193

– Only papers conforming to academic standards will be considered for publication